يقظة الروح

مفاهيم أولية عن حقائق الصحوة الروحية

الجزء الثاني

عبدالرسول محمد الزاهد

يقظة الروح

الجزء الثاني

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
alab3ad@hotmail.com

يقظة الروح

مفاهيم أولية عن حقائق الصحوة الروحية

الجزء الثاني

بقلم:

عبد الرسول محمد الزاهد

الطبعة الأولى 2021

الإهـداء

إلى أصل الأصول، وسر القبول، وباب الوصول، سيدنا وحبيبنا محمد أكرم نبي وأعظم رسول ذو الجاه والقبول والمدد الذي لا يزول..

إلى أهل بيته الذين حيروا أولي الألباب والعقول، وأصحابه النجباء الأصفياء أولي المكرمة والطول..

إلى أرواح الأنبياء والأولياء والصديقين والشهداء والملائكة الذين لا يسبقونه بالقول..

إلى الأرواح المرشدة الهادية التي كان عطاؤها للعالمين موصول..

إلى روح والدي جناحاي من الدنيا..

إلى روح روحي وثمرة فؤادي ولدي هاشم..

إلى الأرواح المتعطشة لليقظة الروحية.. وإلى العقول الباحثة عن الحقيقة..

أهدي هذا العمل المتواضع سائلاً المولى عز جل أن يتقبله بقبوله الحسن إنه ولي التوفيق..

المقدمة

شعورنا بأهمية شيء ما يأتي من خلال بذل الجهد في تحصيله من جانب، ومعرفة قيمته الحقيقية من جانب آخر. فحين نحصل على الأشياء بسهولة ويسر، وحين لا نعرف قيمتها الحقيقة وكيفية الاستفادة منها فمن الطبيعي اهمالها والنظر إليها نظرة لا مبالاة واكتراث وعناية.

وهذا هو حالنا فيما يتعلق بالدين..

لقد فتحنا أعيننا على دين توارثناه أباً عن جد.. دين قُدم لنا على طبق من ذهب.. لذلك أصبح تعاملنا مع الدين تعاملاً تقليدياً يسير وفق منظومة رتيبة وسطحية.. ولم نحقق النتائج المرجوة منه. بل جعلناه منفصلاً عن حياتنا الشخصية وتطلعاتنا الذاتية..

فكيف للدين.. وكيف لموجد هذا الدين أن يتدخل في حياتنا ويغيرها وقد أغلقنا باب التواصل بيننا وبينه.. فصلاتنا تنتهي بالتسليم، وصيامنا ينتهي بحلول العيد، وحجنا ينتهي برجوعنا غانمين إلى أرض الوطن.. في حين أن كل هذه الطقوس وغيرها لابد أن تكون في صميم وعمق حياتنا.. لا تنتهي بانتهاء أدائها.. فكل ما نقوم به قربة لله، وكل قربة ينبغي أن تكون على تواصل مع حياتنا العملية..

ممارستنا وإن طالت لطقوس العبادة من صيام وقيام وصلاة وزكاة وحج.. وغيرها، لا نرجو أثرها ما لم تلق بظلالها على حياتنا اليومية وتكون مشبعة بروح الخير والحب والتعاطف والصدق مع النفس.

الدين لا يُورث.. صحيح أنك تنشأ في أسرة تؤمن بدين ومذهب معين، ولكن ينبغي أن لا يقيدك هذا في البحث عن حقيقة الدين.. فالدين لا يُقدم ولكنه يُكتشف ويُبحث ويلمع في قلب وروح الإنسان.

الدين روح متدفقة حية، متحركة، متحررة ومنفتحة.. لا يُجمّد الدين بالكلمات والتفاسير والآراء التي تؤخذ مأخذ التسليم.. فكأننا بهذا نُقلم أجنحة الطائر الحر ونقطع جناحية..

هذا الدين المليء بالإشارات والرموز والدلالات والإيحاءات لا يمكن تحجيمه في تفاسير وآراء بشرية محدودة.. لكل إنسان الحق في أن يبدي وجهة نظره المبنية على أسس ودعائم جلية وواضحة.. ولكن لا ينبغي تقديس هذا الرأي لأن البعض يعتبر قائله مقدساً.

لا يمكن اختزال الدين في قوالب نظام عقدي ومجموعة مفاهيم وتصورات ورؤى وأفكار وجملة من طقوس وشعائر.. فالدين في مجمله لا يخرج عن كونه تجربة روحية عميقة تدخلها الأرواح حين تحل بالأبدان فتتخذه خارطة لها في تيسير أمور حياتها الأرضية.. فالدين شأن مقدس يكشف عن حقيقة الخارطة الإلهية لبني البشر.. ولكل إنسان بصمته الخاصة في هذه الخارطة..

حين نتحدث عن الدين لا نعني الكتب والمصادر والمراجع والروايات والعقائد والتفاسير.. وغيرها.. فكل هذه الأمور أدوات لفهم الدين، وليس حقيقة الدين.. الأدوات تساعدنا على فهم رمزية الدين وتحل بعضا من غموض إلهاماته.. بينما نقصد بالدين هي تلك الإشارات الروحية التي رسمت نهج الخارطة التي تكشف عن الحضور المقدس للخالق وتجلي أسمائه في الموجودات..

بمعنى آخر الدين هو التجربة الروحية التي يخوضها الإنسان ليكون طرفا في معادلة الكون وفي تحقيق الإرادة الإلهية في الأرض.. هو فهم إشارات السماء وما يريده الله منا في وجودنا الأرضي.

لذلك لا يمكن أن نطلق على إنسان ما أنه متدين ما لم يدخل في تجربة روحية حقيقية مع الخالق سبحانه وتعالى.. تصل من خلالها إشاراته التي يفرق من خلالها الحق من الباطل.. ﴿يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾ فرقانا يغنيه عن الظن والاستدراك والشبهة والأحوط والأولى وما أشبه.. ويكون على بصيرة من أمره، حكيماً في سلوكه، نقياً في باطنه، رحيما في تعامله مع الآخرين. ولأننا لا نعرف أهمية الدين كبعد روحي فقد سعينا منذ البدء إلى إخضاعه لمستوى إدراكنا واستيعابنا.. لا أن نطور من أنفسنا ونشحذ عقولنا لفهمه واستيعابه..

ففسرنا إشاراته بمقتضى وعينا المبدئي.. وحللنا دلالاته وفق قناعات عقولنا المحدودة، حتى أصبح الدين (الروحي) كومة من العقائد والطقوس توارثناها من السابقين وسنورثها لللاحقين.

لقد أصبح هوس البعض بالدفاع عن دينه ومذهبه يفوق اهتمامه بإتباع التعاليم الأساسية لهذا الدين. وكأن جوهر القضية أصبح مسألة انتماء وعلو وسطوة وسيطرة ونفوذ لا قضية تطور روحي وعروج إلى الله وتغيير الباطن. لقد وقعنا ضحية قيود الحرف وأغلال الشكل..

لم يأت الأنبياء إلى العالم لينشئوا أحزاباً أو جماعات أو فرق.. بل أتوا بكلمة الحياة والمحبة والرحمة.. ولكن البشر وجدوا أن من السهل عليهم أن يقيموا معابد الحجارة وأن يلتجئوا إليها بدلاً من أن يحيوا بكلمات الأنبياء.. وبدلاً من إقامة وبناء المساجد في داخل قلوبنا، تسارعنا في بناء وتشييد المساجد على الأرض.. وبذلك

انحصـر اهتمامنا في كل شيء سطحي ظاهري بعيد عن جوهر الدين.

لن يذوق الإنسان طعم السعادة الحقة مادام يبحث عن الله خارج قلبه.. إذ أن السعادة الحقيقية هي في اكتشاف الروح وأنها قبس من روح الله.

كثيراً ما نلجأ إلى الله في الأمور الخطيرة والأزمات والمحن، ولكن من الصعب أن نصغي لإرشاده في حالتنا الطبيعية وفي حياتنا اليومية في ثقة واطمئنان، مفضلين إتباع تفكيرنا البشـري الضعيف الذي كثيراً ما يقودنا بعيداً عن الهدف المنشود.

فنحن نريد أن نغير وجه العالم.. ونغير الآخرين.. ولكن دون أن نبدأ بتغيير أنفسنا أو نفهم طبيعة الإشارات المكنونة في عمق الدين وتجربته الروحية.

ولتحقيق غاية فهم بعض مفردات هذا الدين فقد خصصنا الكتاب الثاني من "يقظة الروح" لبيان بعض الدلالات الروحية للأعمال العبادية بما يحقق المفهوم الروحي للدين، كما ألقينا الضوء في الجزء الثاني من الكتاب على طبيعة المرحلة التي نعيش فيها وبيان حقيقة التيه والضياع الذي نعيش فيه.

والله أسأل أن تعم محتويات هذا الكتاب بالنفع والفائدة للجميع.. إنه ولي التوفيق.

قبل أن تقرأ هذا الكتاب

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ﴾.

على الرغم من تصديق الله لرؤيا النبي ﷺ والتي تحققت بعد الفتح، إلا أن الله يقول "إن شاء الله" فإذا كان يمضي ما يقضي، ويقضي ما يُقدر، ويُقدر ما يريد، ووعده صدق وقوله حق، فلماذا بعد توكيد صدق الرؤيا يقول "إن شاء الله"..

الوعد واقع لا محالة.. إلا أن الله يشير إلى معنى في غاية الأهمية، وهي أن حركة الإنسان في الحياة ينبغي أن تُوكل إليه بشكل مباشر حتى فيما نعده من اليقينيات والثوابت والمسلمات، ينبغي أن لا تكون إرادتنا ويكون ووعينا خارج دائرة الإرادة والمشيئة الإلهية.

فما من أحد إلا ويأمل زيارة البيت الحرام.. إلا أننا نختلف في غاية ونهج هذه الزيارة، فعامة الناس "ضجيج" يرتحلون مكانياً بأجسادهم للمسجد الحرام ويتعلقون بأستار الكعبة ويتزاحمون على تقبيلها ولمسها، هم يُفعلون إرادتهم لتحقيق المراد أو لإسقاط التكليف. بينما الحجيج أهل الحب يقدمون مشيئة الله حال ارتحالهم، فإن شاء ارتحلوا، وإن لم يشأ أمسكوا، ولكنهم في كلا الحالتين مرتحلون إلى محبوبهم بأرواحهم وقلوبهم.

"إن شاء الله" تعودنا قولها لفظياً حين نزمع القيام بعمل ما في المستقبل، في حين إنها تمثل "مشاركة" روحية.. نشارك إرادتنا مع إرادة الله في النية والعمل وكل ما يرتبط بأهدافنا وغاياتنا في الحياة، فحين لا ينفرد ويستأثر المؤمن المحب الواعي بإرادته وتفكيره ويتصلب بمسلماته ويتزمت بمعتقداته ومعارفه التي اكتسبها ويسال الله بروحية المحتاج، وإلحاح الفقير المسكين فيض

علمه وعطائه فمن شأن هذا العوز أن يجلي بصيرته ويفتح قناة الوصال الروحي.. فحين لا يكون الإنسان مريداً بذاته تتجلى فيه إرادة الحق التي تبصرة لمعرفة الحقائق. لذا يقول: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ﴾ فكيف يتصدق علينا مع ادعائنا الاكتفاء، وكيف يمن علينا مع ظننا أننا في حال الكمال.

قبل أن نقرأ هذا الكتاب لنجعل هذه الفكرة في أذهاننا جيداً.. فالحياة صاغتنا وفق مناهج ومسلمات، ونحتت فينا الكثير من القناعات التي قد يتقاطع بعض منها فيما سنقرأه، فلا تحكم على شيء إلا بعد تأمل ولا تؤمن بشيء إلا بعد تمحيص وتدبر، فلسنا سوى عابري سبيل ومتعلمين على سبيل نجاة.

كن شاهداً ومراقباً لما تقرأه.. اقرأ وكأنك لا تعلم شيئاً، وحين تعلم تجاوز ما تعلمته حتى تعلم أنك لا تعلم شيئاً، ثم تجاوز العلم للمعلوم وقل "إن شاء الله" ففوق كل ذي علم عليم.

دع عنك كلمات الكاتب واسمه ورسمه وتعمق في روحك واستعلم ذاتك، فالحقيقة ليست على صفحات الكتب ولا أفواه المناطقة، الحقيقة قابعة في روحك لا تدركها رسوم الأحرف وألفاظ الكلمات، فالكتاب قد يثير فينا ما غيبه الوعي الجمعي، فالرحلة الروحية لعالم الأبدية والخلود درب جميل إلا أنها تحتاج إلى إثارة كي يشتعل وهج الشوق للمضي فيها.

إن هذا الكتاب مجرد نافذة صغيرة تطل على العالم الآخر، قراءتك له أشبه بإزاحة الستار عن النافذة، ولكنها لا تستطيع نقلك خارجاً ما لم ترغب أنت بذلك.. أنت وحدك من يقرر هذه النقلة النوعية في حياتك، فإن توهجت عزيمتك واشتعل شوقك فلتلامس "إن شاء الله" روحك لتطلب العون والمدد منه لتبدأ رحلتك الروحية.

يقظـــة العبادة

- ما يسبق العبادة
- تذوق حلاوة القرب
- الصلاة والتأمل
- الحج محاكاة الحياة
- تألق الصوم في زهرة اللوتس
- ليلة القدر.. تجلي الحب الإلهي
- سر الشهر الكريم
- اللذة الروحية للذكر
- رموز العبادات ودلالتها
- ناشئة الليل والبناء الروحي
- دين البصيرة والخلاص
- أراك مهموماً
- الصبر.. وتغيير القدر
- لا تفر وتهرب كالأطفال
- الخلوة وسقوط الأقنعة

ما يسبق العبادة

لا تؤتي العبادة أكلها إن لم تمس وجدان الإنسان وروحانيته، وحتى تمس الباطن والروح ينبغي أن تسبق العبادة معرفة حقيقية بالأبعاد الروحية والنفسية والباطنية كي نهيئ الأرضية التي تنبت عليها فسائل العبادات.

ينبغي أن يعرف نفسه، بدون معرفة النفس قد يتعثر الإنسان في مسيرته العبادية.. أن يعرف ربه، ولمن يؤدي هذه العبادات والطقوس. كثيراً من الناس لا يعرفون حقيقة لمن يُصلون أو يذكرون.. هم يقولون الله إذا سألتهم.. ولكن من هو الله، ما علاقتك به، ما هي تجربتك الروحية معه؟ هل تعلم شيئاً عن الله غير ما هو مدون في الكتب؟ نحن نعرف عن الله - أي نعرف ما كتبه الآخرون عن الله - ولا نعرف الله.

لذلك من الخطورة بمكان أن ندعو الناس إلى أصناف العبادات دون أن نعرفهم بحقيقة من يعبدون وله يسجدون.. هنا تتحول العبادات إلى قنابل موقوتة وألغام قد تنفجر بصاحبها في أي وقت.. فبدون معرفة النفس وآفاتها وأمراضها ومهلكاتها تتحول العبادة إلى عادة وترف فتُعلي من شأن الأنا ويصاب الإنسان بالكبر والغرور.

بدون معرفة العلاقة بين عالم الغيب والشهادة.. الأبعاد الروحية وعلاقتها بالجانب المادي لا يدرك الإنسان فحوى عباداته إلا كونها أوامر إلهية ينبغي القيام بها..

حين نركز على المعرفة والحب في مقالاتنا، ذلك لأن الحب هو التربة الصالحة التي ينبغي أن تغرس فيه بذور العبادات والمعرفة هي الوعي الذي ندرك فيه حقيقة وجودنا وسر علاقتنا مع الخالق. الذكر والصلاة والصوم وبقية العبادات لا ينبت شجرتها إلا في تربة المعرفة والحب.

قالوا لنا أن العبادات هي أساس الدين.. ونسوا أن الفطرة تتقدم على الدين، فالدين من الفطرة، وليست الفطرة من الدين.. وأهم أساسيات الفطرة هي المعرفة والحب.. "أول الدين معرفته" وكل ما يغرس خارج أرض الفطرة (المعرفة والحب) لن نجني ثماره المرجوة.

ينبغي أن ندرك ونفهم الأسس التي فطرنا الله عليها حتى تؤسس العقائد والعبادات وتنضج على نار هادئة من الوعي الروحي والمحبة والمعرفة وإلا فسوف تتحول إلى تقليد أعمى وترديد ما يتم نقله..

من السهولة أن نلقن الناس ونأمرهم أو نمجد لهم ونوضح الثواب المرجو من العبادة الفلانية، ولكن ماذا نتوقع النتيجة.. بالتأكيد سيكون إيمان قشري سرعان ما يتلاشى أو يتحول إلى مجرد عادة حركية يجني من ورائها الثواب.

من السهولة أن ندعو شخصاً ما إلى الصلاة أو إلى ذكر الله.. ولكن قبل هذا ينبغي أن نغرس بذرة حب الله في قلبه، ينبغي أن نعرفه بحقيقة الحياة وسبب دعوته للأرض، ونبصره بشيء من حقائق الروح، وأمراض النفس وكيف يتعامل معها.

قبل أن نعلمه الذكر ينبغي أن نقمع الأنا في داخله ونخلصه من الطمع والغرور والأنفة.. وهذا لا يكون إلا بالمعرفة الروحية التي تكشف لنا حقيقة أنفسنا وسر وجودنا وطريق عروجنا وتجول بنا في عوالم الغيب حتى تنتهي بحقيقة الموت وهو آخر

أسرار الحياة. وأثناء تجوالنا سنغترف رشفا من المعرفة النفسية ومداخل الشيطان وكيفية قمع الرغبات والتمسك بالماديات.

عايشت أشخاصاً كانوا يذكرون الله بمئات الألوف كل يوم.. فماذا كانت النتيجة، ادعى بعضهم المهدوية، وآخر وصل إلى درجة من الغرور والتكبر حتى يكاد يقول أنا ربكم الأعلى.. وثالث انشغل بتكديس الذهب والفضة.

ينبغي أن نركز على صفاء وتنقية الباطن والقلب في البداية قبل الدعوة للعبادة.. وكما قيل سابقاً ثبت العرش ثم انقش.. لأن عبادة لا تنبت في أرض طيبة مفعمة بالمحبة والمعرفة والوعي الروحي سنحصد منها أشباه خوارج هذه الأمة.

فلم يكن هناك من هو أشد - ولا يزال - تمسكاً بالعبادات من الخوارج.. أكثرهم ذكرا لله، وأكثرهم صلاة، جباههم اسودت من أثر السجود.. ولكن لم يغير هذا من حقيقتهم، ولم يبدل سلوكهم، ولم ينجهم من الهلكة وسوء المآب، لأنهم ما وعوا حقيقة الإرشاد والتوجيه الإلهي، لم يحرثوا أرض قلوبهم القاسية لتكون محطاً لأنوار ذكر الله سبحانه وتعالى.

فلم تزدهم عبادتهم إلا استعلاء في الأرض وارتماء في أحضان الشيطان وشراكه..

لا ننصح أن توجه الأم ابنتها للحجاب إلا بعد أن تغرس فيها حب الله بقوة، وتبين لها كيف يرعاها هذا الإله في حلها وترحالها، في يقظتها ومنامها، في أكلها وشربها. لابد أن تعرف كيف يحبها الله أكثر مما تحبه، وكيف يريد لها الخير والنجاة والسعادة، بعد ذلك نبين لها ضرورة لبس الحجاب.

نجعل هناك تواصل بينها وبين الله، ونؤكد عليها أنه يسمعها ويراها ويستجيب لها، فحين ترى استجابة واحدة.. فقط واحدة

فسوف ترتدي الحجاب من تلقاء نفسها ولا حاجة لها لمغريات الأهل وحفلات لبس الحجاب وما أشبه.

لا ينبغي تخويف الشباب من الله.. بل ينبغي أن ندمج حياتهم بالله قبل أن نأمرهم بالصلاة، نشعرهم بأهمية الله في حياتهم، وكيف أن نبضات قلوبهم أشبه بإشارات تستقبلها السماء.

البعض قد يحتاج أن نحذره بقوة ونلفت نظره بشدة، فما يفعله قد يعود عليه بردود فعل لا تحمد عقباها، ولكن ينبغي أن يكون تحذيرنا يركز على نتائج أعماله ولا يكون ترهيبه وتخويفه من الله. فمن الأخطاء الجسيمة التي نتعامل بها مع أولادنا أننا نخوفهم من الله ونستخدمه - تقدس اسمه - كالعصا التي نخوف ونرهب بها الآخرين.

من السهولة أن ندعو الناس إلى الذكر فالمكتبات تزخر بمثل هذه الكتب.. ولكننا بحاجة إلى ذاكرين تغير أسماء الله صفاتهم وتخرجهم من ظلمات الوهم إلى نور اليقين، نحن بحاجة إلى سلوك الذاكرين..

من السهولة أن تأمر الناس بالصلاة، ولكننا نريد من يقيم الصلاة.. نريد مصلين على الحقيقة تنهاهم الصلاة عن الفحشاء والمنكر وتغير من نظرتهم للحياة وتزيد وعيهم الروحي.

من السهولة أن تكتب عن الأخلاق أو تنادي بأعلى صوتك على المنابر بمكارم الأخلاق وفضائلها، ولكننا بحاجة إلى من يجسد هذه الأخلاق،

ولن يكون هذا إلا بعد أن يعي الإنسان حقيقة أبعاده الروحية ومكونات الوعي لديه التي يؤسس عليها تجربته الحقيقية مع الخالق جل وعلا.

حين يدعونا الله لذكره ولإقامة الصلاة والتفكر والتدبر والتأمل، ليس لأداء فرض أو طقس شعائري تكليفي فقط.. بل إن هذه الأمور وسائلُ وليست غايات الهدف منها تهيئة أنفسنا لنكون في أحسن حالات التلقي والاستقبال.

تزاد أهمية هذا الأمر كلما ابتعدنا عن المنبع، وكلما زادت الشقة بيننا وبين المصادر الروحية الأولى، فهنا تتحول الحقائق إلى مجرد إرث يتناقل بين الأجيال ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـذَا الأدْنَىَ﴾ وهذه الظاهرة ليست مقتصـرة على الإسلام ولكنها تسري في كل الديانات والملل الأخرى.

فكما أن الاقتراب من منبع الغدير يجعلنا نرتشف ماءً سائغاً نقياً بلا كدر أو شوائب، فإن الابتعاد عنه سيجعله ملوثاً ومعرضاً للعديد من المتغيرات التي تفقده مذاقه وطعمه، وقد يصل إلى درجة من التلوث بحيث يسبب الأمراض الفتاكة والمؤذية للإنسان فيما لو لامس هذا الماء أرضاً موبوءة أو وطأته حشرات ناقلة للجراثيم والفيروسات.

عندما ابتعد بني إسرائيل عن موسى (ع) عبدوا العجل.. وحينما ابتعد النصارى عن عيسى (ع) شكلوا الثالوث المقدس.. وعندما مات بوذا عبد أنصاره ومحبيه الأصنام.. وحين مات زرادشت عبد أتباعه النار.. وبالتالي فإن مرحلة الانتقال والتغيير تبدأ عند ابتعدنا عن منبع الرسالة أو الديانة وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾. ففي الوقت الذي تشدد فيه الديانة على الصلة بالله عبر مفهوم الصلاة نجدها تتحول إلى طقوس شكلية ورياضات بدنية هدفها إسقاط التكليف الشرعي لا أكثر.

وما بين منبع الرسالة والديانة.. وبين واقع التطبيق تنهال علينا الآراء والأفكار المفسرة لهذا الدين، هذه الآراء التي تخرج

- معظمها - عن كونها انعكاس لآراء شخصية نسقطها على الرؤية الدينية، فنحلل الأمور وفق معطياتنا المعرفية والمعلوماتية المحدودة، ونفسر منهاج وسلوك السماء وفق معلومات أرضية محدودة وضيقة الأفق. مما كان له أخطر الأثر على تكامل مسيرة الديانات السماوية منها والأرضية.

وقد كان للإسلام النصيب الأكبر من غربلة منظومته الفكرية والروحية عبر آراء المفسرين والمحللين والمجتهدين، وما واقع الفتن المذهبية وتدني قيمة الإنسان والدعوة إلى الله بالحديد والنار وتمجيد القتلة والظلمة وغسيل الأدمغة باسم الدين والإيمان إلا حلقات من مسلسل تفسير الدين وفق أهواء شخصية وتقنين منهج السماء وفق قناعات مصلحية ذاتية.

لقد طالت الآراء الشخصية أعظم كتاب سماوي نزل على البشر وهو القرآن الكريم معجزة الله الخالدة عبر الزمان، حتى وصلت الآراء والأهواء إلى مخالفات صريحة وجريئة لكلام الله. فالله يقول شيئاً، والمفسرون يقولون شيئاً آخر.. الله يقول: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ وهم يقولون: أن (هل) بمعنى قد، فتكون الآية قد أتى على الإنسان.. مما يخالف مقصد الفكرة الرئيسية للآية الكريمة تماماً.

الله يقول: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ وهم يقولون: أنه لم يعص.. في حين أن الله يشير بعد ذلك إلى توبته واجتبائه ورسالته. الله يقدم في كل آياته خلق السموات على الأرض، وهم يقولون: أن الله خلق الأرض أولا وفتق منها السماء، وهم لا يعلمون أن هذا الفتق مرتبط بالغلاف الغازي الجوي المحيط بالأرض فقط..

الله يقول: ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ والمفسرين يقولون اللام زائدة بمعنى أن الله يقول (أقسم بيوم القيامة) ولا أدري من

الذي أعطى الحق والجرأة لهذا وذاك أن يفتي بزيادة الحروف في القرآن أو نقصانها.

من يقرأ تفاسير المفسرين على اختلاف مذاهبهم يجد الكم الهائل من الأحرف والكلمات الزائدة في القرآن.. هي زائدة في نظرهم لأنهم ما عرفوا حقيقة القرآن وما عرفوا قدسية كل حرف فيه. هي زائدة لأنهم ورثوا التفسير عن غيرهم ولم يعمروا به قلوبهم وانشغلوا عنه في بدائل ثانوية وطائفية وعصبية وجاهلية..

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ كلمة نداء من الله جرت على لسان رسول هذه الأمة منذ أكثر من 14 قرن، أي في زمان حياته.. والهجر لا يعني عدم القراءة بل يعني الانتقال إلى غيره أو عدم معرفة حقيقته، فبدلا من أن نعرف كلام الله من الله عرفناه وفسرناه بمعتقداتنا الضيقة والمحدودة، وآراؤنا التي لا تخلو من الأحكام الشخصية.. نسخنا منه ما لا يتماشى مع أفكارنا، واستعنا بمفردات شعراء عرب الجاهلية والمعلقات السبع لما أشكل علينا فهمه.

ما أحوجنا إلى عودة جذرية إلى منابعنا الروحية من جديد نتعلم فيها حقيقة كلام الله كما أنزل على صدر الحبيب، وكما أرادنا الله أن نفهمه لا كما أُرِيد لنا فهمه.

تذوق حلاوة القرب

نقرأ في مناجاة المحبين: "إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك، فرام منك بدلا؟ ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا.."

من تذوق حلاوة القرب الإلهي.. يشتاق أكثر فأكثر لتمضية وقت أطول معه سواء في الصلاة أو التأمل أو قراءة القرآن، وكلما تذوق لذيذ الوصال وصبوة المحبة كلما طلب أن ينهل المزيد والمزيد.

ولكن وحده العطشان الواله هو من يطلب المزيد، لأنه انغمس في محيط الحب وأنس بمحبوبه. فالله يعطي من سأله ومن لا يسأله تحننا منه ورحمة، ولكنه يغدق بكرمه على من هيأ نفسه ليكون وعاء لفيضه، ويفيض بفضله على من نصب نفسه في مجلس الأنس معه.. يروي من يشعر بالعطش وتذوق حلاوة الإنس لذلك يقول ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ.. ﴾ فحتى نكون محل نظر الله بعطاياه ينبغي أن نتمثل حالة الفقر والمسكنة، وكما يقول أهل الله "إذا أردت ورود الموارد عليك فصحح الفقر والفاقة لديك"..

النفس العطشى تكون محط موارد الله وفيوضاته، والنفس التي ترى كمالها واكتفائها لن ترى بصيصاً من تلك الأنوار..

كثيراً منا يعتقد اعتقاداً جازماً أنه في حالة إيمانية متكاملة.. فالإيمان في نظره أداء الواجبات والفرائض والامتناع عن

المحرمات، ولأنه يقوم بهذه الأعمال على أكمل وجه، وبناء على طاعته هذه سوف يدخله الله الجنة متناسياً أو غافلاً أن جملة هذه العبادات إنما شرعت لشيء آخر أعظم من كونها مجرد طقوسٌ عملية أو آليات تعبدية.

لذا فإن حالة الشعور بكمال أداء التكليف الشرعي لا يُشعر الإنسان بعطش ووله وضرورة التوجه الروحي.. فإذا كان يعتقد أنه قد أدي ما عليه من واجبات فما الداعي لفتح قنوات جديدة مع الله سبحانه وتعالى.. ومن هنا يشكك الكثير بالتجارب والخبرات الروحية التي تجلت في حياة العارفين أو المحبين، فهم يعتبرون هذه الخبرات ضربا من الخيال أو مجرد شعور شخصي لا علاقة له بالدين.. هم يقرأون مثل هذه الأدعية كونها أدعية مستحبة (إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك) ولكنها لا تلامــس قلـوبهم ولا تثير أبعاداً أخـرى في حياتهم.

لقد أكدنا مراراً وتكراراً أن العبادات ما شرعت لذاتها وإنما هي وسائل تنقلنا إلى مراحل روحية أخرى من الارتباط والتعلق والأنس والغبطة الداخلية والوعي والحكمة، وإلا فما فائدة القيام بعبادات مع جهلنا بالمعبود..؟

لذا لا يمكن أن نشعر بالعطش الحقيقي لضرورة القرب والأنس إلا حين نقف وقفة تأمل جادة مع أنفسنا ونغير جذر اعتقاداتنا القديمة التي تجعل أداء التكاليف الشرعية هي كمال العبادة.. فالله يريدنا لشيء آخر أكثر أهمية من هذا، هو يريدنا أن نحظى بحالة القرب.. نتذوق حلاوة الأنس.. نكون في حالة من الشوق والوله، وهذا ما تشير له جملة من الأدعية المخصوصة بشهر رمضان وغيره.

في أعماقنا بذرة مقدسة، بذرها الله فينا حين النفخة الأولى، لا يمكن التواصل مع الله إلا من خلالها، لأن لا شيء يملكه

الإنسان له قابلية التواصل مع العالم الروحي الأعلى سوى هذه البذرة.. لذلك بقدر ما ينكشف لنا بصيصاً من معالمها وآثارها بقدر ما نقترب من الله أكثر، وبقدر ما نوليها اهتمامنا ورعايتنا بقدر ما تعكس قوة الله العظيمة داخلنا والتي تنير لنا طريق الإيمان والحقيقة وتوقد أذهاننا بالفهم الصحيح وتملئ قلوبنا بالمحبة وعقولنا بالحكمة والوعي.

الله سبحانه وتعالي يريد لهذه النفحة الروحية أن تتجلى في أعماقنا لتسطع في حياتنا، أقوالنا وأفعالنا، حتى على أجسادنا وأجسامنا، ما فائدة جوهرة ثمينة نخبئها ونطمرها تحت التراب؟

لا يمكن التغلب على آفات النفس (الأنا) وتعلقاتها المادية ورغباتها التملكية إلا من خلال تجلي قوة الروح في أعماقنا.. فالنفس أشبه بغابة كبيرة مليئة بالحشائش والأشواك المتشابكة.. والتي يلزم من يريد عبورها أن يدفع هذه الحشائش عنه بقوة حتى لا تزعجه.. الحشائش والأشواك هنا هي الأفكار الكثيرة المزعجة والمضطربة التي تزعجنا مراراً وتكراراً.. والتي من الصعب التخلص منها إلا من خلال الوعي الروحي والبصيرة المتوقدة.. فكثيراً ما نقع في شباك هذه الأفكار ظنا منا أنها أفكارٌ من عالم الروح..

هناك من يثق بقدراته الخاصة فيظن أن بإمكانه أن يجتاز هذه الغابة بقدرته الذاتية.. ولكن كثيراً ما يقع في شباكها، وقد شرحنا هذا مفصلاً في اليقظة الروحية في الجزء الأول.

حين تبدأ السباحة في محيط القرب تشعر بهدوء يسري بكل جوارحك، تشعر بسكون في القلب، وبفرح داخلي غير مرتبط بأي شيء.. فرح شبيه بفرح الطفولة الذي انتزعته منك الأيام.. تشعر كأنك طفل بريء محاط بحنان يملأ كل كيانك، وثقة تملأ كل قلبك، فلا خوف ولا هم ولا اضطراب ولا تشويش بل

هو سلام وفرح عارم يغمرك.. طفل بريء يضحك من كل قلبه وقد تحرر من كل هم أو ضيق، واثق مطمئن لأنه في رعاية من لا ينام وفي كنف القوة المطلقة في الكون.

هناك من اختبر هذه اللذة ولو لبرهة من الزمن أثناء صلاته، أو تأمله أو أدائه لعمل معين وحين تلاشت من حياته لانشغاله بأمور حياته بدأ في التذمر من جديد.. ولكن ما دمنا في الحياة فلا زال الباب مفتوحاً لندخل إلى أعماق جديدة في علاقتنا مع الله ونكتشف المزيد والمزيد من حلاوة القرب غير المحدودة وأسرارها التي لا تحصى..

حلاوة لا يبتغي الإنسان عنها بدلاً.. فمن يعاني من الحمى الشديدة لا يشعر بطعم الغذاء والشراب الذي يتناوله مهما كان شهياً.. بل قد يرفضه جملة وتفصيلا حتى لو قدم له أحلى الأطعمة وألذ الأشربة بسبب اشتعال نار الحمى فيه.. وكذلك من تشتعل في قلبه نار الحب والشوق والقرب من الله.. يرفض كل ما عداه ولا يستسيغ طعم لذة أخرى تعادل لذة القرب. فنار المحبة الإلهية تحرق كل لذة أخرى، فيرى كل شيء دنيئاً ووضيعاً في جنب ما يشعر به، ولا شيء بمقدوره أن يفصله عن روعة هذا الشعور سواء أكان شدةً أم ضيقاً أم اضطهاداً، أم جوعاً، أم خطراً، أو مكانةً أو سلطةً أو غيرها من أمور، لا شيء يفصله عن لذيذ قربه.

هناك من يجعل لله شريكاً في حبه، فهو يحب الله ولكن في نفس الوقت، يركن إلى هواه.. يحب نفسه، سلطته، أناه، انجازاته، مكانته، أفكاره، ملذاته.. فهو يريد ويرغب أن يتمتع بشعور القرب وحلاوة الأنس وفي نفس الوقت يريد أن يكون شيئاً مذكورا يحظى ببعض الكرامات، أو يصل إلى بعض المراتب الدنيوية، أو يرسم حياته بالشكل الذي يريد.

هذا الانقسام الداخلي بين إرادته الروحية وبين رغبته الأرضية يولد توتراً باطنيا ينبغي حسمه، ليكن الله هو الأصل وما دونه هو الفرع.

الله سبحانه لا يمنع عنا الرغبات ولا التطلعات ولا حتى الشهوات، ولكن ينبغي أن تأتي كل هذه الأمور من باب الله، وليس من أبوابنا الشخصية، فالله أعلم بالإنسان من نفسه وأعلم بحاجاته ومتطلباته ولكن ليكن هو الرقم 1 الذي يأخذ كل تفكيرنا..

أحاديث وأدعية وأذكار كثيرة تربطنا بالله سبحانه وتعالى في كل حركة نقوم بها.. منذ أن نفتح أعيننا من النوم، وحين نقوم، وحين ندخل الخلاء، وحين ننظر في المرآة، وحين نغسل وجوهنا، وحين نتوضأ، وحين نلبس النعل، وحين نلبس ملابسنا، وحين نمشي، وحين نخرج من البيت، وحين نأكل، وحين نشرب، وحين نعطس، وحين ننام، وحين نغتم، وحين نفرح، وحين نلقى أحد من الأصدقاء، وحين نرى شيئاً مبهراً، وحين نرى شيئاً عظيما، وحين نغتسل، وحين.. وحين..

لماذا كل هذه الأحاديث والأدعية؟ إنها وسيلة عملية كي تربطنا عملياً بالله عز وجل.. حتى يكون فكرنا وتوجهنا متوجهاً نحوه ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا الربط يكون مدخلاً قوياً لحالة القرب الحقيقي، والذي من خلاله يتلاشى أو يقل تأثير الشركاء الآخرين الذي يحومون حول قلوبنا.

من الأفكار التي تشكل حائلاً في القرب الإلهي والتمتع بلذيذ مناجاته.. اعتقادنا بأننا لسنا مؤهلين لهذه الدرجة أو المكانة، فهناك من يقرأ هذه الكلمات فيجد صعوبة في تصديقها ووعيها، فكيف بمن عصاه أو قصّر في أعماله أن ينال حظ القرب والحب مع مولاه؟

ينبغي أن ننظر بعين القلب إلى المنعم والمعطي والملك والمالك الواهب وليس إلى تقصيرنا، فمهما اجتهدنا طيلة حياتنا على أن نعبد الله حق عبادته لا نستطيع الوفاء بحقه. فحتى قدرتنا على عبادته هي عطاء منه واصطفاء لنا، فالذكر من المذكور ثم من الذاكر.. لذا ينبغي أن نرجوه هو.. نرجو كرمه وحنانه واصطفاءه ورحمته بنا.

لو مر ملكٌ عظيمٌ في قرية فقيرة ووقعت عيناه على شاب فقير فأحبه واختاره ليكون ضمن رعايا قصـره، ماذا ستكون حياة هذا الشاب الفقير، بالطبع سوف تتغير رأساً على عقب، سينعم بما لم يحلم به طوال حياته، لم يفعل الشاب ما يجعل الملك يصطفيه فالاصطفاء كان من الملك ذاته..

الله سبحانه يلامس قلوبنا في كل لحظة، يرقبنا في كل همسة، يحبنا سواء عملنا أم لم نعمل، لأنه ما أوجدنا وخلقنا إلا لأنه يحبنا، ولكن تبقى هناك ثقتنا في عملية الاختيار والاصطفاء.. الله لا يصطفي أحداً لقربه دون إرادته.. الملائكة لا تساعد أحداً ولا تتدخل في شئونه ما لم يطلب هو منها ذلك..

كثيراً منا يعتقد أنه يريد القرب ويرغب به، ولكن قواه الداخلية تعاكس هذه الفكرة، شركاء قلبه الذين نصبهم فيه أنداداً لله في تضاد مع فكرة القرب.. الطريق مع الله سالك فأبوابه مفتحة للراغبين "بابك مفتوح للراغبين، وجودك مباح للسائلين، وإغاثتك قريبة من المستغيثين".. ولكننا نعاني من تناقض وخلل وكدر وغفلة وجهل في الباطن، فلا يحجبنا عن القرب سوى تقلب قلوبنا وبعدها عن السلام الداخلي ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

نحتاج فقط لنتنعم بلذيذ قربه ومناجاته إلى قلب سليم طاهر من الأدناس والأحقاد والغفلة، وأن يكون همنا هماً واحداً نغض الطرف عما سواه، نتبعه بكل قلوبنا ونفرد له كل مساحة في عقولنا وأفكارنا، فأنوار القلب تتجلى حين يكون بكليته

بحالة من الصفاء والنقاء، هكذا فقط يعمل القلب.. إن قاربه شيءٌ أو داخله شيءٌ لا تتحقق معادلة التجلي.

يقولون في السابق أن الله غيور لا يريد شيئاً أو أحداً غيره في القلب سواه.. في الواقع الأمر غير ذلك، فالغيرة صفة نفسية بشـرية لا يمكن إطلاقها على الله تنزيهاً وإجلالاً له، ولكن كل ما في الأمر أن تجلي الأشياء في القلب لا يتحقق إلا حين تهيمن وتسيطر بكليتها عليه، وهذا من الأمور المهمة التي يبتلي بها المؤمنون دون أن يعلموا، فهم يعتقدون أن قلوبهم متجه نحو الله، سليمة من الأكدار خالية من الأمراض، فيطلبون القرب.. وهم ليسوا كذلك..!

ينبغي أن نقف وقفة جادة مع أنفسنا ونتساءل:

طوال سنين حياتنا التي عشناها في مملكة الله، هل شعرنا بحالة القرب مع مالك المملكة؟ هل تذوقنا حلاوة الأنس معه؟

إن كانت الإجابة نعم.. فاعلم أن العطش الروحي لا يرويه كثرة العطاء بل يُشعل رغبته بالمزيد، لأنه بقدر ما يزداد ثراء ووفرة روحية بقدر ما يزداد فقراً وعطشاً في باطنه.

وإن كانت الإجابة لا.. لنبدأ في تغيير أفكارنا حول ما ينبغي أن نقوم أو نشعر به، لندع قلوبنا تخترق حجب النور ليصل إلى معدن العظمة حتى تصير أرواحنا معلقة بعز قدسه.. لا تقل إننا غير مؤهلين لذلك.. فقط اعلم أن مالك الملك بانتظارك..

الصلاة والتأمل

هل يجزي التأمل عن الصلاة؟

كنت أبحث عن مكان لأصلي فيه الظهر أثناء فترة الاستراحة بين فقرات منتدى كان مخصصاً للتأمل.. وبينما كنت أسأل هنا وهناك قال لي أحدهم: وهل مازلت تصلي؟ فقلت له: ولِمَ تقل ذلك. قال: لأن التأمل يكفي عن الصلاة، فهو الصلاة الحقيقية.

تلمست خلال حواراتي مع أغلب الذين يمارسون التأمل ضحالة الخلفية الدينية وأبعادها الروحية. فالعديد منهم اكتفى بما تعلمه في المدارس وما سمعه في الخطب الدينية، بحيث أن تصوراته عن الدين وطقوس العبادة وأهدافها وغاياتها تنحصر في معارف ومعلومات محدودة وزهيدة جداً. ولذلك حين يمارسون التأمل يشعرون بحالة من الأنس والسكون لم يعهدوها، فيعتقدون أنهم يجدون في التأمل ما لا يجدونه في الصلاة..

وبالتالي يعتبرونه جازياً عنها.

حين تتحول الصلاة إلى عادة مجردة عن معانيها الباطنية المقدسة.. إلى مجرد حركات أوتوماتيكية لإسقاط التكليف الشرعي فقط، هنا يبدأ الفكر في طرح مثل هذا السؤال. بينما من استغرق في محيط معانيها وأدرك كنه وصالها الحقيقي يجد أنها بحد ذاتها من أرقى أنواع التأمل الصاعد. حين يشعر البعض بحالة من الاندماج والتواصل الروحي أثناء التأمل لا يلمسها أو يشعر بها أثناء الصلاة، فذلك لأن الحركات التي يؤديها تشتت فكره وتربك تناغمه وتؤثر في ثبات حالة التوازن،

بينما في التأمل تكون أعضاؤه بحالة من السكون والصمت الذي ينعكس فيما بعد على فكره وقلبه.

ولكن لو سألنا معلما روحانيا قديراً.. أيهما أشد وقعاً وأكثر صعوبة، التأمل مع الحركة أم التأمل مع السكون. سيجيبك بأن التأمل أثناء الحركة تأمل متقدم ويعلو في مرتبته وتمكينه عن التأمل الساكن.. فليس كل إنسان يستطيع أن يمارس التأمل أثناء الحركة، ذلك أن المتأمل ينبغي أن ينقل تأمله من غرفته ومن كرسيه ومن خلوته إلى حياته العملية العامة، وهي خطوة متقدمة عن التأمل المنحصر في مكان محدود، حتى إذا خرج منه خرج من التأمل.

نحن ربطنا التأمل بمجوعة من الشروط والمتطلبات وهذا مطلب ضروري ومهم في بداية التأمل حتى يتم التركيز للوصول إلى فوائده المرجوة، ولكن لا يعني أنه لا يحدث إلا من خلال هذه المتطلبات..

فالرسام في بداية عمله يهيئ ورشة عمل كاملة تحتوي على الألوان والأقلام والفرش المختلفة والأصباغ المتنوعة والألواح والأدوات الأخرى.. ولكنه بعد أن يتقن عمله بمقدوره أن يمسك أي نوع من الأقلام، أو حتى أية قطعة فحم ساقطة على الأرض ليخط بأنامله أروع الرسومات وأجملها.

لذلك جاء في الحديث: "كن في الناس ولا تكن معهم" لا يتعلق المعنى هنا الكف عن ثرثرتهم والخوض في أحاديثهم غير المهمة، ولكن أن تكون في تأمل حتى وأنت بينهم. فأنت معهم ولكنك في تواصل مع عالم آخر.

ولا أعتقد أن أحداً منا لم يختبر هذا الشيء. فحين تشغل بالك فكرة ما بعمق، سواء كنت تبحث عن حل لها، أو تمس مشاعرك فإنها تستحوذ عليك حتى وإن كنت محاطا بجمع

غفير من الناس.. تشعر أنك في حالة اندماج مع الفكرة على كثرة المحيطين حولك.

فسواء كنت ماشياً، أو منتظراً دورك عند الطبيب، تمارس رياضتك المعتادة، تأكل، تُعد كوباً من القهوة أو الشاي، تقطع الخضار لعمل السلطة.. كن في تأمل.. وهذا التأمل لا يقل شأنه عن التأمل الساكن، بل هو خطوة متقدمة منه.

هذا أولاً..

أما ثانيا:

فمن المهم أن نشير إلى قاعدة روحية مهمة وهي أننا لا يمكن أن نصل إلى الباطن إلا من خلال الظاهر.. ولا يمكن معرفة المرموز إلا من خلال الرمز، ولا المشار إليه إلا بتوسط المشير.

فجملة العبادات التي نؤديها رموز وإشارات تكتنفها معان ودلالات عميقة المعنى.. فالصلاة في وعي العارف لا تعني تلك الحركات الظاهرية التي تبدأ بالنية وتكبيرة الإحرام، وقيام وركوع وسجود وتنتهي بالتشهد.. فما علاقة هذه الحركات بكونها "معراج المؤمن" كما جاء في الحديث.. وكيف تتحول هذه الحركات إلى "عمود الدين إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها". فالمراد إذن ليس فقط ظاهر الصلاة وإنما حقيقتها الروحية وأبعادها النفسية. ومن هنا ندرك الفرق والاختلاف بين "أداء الصلاة" و"إقامة الصلاة" وفق الرؤية القرآنية.

فالفقيه ورجل الدين يعنيه بالدرجة الأولى أداء العبادات والطقوس على أكمل وجه، فيركز اهتمامه على شكل العبادة وصورتها وشروطها اللازمة وأركانها والعناصر التي تتشكل منها ومقدماتها التي تقوم عليها كشعيرة أو كطقس ينبغي للإنسان القيام به.. ولكن هذا ليس كل شيء.

فالمؤمن يتجاوز الشكل الظاهري بحيث يتعامل مع الطقوس كرموز تشير إلى أبعاد أكثر عمقاً في الباطن. فهو يتعامل على مستوى الإشارة لا على مستوى العبارة. ويؤدي العبادات كوسيلة أو أداة تكشف حقيقة ما ترمز إليه من أسرار باطنية محتجبة ومعانٍ مستترة ودلالات خفية.

وبالتالي فإن الصلاة ليست تكليفاً شرعياً قسرياً نمتثل بأدائها طاعة لله سبحانه وتعالى، لكنها تحمل في طياتها معان الكمال والترقي والتقديس والتنزيه والاستغراق في تجلي الهبات والرحمات الإلهية. المؤمن العارف يجمع بين الظاهر والباطن.. يمارس الظاهر ويتحقق بالباطن.. يتحول من الشكل إلى المضمون، من الفعل الجسدي إلى ما يكتنفه من أبعاد نفسية وروحية توازيه وتماثله..

صحيح أننا حين نشـرع في التأمل تسكن جميع جوارحنا لنفتح أبواب القلب والذهن لتلقي ومضات الفيض من الله سبحانه وتعالى، بينما في الصلاة تتحرك جوارحنا لأداء أركانها، إلا أن هذه الحركات ينبغي أن تكون هادئة متناغمة ومليئة بالشعور والإحساس. لا ينبغي أن تكون حركاتنا في الصلاة كحركاتنا خارجها، فحين نكبر تكبيرة الإحرام ينبغي أن لا نرفع أيدينا كما نرفعها خارج الصلاة، حين نركع ونسجد ونقرأ ينبغي أن تكون هذه الحركات هادئة وانسيابية وكأننا منفصلين عن الوعي الأرضي. نؤدي هذه الحركات وكأن أرواحنا تنظر إلينا عن قرب.. نؤديها ونحن في حالة مراقبة روحية..

إذا هيمنت الحالة الشعورية على أعضائك وأحسست بحركتها الهادئة، وبدأت تتلمس آثار الكلمات المنطوقة واهتزازاتها بكامل جسدك، فعندها تكون قد جمعت بين آثار الصلاة المعنوية والروحية، والتأمل الوجداني القلبي، وتأمل الأعضاء.

ألا تعتقد أن الجسد هو أيضاً بحاجة إلى أن يتشـرب بمعين كلمات الوحي المقدس؟

الجسد بحاجة هو الآخر - كما الفكر والقلب والنفس - إلى عملية تطهير وتنقية من الكدر.. حين يكون الجسد خاضعاً أثناء الصلاة لإرشاد العقل (بالحركات) ولتوجيه القلب (بالشعور) ولفيض الروح (بالخشوع) فإن عملية التطهير هذه ستؤثر في كل المستويات الأخرى.

لذلك بدل أن نسأل هل يجزي التأمل عن الصلاة ينبغي أن نحول كل أركان وحركات صلاتنا - من النية إلى التشهد - إلى تأمل حقيقي حتى يتحقق المقصد الحقيقي لحديث "الصلاة معراج المؤمن".

الحج.. محاكاة للحياة

الأرواح التي يأُذن لها بالتجسد على الأرض وتنتقل من عالمها لتستقر في أقرب عالم روحي قبل ولوجها في جسد الجنين.. تسمى بالأرواح المهاجرة أو المرتحلة إلى الحج الأكبر.. إلى رحلة الحياة الشاقة والممتعة والمهمة في نفس الوقت.. ولأهمية هذه المرحلة تقف الأرواح الأخرى إجلالاً لها ملوحة لها بالوداع داعية لها بالتوفيق في رحلتها الأرضية..

لذلك فإن كلمة الحج - التي جاء ذكرها في كل الديانات السماوية - تأتي بمعنى المقصد المقدس والرحلة الهادفة التي يتوجب علينا خوضها واختبارها أو على أقل تقدير الاقتراب منها.. بحيث يكون هذا المقصد الهدف النهائي التي تتوق إليه أرواحنا، والذي يفتح لنا البرهان الحقيقي الذي يكشف غور ذواتنا الدفينة وتطلعاتنا الروحية السامية ويتجلى من خلالها ما استودع في قلوبنا من نفحات إلهية.

وبالتالي فإن أي مكان نزوره أو نقصده لا يهبنا هذه العطايا لا نطلق عليه مسمى الحج. فكما أن الحياة تمثل صورة الحج الأكبر بمعالمها الكبيرة التي نتطور ونسمو بأرواحنا من خلالها كذلك حج بيت الله الحرام برموزه الكثيرة التي تعكس وتتجلي في محاكاة رمزية عن الحياة الطويلة التي نعيشها نعرف من خلالها الهدف الحقيقي من الحج الأكبر. فكما أن الخارطة الصغيرة التي لا تتجاوز مساحتها بضع سنتيمترات تعكس في الحقيقة مناطق شاسعة تمتد لآلاف الكيلو مترات، كذلك الحج

بصورته وطقوسه ومواقيته وشعائره عبـــارة عن محاكاة لحياة الإنســـان على الأرض ومنهاج عروجه للسـماء.

لذلك كان شهر ذي الحجة هو آخر شهر من شهور السنة لأنه يحوي على المقصد المقدس النهائي.. الحج إلى بيت الله. وإذا كان المقصود هو الله في نهاية المطاف فإن الوصول إليه والخطوة الأولى تجاهه تكمن في الشهر الأول من السنة وهو المحرم.. أن تكون محرماً كما سنذكر..

ولهذا كان المسلمون الأوائل يدعون الله قبل ستة أشهر أن يرزقهم الله حج بيته الحرام، وحين ينتهي موسم الحج يدعون الله ستة أشهر ليتقبل أعمالهم ومناسكهم.. يتضح من ذلك أن الحج شعيرة جوهرية ذات مغزى روحي كبير تتعلق بمعادلة الحياة وعروج الإنسان إلى عالم النور.

الإنسانية تعيش حياتها كسلوك الحاج.. فكما أن الله يصطفي حجاج بيته الحرام كل عام، فهو بذاته المقدسة اصطفى الإنسانية للعيش في الحج الأكبر.. العيش في الحياة.. لذلك فإن رسالة الحاج في معرفة رموز الحج هي رسالة البشـرية كذلك على مر السنين.. فكل حاج لابد أن يعلم أن الله قد أعطاه مفتاحاً يؤهله ليفتح من خلاله الرسالة الموجهة إليه، رسالة ينبغي أن يعرف محتواها، ولكن مع الأسف الشديد ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج، كم من حاج يغفل عن قراءة وتأمل رسالته سواء في الحج أو الحياة، وكم من حاج يجهل وجود هذه الرسالة أصلاً.

كل مناسك الحج طقوس رمزية لفك شفرة هذه الرسالة الموجهة من الله.. ويعد الإحرام مقدمة هذه المناسك، وهو أول الشعائر، فبدون الإحرام لا يمكن البدء بسلوك الحاج وإكمال الطقوس الأخرى. الإحرام يعني أن تتسربل بالبياض لينعكس على قلبك فيكون طاهراً نقياً كبياض اللجين، فلا فهم ولا

استيعاب لأي تعليم إلهي ما لم يكن قلبك طاهر السريرة، فالقلب الطاهر المحب والنقي هو بداية كل مسار سماوي في كل الديانات، بدون الإحرام تفشل كل محاولات القرب من دائرة المركز من المصدر.. من الله.

الإحرام.. قطعتي قماش أبيض لا أكمام لهما فتتطاول على غيرك أو تنتهك حقوقهم، ولا جيوب لهما لتدخر وتجمع بهما حطام الدنيا الزائل، بياض يتساوى فيه كل البشر ليعكس أرواحهم لا أشكالهم، فتتعامل مع النفحة المقدسة بغض النظر عن هوياتهم وأجناسهم وأحزابهم وطوائفهم وانتماءاتهم..

الإحرام أن تدخل حضرة القدس.. ولكي تدخل هذه الحضرة ينبغي عليك أن تكون محرما بحيث ينعكس بياض ثوبك على قلبك، أن تظهر ملكات قلبك وروحك للخارج بلا كدر وبلا شوائب وبلا أغلال أو تعلقات سوداء..

وبعد الإحرام تكون التلبية.. فتقول: لبيك اللهم لبيك.. لا يمكنك التلبية وأنت غير محرم.. لا يُسمع صوتك وأنت غير محرم.. أبواب السماء مفتحة لمن يحرم على الدوام.. كثيراً من الناس يقولون لماذا لا يستجيب الله دعواتنا؟.. لأنهم ببساطة غير محرمين، قلوبهم يشوبها الشك أو عليها غبرة الذنوب، مكبلة بأغلال النفس والأنا والفوقية والأنانية، مريضة بهواجس الأحقاد، ملوثة بالمعتقدات الباطلة..

حين تقول لبيك بقلب محرم (أبيض) صادق ستشعر بنفحة الرحمة تغمرك، وبنور يشملك، وبلطف الغيب يملأ قلبك، عندها تكون مؤهلاً للصعود إلى عرفة لتنهل من فيض القوة والمحبة وتتزود من معين النور والبهجة.

روح كل المعارف وتلقي فيوض المعرفة الربانية يتطلب شيئين أساسيين: الإحرام والتلبية.. أي أن تنقي قلبك من الشوائب

والكدورات وتملؤه بالحب والرحمة، وأن تسلم روحك وكل ما تملك لله حين تلبي نداءه.

في عرفه - إن كنت قد أحرمت ولبيت بصدق - سيكشف الله لك مكنون الرسالة ويطلعك على جوهر الغاية.. حينها ستدرك حقيقتك، وستجد إجابة على أهم تساؤلاتك، وسيأخذ الله بيدك ويتولى أمرك.. كل ما عليك أن تقف بعرفة، وتعي روح عرفة.

يلهمك الله كل الخير في عرفة.. هذا الخير بحاجة إلى وقفة تأمل وترقب وشعور، فتتحرك قاصدا المشعر الحرام لتعي رسالتك وتستوعب حقيقة مشاعرك، فتبيت ليلتك في العراء في عتمة الليل متفكراً متأملاً، كي يتناغم ما ألهمك الله به مع شعورك الباطني، لتكون قادراً قوياً على التخلص من شوائب النفس وموبقات الأنا..

فتسير مع إشراقة شمس يوم العاشر لتتخلص مما علق بك وترجم الشيطان القابع بين حناياك، وتنحر الهدي فداء كي لا ترتبط بشيء في الدنيا سوى الله، وتُقصّر لتعلم بحال زوال الأشياء وانتهائها.. تتجه بعدها إلى بيت الله، تستقبله بنظرك أولا، ثم بقلبك وروحك ثانياً.. إن كان قلبك لازال غير محرماً فلن ترى إلا مكعب متسربل بالسواد، إما إن كنت محرماً فسترى ياقوتة بيضاء، تشع نوراً إلى عنان السماء لتلتقي ببيته المعمور. تطوف سبعاً بعكس آلة الزمن، لتوقف الزمن في نفسك.. فلا يمكنك الشعور بعالم الملكوت ما لم تكن قادراً على إيقاف الزمن لتعيش بهجة الصمت والسكون والمحبة. فحين يتوقف الزمن، كالبندول الذي يتوقف عن الحركة - كما بينا سابقا - تتساوى الأضداد يكون حينها العيد الحقيقي. عيد الأضحى المبارك.

يا لها من رحلة حج مباركة نعيشها في الحياة بصورتها الشاملة، وفي بيت الله الحرام بصورتها الرمزية، ويا لها من

رسالة ورموز يعجز الكثير عن وعيها وإدراكها.. فيرجع الكثير منا كما ذهب، لم يتغير منه شيءٌ ولم يقرأ رسالته، وبقي على حاله لم يولد من جديد. كما ينتقل الكثير منا من هذه الحياة دون أن يعرفوا رسالتهم التي خلقوا من أجلها.

تألق الصوم في زهرة اللوتس

حين تنبت على سطح الوحل أو المستنقع زهرة.. فهذا يدعو إلى الدهشة والاستغراب، ولكن حين تأسرك هذه الزهرة بجمالها ورونقها وألوانها فهذا مدعاة للتأمل والعبرة والموعظة.. فالله عز وجل لم يُخرج من المستنقع الآسن المتعفن زهرة عادية، وإن كان في هذا آية إعجاز وإبداع، بل أخرج لنا زهرة اللوتس بعبيرها وشذاها الفواح وبفوائدها الطبية وجمالها الأخاذ..

وحين خلق بنية الإنسان وشكل قوامه من عناصر مادية مختلفة، لم يخلقه بشراً منتصباً على قوائم مكتمل الأعضاء فحسب، بل أودع فيه الروح وزينه بالقيم ليبدو جميلاً متألقاً كزهرة اللوتس..

وحين أرسل الأنبياء والرسل لم يكن إرسالهم لأجل تصحيح المعتقدات الخاطئة وإزالة رواسب الجهل الأعمى فحسب.. بل لأجل تعريف الإنسان بأصالته وحقيقته واكتشاف اللآلئ المكنونة بين أصدافه..

وحين كشف له عن حقيقة الخلق والوجود لم يكن هذا الكشف للمعرفة والعلم فحسب، بل لأجل صياغة حياته صياغة جديدة تقوم على أسس ربانية في فكره وروحه وقيمه..

إن تألق زهرة اللوتس إنما جاء لانفصالها عن الوسط الذي تعيش فيه.. فطين الوحل ورائحة المستنقع لم تؤثر في حقيقتها

وصفائها ونقائها على الرغم من وجودها بأوساطه.. حتى الماء الذي ترتوي منه تحصل عليه من الندى المتجمع على أوراقها..

هي تعيش في المستنقع ولكن تغمرها نشوة لا حدود لها.. هذه النشوة تشابه نشوة المتدين المؤمن الحق الذي يتحول إلى زهرة متألقة بالنور بعد أن يتجاوز وينفصل عن كل المتعلقات المادية والفكرية والاجتماعية المنغمس فيها ويحلق في عالم النور كما تجاوزت زهرة اللوتس المستنقع الآسن.

وشهر رمضان فرصة سانحة لفصل أنفسنا عن التعلقات وبناء إنسان جديد.. فالصوم الروحاني الحقيقي لا يعني الامتناع عن الطعام والشراب فقط، بل يعني عدم التعلق بالأشياء والماديات والأشخاص..

الصوم يعني أن تمتنع وأن تمسك عن كل ما يبعدك عن الله، "فإذا صمت فليصم سمعك وبصرك، وجارحتك وجميع أعضائك من القبيح، ودع عنك الهذي، وألزم ما استطعت الصمت والسكوت إلا عن ذكر الله" كما جاء في الحديث.

لذا كان ميراث الصوم عند الله عظيما حين سأل الرسول ﷺ ربه قال: "يا رب وما ميراث الصوم؟ قال: الصوم يورث الحكمة، والحكمة تورث المعرفة، والمعرفة تورث اليقين، فإذا استيقن العبد لا يبالي كيف أصبح بعسر أم بيسر". وهذا الميراث لا يكون بالامتناع عن الأكل والشرب كما يتوهم البعض، وإنما يأتي نتيجة التأمل والتفكر وعدم التعلق بأمور الدنيا والعيش في عالم النور. لقد قدم الرسول ﷺ الطعام لامرأة صائمة فقال لها: "كلي.." قالت: أنا صائمة يا رسول الله. فقال: "كيف تكونين صائمة وقد سببت جاريتك؟".

شهر رمضان ليس شهر حمية ورجيم.. بل هو شهر الله، بمعنى أن نستشعر بالله في كل حركاتنا وأفعالنا وسكناتنا وأن

نترك ما سواه.. الصوم في أحد معانيه يعني السكون والهدوء، أي أن نعطي كل حواسنا فترة للراحة والتأمل والصمت والسكون حتى نعي وندرك حقيقة الروح التي أودعها الله فينا..

الصوم لا يعني الامتناع عن الطعام والشراب.. بل هو الامتناع عن كل ما يعكر صفو هذا السكون حتى تتهيأ أرواحنا لتسكن إليه ونقترب منه أكثر ونفتح أغلال قلوبنا المقفلة بمفاتيح التعلقات، وإلا "فكم من صائم ليس له من صيامه إلا الظمأ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا العناء".

في شهر رمضان يقول لك الله أمسك وامتنع عن كل شيء سواي.. افصل سمعك وبصرك وشخصك وتفكيرك وروحك عن كل شيء سواي.. لا يهم.. من تكون.. أو بأي محيط أو شكل تكون.. فحتى لو كنت في مستنقع متعفن فسوف أجعل منك زهرة متألقة تأسر العالم بشذاها وجمالها كزهرة اللوتس.

سر الشهر الكريم

أشار إليّ بأن أصمت بينما كنت أحادثه وأنا على عتبة باب داره.. نظر في السماء، ثم التفت إليّ قائلا: لقد حان الوقت، ينبغي أن يتوقف حديثنا الآن، أستأذنك لكي أذهب للصلاة.. لأني أرى السماء بدأت تهطل برذاذ أشبه بحبيبات من نور.

حدث هذا في ليلة من ليالي العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك.. هذه الحادثة تفتح باباً في غاية الأهمية حول هذا الشهر الفضيل، يختصره سؤال يقول: إن شهر رمضان شهر الله، ونحن مدعوون فيه لضيافته، فماذا هيأ الله لنا في هذه الضيافة.. ما هي العطايا التي يغدق فيها على أهل ضيافته، فليس من المعقول أن يكون الامتناع عن المفطرات من إحدى هذه العطايا.. لابد أن تكون هناك أشياء أخرى، فالإنسان حين يستضيف أحداً يقدم له أفضل ما عنده، فكيف إن كان المُضيف هو الله سبحانه وتعالى..؟

مبدئياً ينبغي أن نعلم.. بل نثق ثقة كاملة، أن عطاء الله وهباته ورحمته جارية ومستمرة في الوجود طوال الزمن وعلى مر الدهور، فهو مدد لا يتوقف وفيض لا ينفذ، وعطاء لا يتوقف.. وما نحصل عليه في شهر رمضان، أو في ليلة القدر بمقدورنا الحصول عليه في أي وقت من السنة.. شريطة أن نحقق في أنفسنا مستلزمات هذه الليلة.

ولكن لماذا شهر رمضان؟ لماذا ركزت جملة من الأحاديث الشريفة على استغلال هذا الشهر في العبادات الروحية؟ لماذا

نزل القرآن كاملا إلى السماء الدنيا في شهر رمضان وفي ليلة القدر بالتحديد؟

كلنا يعلم أن شهر رمضان يتميز بروحانية عالية.. ولكن من أين تأتي هذه الروحانية؟

لماذا يقول النبي ﷺ: "هو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله، وجعلتم فيه من أهل كرامة الله"؟.. لنتأمل حقيقة الكرم والرحمة الإلهية في هذا الشهر الفضيل.

لا يستطيع الإنسان بجسمه المادي أن يخترق الحجب حتى يصل إلى معدن العظمة فيكون ضيفاً في الفردوس الأعلى، فالضيافة عادة تكون في أجواء المضيف، ولكن لأننا نعيش في بعد مادي أرضي فقد تطلبت ضيافة الله أن يُنزل عوالم النور لتكون في معية الإنسان أثناء الضيافة.. فتحولت الضيافة السماوية إلى ضيافة أرضية إن صح التعبير.. ولكن كيف يحدث ذلك؟

عالم الأمر.. وهو العالم الذي يمثل الإدارة العليا للعالم المادي يفصل بين العوالم السفلية الثلاثة وبين العوالم الروحية المقدسة العليا حتى الفردوس الأعلى.. وبالتالي فهو يمثل البرزخ بين العوالم الروحية..

ويعلو عالم الأمر مستوى الملائكة المدبرة النورانية الذي تتجلى فيه حالة الصفاء والوعي الروحي بأرقى صوره ومعانيه.

في شهر رمضان.. يأمر الله سبحانه وتعالى بأن ينساب المستوى النوراني الملائكي عبر عالم الأمر ثم يتجلى في عالم الطبيعة والمستوى الأرضي.. أي يتداخل مع المستويات الأقل منه حتى يصل إلى العالم المادي الطبيعي.

وحتى نتخيل ما يحدث بصورة ذهنية، فلنتخيل سحابة عظيمة من نور تنزل من مستوى روحي نوراني إلى المستويات الدنيا حتى تصل إلى الأرض وتتداخل معه، ليس فقط كرتنا

الأرضية وإنما كل ما هو مادي في الكون. ويصل قمة التواصل في الأيام الأخيرة من الشهر ويتجلى بكليته في ليلة القدر.

ومن هنا يتدثر هذا الشهر بدثار روحي نتيجة لتأثره بالمستويات الروحية العليا.. وبالتالي فإن كل مزايا وأسرار وعطايا وهبات الله في هذا الشهر نتيجة لهذه الروحانية القادمة من المستويات العليا. فعالم الأمر (بأمر ربهم) يسمح للمستوى النوراني الملائكي بالمرور من خلاله حتى يتجلى ويتداخل مع كل المستويات الأدنى منه.. لذلك فحتى الأموات في عالم البرزخ، والكيانات في المستويات الأدنى وغيرها تتأثر بهذه الهالة النورانية.

هذه الروحانية التي تتجلي من مستوى رفيع من عالم الروح لا تطبع وتوثق أعمال الإنسان فحسب بل أيضا تكون مرآة عاكسة لقلبه وفكره ونواياه. وتحول حتى أعماله الروتينية إلى أعمال يثاب عليها. فالنوم فيه عبادة، والأنفاس فيه تسبيح، والعمل فيه مقبول "أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه عبادة، وعملكم فيه مقبول، ودعاؤكم فيه مستجاب" فالهالة الروحية التي تتداخل في العالم المادي تجعل أعمالنا مضاعفة ومن هنا جاءت كلمة الشهر الكريم.. "إنه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة..".

البركة والرحمة والمغفرة موجودة طوال العام ينبغي للإنسان أن يجتهد للحصول عليها حين يرفع من مستواه الاستحقاقي.. أما في شهر رمضان فهو محاط بها.. بل تحتويه من كل جانب، يحصل عليها حتى في نومه، وأثناء تنفسه.

حين تهيمن الهالة الروحية أثناء انبعاثها للمستويات المنخفضة أو المتدنية تكون أشبه بنور يخترق الظلمة الحالكة في هذه المستويات، الأمر الذي يجعل الكيانات والأرواح

والشياطين فيها في حالة ذهول وضعف ووهن، أشبه بمن تسلط عليه الأضواء بعد العيش فترة طويلة في الظلام. ومن هنا جاءت الأحاديث التي تشير إلى غل الشياطين في هذا الشهر.. "أيها الناس إن أبواب الجنان في هذا الشهر مفتحة فاسألوا ربكم أن لا يغلقها عليكم وأبواب النيران مغلقة فاسألوا ربكم أن لا يفتحها عليكم و الشياطين مغلولة فاسألوا ربكم ألا يسلطها عليكم".

فضيافة الله لنا في هذا الشهر تتمثل في إغداق المحيط الروحي حولنا بهالة تحقق رغباتنا الروحية وتطلعاتنا الذاتية.. ينبغي أن ندرك أن ما يحيطنا في شهر رمضان يختلف عن باقي أيام السنة، فتتنزل أفواج الملائكة، ونزول القرآن الكريم، والملك العظيم (الروح).. لا يحدث إلا حين تكون الأرض مشبعة بالمستوى الروحي الذي يُهيئ لحدوث مثل هذه الأمور. وهنا تكون الفرصة سانحة للتحول ولتغيير الأفكار والمعتقدات بما يتلاءم مع بصائر الوحي. لذا يخطئ من يظن أن شهر رمضان أو ليلة القدر هي لتحقيق النوايا المادية، وإن كان هذا يحدث كثيراً.. ولكن ليس هذا علة وجود هذا الشهر وهذه الليلة.

فروحانية الشهر تعمل على بناء الإنسان الواعي الذي يستشعر ضرورة المدد الذي ينبغي أن يتزود منه. يستشعر الفيض الذي يحيطه ليؤسس في أعماقه الحكمة والبصيرة.. من هنا يحق لنا القول أن هذا الشهر بذرة في مسيرة بناء الإنسان الكامل. لا يكفي أن نطلب المغفرة والصفح الجميل، بل ينبغي أن نؤسس لبناء إنسان جديد يستيقظ من غفلته ويقشع الركام الذي لوث فطرته السليمة.

ومع الأسف يمر شهر رمضان على البعض مرور الكرام. ولكنه قد يحدث نقلة نوعية عند البعض الآخر حين يسبح في رحاب الضيافة الإلهية التي تنزلت إلى الأرض، ليس على المستوى

الروحي فحسب، فالهالة الروحية تتداخل حتى مع أجسادنا المادية، فتتخلل أجسادنا ومضات من هذه الهالة فتزهر، ولهذا شرع الله الصيام لكي تتفاعل هذه الومضات مع الأجساد غير الممتلئة بالطعام والمكتنزة بالملذات..

وبالتالي ليس من المستغرب أن تزهر براعم الروح في شجرة أجسادنا المادية كذلك، فالأشجار التي تعاني قساوة برد الشتاء تكون أشبه بالعيدان الجافة الميتة، التي يُخيل للناظر إليها أنها بلا حياة، ولكن حين تدفئها حرارة أشعة الشمس ينمو في باطنها كساء من الأوراق الخضراء فتزدهر وتنمو على أغصانها الأزهار والثمار.. لقد كانت الشجرة حية في أعماقها، وحياتها كامنة في باطنها، كانت تنتظر أشعة الشمس لتبدأ وتزدهر من جديد.. وهذا ما يقوم به شهر رمضان المبارك حين تتخلل روحانيته أجسادنا فتوقظ فيها الحياة من جديد.

وكما الأجساد كذلك النفوس..

لقد صارعت نفوسنا طوال سنة كاملة مختلف متغيرات الحياة، السلبية منها والإيجابية.. أنجزت الكثير من الأعمال، أُدخلت في منظومتها الفكرية والسلوكية العديد من التصورات والرؤى، وكل هذه الأمور تبقى في الباطن، وقد لا يعلم الإنسان عنها شيئاً. في شهر رمضان ومن خلال انبعاث الهالة الروحية القوية التي تكون فيها الأرض وقتها، يتم تثبيت وإمضاء وتوثيق هذه الأعمال في سجل الذات المكنون. لذلك يمكن تشبيه شهر رمضان بقيامة مؤقتة للنفوس تجري وقائعها في العشر الأواخر أو بالتحديد في ليلة القدر والتقدير. والتي بناء عليها أما أن يتغير مسار الإنسان في تطوره الروحي أو يعطى فرصاً أخرى لتجنب تقصيره أو مراجعة حساباته حتى السنة القادمة. ومن هنا نفهم لماذا نجد في كثير من الأدعية نوايا لتعديل حياتنا

المستقبلية أو تحقيق رغبتنا في أعمال معينة "اللهم ارزقني حج بيتك الحرام في عامي هذا وفي كل عام.. وزيارة قبل نبيك..".

ولكن لنتأمل قليلاً رحمة الله وكرمه.. فحتى يحدث هذا التوثيق والذي من خلاله تنفتح آفاق جديدة في حياتنا يعطينا فرصة سانحة وكبيرة لتعديل ما يمكن تعديله.. لشطب ما يمكنه شطبه.. ولزيادة ما يمكن زيادته.. بل جعل كل عمل نقوم به مضاعفاً عن حده الطبيعي، فثواب العبادات والشعائر وقراءة القرآن وغيرها من طقوس عبادية، جعل ثوابها مضاعفاً حتى يكون لنا رصيدٌ روحيٌ أثناء وبعد عملية التثبت.

لذا من الناحية الروحية نحن في أمس الحاجة لهذه الضيافة الإلهية لوجود هذا المستوى النوراني بيننا فترة من الزمن حتى نتألق من خلاله.. نحن بحاجة ملحة لهذا المدد من مستوى النور.

حين يجوع الإنسان ويعطش في شهر رمضان يشعر بمدى احتياجه إلى أشياء كثيرة ينبغي أن يحصل عليها من خارج جسده.. كالطعام والشراب، فبدونهما يصعب عليه العيش.. ولو حاول أن يعتمد على طبيعته وحدها دون أن يعتمد على الأشياء من الخارج فإنه سوف يضمحل ويموت.. وكذلك هي نفس الإنسان. فالنفس البشرية لا يمكنها أن تستقيم من دون أن تستمد النور من الخارج، لا يمكن أن تتطور من تلقاء نفسها، لا يمكن أن تعرف هويتها الحقيقية إلا بمدد نوراني تستمده من حين لآخر، لإثارة تشعل فيها بوادر التغيير.. وهذا ما يهبه الله لنا في شهر رمضان.

الله يهيئ لنا كل مقومات ووسائل التغير في هذا الشهر.. يفيض علينا بكرم ضيافته، وعظيم تجلي رحمته.. وسعة انبساط محبته.. لعلنا نرجع إلى أنفسنا ومن ثم إليه.. لذلك يقول النبي ﷺ: "فإن الشقي من حرم غفران الله في هذا الشهر العظيم".

ليلة القدر.. تجلي الحب الإلهي

لم يشرع الله تبارك وتعالى صوم شهر رمضان قهراً وإرغاماً للإنسان يكلفه ما لا طاقة به، إنما شرعه حباً وشوقاً وقرباً ووصالاً.. فالله عز وجل أعلم بخلجات ضمير الإنسان من نفسه، تلك النفس التي تعلق بها كدورات الآثام، وزلات الهوى، ومحبطات الأقدار والإنشداد للأبعاد الأرضية..

ولأجل أن ينفض الإنسان عن نفسه ما يعيقه للسباحة في عالم الروح، كان لابد أن يكرمه اللطيف بفترة زمنية اختبارية تعبوية يجلو بها نفسه من جديد، ويتخلص من تلك العوالق والكدورات الثقيلة التي تثقله إلى الأرض..

فكان شهر رمضان أعظم مختبر روحاني شرعته إرادة السماء يختبر فيها الإنسان إرادته وفق أجواء مفعمة بالروحانية تساعده لتحقيق مرامه وتجسيد غاياته.. في دورة فلكية مباركة تتيح له أن ينفض عن نفسه رواسب الماضي وكدورات الآثام والذنوب، ويغذي نفسه بالأفكار الصالحة والفضائل والمثل والقيم الروحية. ويستنهض جميع قدراته الروحانية وإمكانياته الفكرية، لتتوثق لديه ملكة القرب من الله عز وجل فكانت سُنة الاعتكاف في العشر الأواخر من شهر الله، والتي يغلق فيها نوافذ الحس البشري ويهنأ بمناجاة شعوره الملائكي..

كما أن القيم القرآنية والتوجيهات الربانية والوعود الإلهية التي قطعها الله على نفسه لابد لها من نسيج معنوي ومادي لكي

تتجسد، ولابد لها من واقع ملموس لكي تتحقق، ولابد لها من مختبر روحاني لكي تتجلى.. لذلك كان شهر رمضان والأخص من شهر رمضان كانت ليلة القدر التي تساوي عمر الإنسان كله لأنها خير من ألف شهر هي متوسط عمر الإنسان الطبيعي.

وهذا الشعور لا يكتمل إلا بوله الأنس مع الخالق، والذي تتجلى أنواره الفياضة في الليلة المباركة.. فليلة القدر تجلي لرحمة الله وحبه لبني البشر.. أوجدها الله لتكون أداة لعروج أرواحنا، وعودتها من جديد إلى عالم الله.. نعرف من خلالها حقيقتنا، ونتعلم كيف نعيش بقلوبنا وأرواحنا، وكيف نتنعم بأنوارها، وكيف نحترم أمانة الحياة فينا، وكيف نستشعر بركات الله وأنواره في نفوسنا..

لذا يتساءل البعض ما أهم وأعظم شيء ممكن عمله في ليلة القدر؟

أعظم شيء.. أن تكون حاضرا بروحك في هذه الليلة.. أن تعبر له عن حبك وشوقك وامتنانك وشكرك.. أعظم شيء أن تكون حاضراً بلا تشويش فكري وتوتر عقلي.. أعظم شيء تعمله أن تكون أنت موجوداً وقريباً في حضـرته المقدسة.. وأن تستشعر أن كل خلاياك تنطق بلسان حالها شكراً لهذا الإله العظيم.. قل الله وليس في قلبك أحد غيره..

ردد كلمة الله بلسانك إلى أن يخفت الاسم ويقوى الرسم محفورا في قلبك، فتسبح روحك في كلمة الله من غير صوت بلا اسم ولا رسم، حيث الصمت الملائكي.

أعظم شيء تفعله أن تكون كالطير يحلق "يسبح" في جو السماء. ابدأ بالاستغفار كي يقوى جناحك وتحلق عالياً، فالاستغفار يزيل عنك عوائق وموانع وكوابح الطيران، وحين تحلق استشعر نفحات الرحمة.

ليلة القدر هي ليلة الإرادة البشرية التي تتناغم مع الإرادة الإلهية.. بمعنى أنها ليست مخصصة للطلبات الشخصية كما يعتقد البعض أو كما سمعت من متحدث يقول: "هل جهزت قائمة طلباتك لهذه الليلة".. ليلة القدر لا تحتاج إلى قائمة طلبات.. ليلة القدر تحتاج إلى كلمة واحدة فقط "دلني عليك" أو "عرفني الطريق إليك" أو "أخرج حب الدنيا من قلبي".. لأن ليلة القدر لا تعطيك مساراً آخر لحياتك، وإنما ترجعك إلى مسارك وأهدافك الحقيقية..

دعونا نشرح هذه الفكرة بعجالة سريعة.

ذكرنا سابقا أن كل إنسان يكون قد حدد مسبقاً أهدافه في هذه الحياة حين كان في عالم الروح، وحين يتجسد على الأرض فإن العديد من هذه الأهداف قد تتغير أو تتبدل مع مرور الزمن. الكيان العظيم أو ما يسمى بملك الروح حين ينزل إلى الأرض في ليلة القدر يملك نسخة من تلك العهود والمواثيق التي ألزم بها الإنسان نفسه بتحقيقها في الأرض. فتجري موازنة بين تلك العهود وبين ما حققه الإنسان في حياته، ومحاولة إزالة العوائق والسدود التي تحول دون تحقيق هذه العهود التي ألزم بها نفسه هناك.

لذلك تتنزل أفواجاً من الملائكة الذين يأتمرون بأمر الروح العظيم في تنفيذ هذا الأمر.. أمر التفريق بين ما ينبغي أن يكون وبين ما هو كائن في حياة الإنسان، بين عهوده ومواثيقه التي قطعها هناك وبين واقعه الحالي وطبيعة حياته، ومن هناك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

وحين نقول أن ليلة القدر تجلٍ للرحمة الإلهية فهذا ليس كلاماً تنظيرياً أو تعبيراً لغوياً بل هو حقيقة مؤكدة بأبهى

صورها.. فالله برحمته وحبه للإنسان لا يريده أن يعيش حياته إلى أن يموت في تخبط وضياع وتيهان عن أهدافه الحقيقية، هو يريد أن يُرجع الإنسان إلى جادة الطريق وإلى أهدافه التي جاء لأجلها في هذه الحياة مرة أخرى، لذلك يقول: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وما عملية الصوم إلا لكي يبتعد عن المشتتات ويصفى فكره وقلبه كي تستطيع الملائكة أن تعمل دون معوقات..

ومن هنا كان الاختلاف بين كلمة الْقَدْرِ التي ذكرت في سورة القدر ﴿إِنَّا أَنزلْنَاهُ في لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وبين كلمة القَدَرِ التي جاءت في العديد من الآيات القرآنية: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.. فكلمة الْقَدْرِ جاءت مرة واحدة وهي مخصوصة للإنسان فقط، بينما كلمة القَدَرِ هي لكل شيء في عالم الوجود..

لذلك نجد أهمية كبيرة تذكرها كتب الأدعية في أعمال ليلة القدر وهو الاستغفار وطلب التوبة والمغفرة والعفو والذكر بأسماء الجلالة وتنزيهه سبحانه وتعالى، لأن كل هذه الأمور تعمل على نقاء السريرة القلبية من الشوائب وبالتالي تكون نفسية الإنسان مهيأة كي تعمل من خلالها الملائكة..

وبالتالي فإنه ليلة القدر لا تعطي بديلاً أو تصيغ واقعاً جديداً غير ما تعاهدت عليه سابقاً، هي لا تخرج عن القدر الكلي والسنن الكونية العامة، إنما تعيد الإنسان إلى مساره الصحيح وتبصـره بحقيقة أهدافه الحقيقية.

ليلة يتم فيها إعادة صياغة البرامج الأولية المودعة في الإنسان ﴿يفرق كل أمر حكيم﴾.

ليلة القدر يتم فيها تقريب الحاجات والغايات والطلبات التي تحقق هدفك في الحياة، وتغسل أدران الموبقات التي تمنع إشراقة الذات على هذه الأهداف. لذلك يخطئ من يظن أن ليلة

القدر هي لتحقيق الرغبات الشخصية التي نرغب بها، فمن شأن هذه الطلبات أن تتحقق بأي وقت آخر.. الطلبات التي تنسجم مع الإرادة الإلهية في تحقيق أهدافك هي التي تحظى بالقبول.

وهذا أمر من المهم والضـروري ان ندركه، ففي ليلة القدر حين يتوجه الإنسان روحياً، تحدث الأمور التي ينبغي أن تقربك من ذاتك الحقيقية ومن هدفك وبالتالي من الله سبحانه وتعالى الذي يريد أعادة تصحيح مسار الإنسان..

لذلك جاء في الحديث من ضمن أعمال في ليلة القدر "التفقه في الدين" والتفقه لا يعني كما يُفهم استنباط المسائل والأحكام الشرعية، إنما يعنى التدبر في معاني الإيمان ومفردات العقيدة والقرآن، ومعرفة حقيقة الدين وعلة الوجود.. التفكر في الصورة الكاملة والشاملة لسيناريو الحياة.. الرجوع إلى الذات.. مراقبة الصلة بينك وبين القوة المهيمنة على الوجود والكون.. التأمل في عالم الملكوت.

التفقه يعني وعي وإدراك حقيقة التناغم بين العالم المادي والروحي، بين عالم الأمر والعالم المادي، بين عالم الملك وعالم الملكوت، لأن الواسطة بين العالمين هو ما يعرف بحقيقة الدين.. أن يتأمل الإنسان بنفسه ومحيطه وعالمه ثم يرنو ببصـره إلى السماء فيتساءل في نفسه عن الإله العظيم الذي تكون معرفته بوابة معرفة الدين "أول الدين معرفة الله".

لقد اختار الله سبحانه وتعالى ليلة القدر لتكون ليلة التفقه والتدبر والتأمل، لأنها ليلة تتفتح فيها أبواب السماء كما ذكرنا سابقاً.. تتنزل فيها الملائكة تباعاً وأفواجاً.. ترقبك.. وتحاكيك.. وتأنس لذكرك.. وتنجذب إلى قلبك.. وتستقر في لبك.. فقلبك

حينها يكون مهبط الأملاك ومهيئ لتلقي الإلهام الذي يعينك على معرفة حقائق الدين وجوهر العبادة وحقيقة الخلق.

ليلة القدر دعوة لإعادة موازنة حقيقة الدين.. ودين الحقيقة في أفكارنا ومبادئنا وأنفسنا ووسيلة لبناء الإنسان الكامل الواعي المتدبر، وما أحوجنا اليوم لهذا البناء.. ما أحوجنا لفهم وإدراك معنى كلمة (الدين)، ما أحوجنا لمعرفة أنفسنا وذواتنا، ما أحوجنا لمعرفة فلسفة الحياة، والعالم الآخر، ما أحوجنا أن ننفض عن أنفسنا الجهل والعمى الذي يقيس الأمور وفقاً لبوصلة جهله وتعصبه وعماه، ما أحوجنا أن نعود إلى الذات ونستمع إلى صوت الله فينا.. وأن تكون ليلة القدر هي ليلة الكمال الذي ننشده لأنفسنا وللعام من حولنا.

لذلك يكفينا في ليلة القدر أن نخلع نعلينا ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ نستغفر كي نستبرأ من كدورات أنفسنا وتعلقاتها المادية وأن ننزع فتيل الأضغان والأحقاد من قلوبنا ونطلب العفو والمغفرة ونسامح كل من أخطأ بحقنا، لتكون قلوبنا مؤهلة لذكره سابحه في عز قدسه لها قابلية تلقي النفحات الرحمانية والملائكية من الله والملائكة والروح العظيم..

حتى لا تذهب حياتنا سدى بعيداً عن أهدافنا الحقيقية.. كانت ليلة القدر..

وحتى لا نكون ممن قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.. كانت ليلة القدر..

حتى لا نقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾ كانت ليلة القدر.

هل علمنا لماذا نقول أن ليلة القدر أحد أهم معالم تجلي الحب الإلهي للإنسان..

ما يمكن أن يتحقق في ليلة القدر أعظم بكثير مما نمني به أنفسنا من طلبات دنيوية لأن ما يتحقق فيها يكون من اختيار القوى العظمي وليس من اختيارنا الشخصي..

ليلة القدر أن تجعل إرادة الله تفعل فيك ما تشاء.. أن تقدم ما يريده الله منك عما تريده لنفسك، لأنه أعلم بك من نفسك، وقل: رب افعل بي ما أنت أهله ولا تفعل بي ما أنا أهله.. يا حي يا قيوم برحمتك استغيث فأغثني ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبدا..

لذلك من الأمور المهمة التي ينبغي عملها في الليلة المباركة.. أن تكون في حالة تلقي كاملة، تُشعر نفسك وكأنها وعاء فارغ، تجعل قلبك كالزهرة المتفتحة.. أن تتجرد من نفسك، أن تحيي حقيقتك، أن تعيش بقلبك، أن تعيش بروحك، أن تعيش بنورك، أن تعيش بأمانة الحياة فيك، أن تعيش بسر الله فيك، أن تعيش بروح الله فيك، وأن تضع ذاتك جانبا لتكون أهلا لرحمات الله ونفحاته.

في هذه الليلة فرغ نفسك من الشواغل، واعقد العزم والنية أن تكون ليلة مهمة ومباركة لك وللعالم تنهل منها من فيض الرحمة والمغفرة والإلهامات المباركة.. لتكن ليلة خلوتك الخاصة، اغتنمها في ساعتها المبكرة، وعلى الخصوص في الثلث الأخير منها.

كن مستقبلاً لأنواره، أكثر منك مرسلاً لشكواك.. اصمت لكي تعمل الملائكة في سكون عقلك الشيء الكثير، فصمتك يقوي تأثيرها الذي يتناغم وطبيعتها الهادئة.

اذكر الله بما تجده ينساب على لسانك، وتذوق رحيق ذكره، وعش حالة تأمل وصمت بين الأذكار، فذلك يرسخ حروف الذكر وألفاظه في القلب.

الأهم من كل هذا أن تكون موجوداً.. أن تستشعر حالة وجودك الفعلي وليس الجسماني فقط، فما أكثر الضجيج وأقل الحجيج، اقطع كل صلاتك بما يكون خارج خلوتك، وكن مع الله بذكرك وفكرك وروحك وكامل وعيك، وسلم سفينة حياتك لرياح الحب الإلهي الذي سيدبر لك أمور حياتك ويعيدك إلى المحجة البيضاء.

اللذة الروحية للذكر

لو عرجنا قليلاً على منهج الإسلام فيما يختص بثواب الأعمال، نجد أموراً غاية في الدقة والتوافق في الأمور العبادية والتشريعية، صاغها المشرع بعين الحكمة والبصيرة، وجعل لكل عمل ما يوافقه من الثواب والأجر المقابل له، فكانت أشبه بالقوانين الإلهية والنظم السماوية.

ففي مقابل الشكر تكون الزيادة ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

وفي مقابل الإحسان يكون الملك والتمكين ﴿هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾..﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ﴾ كما جاء في سورة يوسف.

وفي مقابل الطاعة تكون الكرامة "عبدي أطعني تكن مثلي، أقول للشيء كن فيكون وتقول للشيء كن فيكون". وفي مقابل غض البصر عن أعراض الناس، يكون الشعور بحلاوة الإيمان في القلب "من غض بصره وجد حلاوة الإيمان في قلبه". وفي مقابل التوكل الصادق على الله تكون الراحة النفسية في تيسير الأمور ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾. وفي مقابل التقوى يكون المخرج من ضيق الأمور والهموم إلى فسحة الأمل واليقين ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. وفي مقابل التوبة تكون الإنابة والغفران ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أو كما جاء في الدعاء: "إلهي ظلل على ذنوبي غمام رحمتك وأرسل على عيوبي سحاب رأفتك".

وفي مقابل التوسل يكون الرضا وتحقيق الغايات.. "فحقق فيك أملي، وأختم بالخير عملي، واجعلني من صفوتك الذين أحللتهم بحبوحة جنتك، وبوأتهم دار كرامتك، وأقررت أعينهم بالنظر إليك يوم لقاءك".

فلكل عمل ما يوافقه من عطاء أو هبة أو استجابة أو مكرمة وعطاء، وهذه الأمور تعتبر قانوناً إلهياً ثابتاً لا يعتريه التبديل، أو يتخلله الشك والتغيير، لأنه من صنع الحق تبارك وتعالى أشار إليه بقوله ﴿فلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾، وأي نقص في استجابة الأعمال هو خلل ونقص في المتلقي، وليس في الملُقي، فليراجع نفسه، ويسد الثغرات التي تكون مدخلاً لأهواء النفس والشيطان، يرى سرعة الإجابة، ونفاذ الطاعة.

ولنا أن نتساءل.. إذا كان لكل عمل يعمله الإنسان مقابلٌ وثوابٌ وعطاءٌ من الله تبارك وتعالى، فما جزاء وعطاء الذاكرين..؟ وبما أن الثواب والجزاء يكون من جنس العمل، وإذا كان الذكر هو أفضل الأعمال كما ورد في العديد من الأحاديث، وبه تقوم العبادات وبفضله رسخت المناهج، وبوجوده تقبل الطاعات والفرائض.. فما مقابل وجزاء الذكر؟

الذاكر.. الجليس الحبيب

لقد خص الله عز وجل الذكر بخاصية تفرد بها وحده دون سائر العبادات الأخرى. ففي مقابل الذكر تجد الله عندك.. جليسك.. مؤنسك.. حبيبك.. وصديقك، وهذه أرقى وأعظم درجة كمالية، يصل إليها الإنسان ويتمناها المخلوق، أن يكون بالقرب من الخالق.

ولم تحظ أي شعيرة أو نسك من مناسك الإسلام هذه الهبة والكرامة إلا للذاكرين.. فعن الرسول ﷺ قال: "يقول الله تعالى:

أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي".

كما أوحى الله إلى نبيه موسى (ع): "يا موسى، أتحب أن أسكن معك في بيتك، فخر موسى ساجداً، ثم قال: يا رب كيف ذلك، فقال يا موسى: أما علمت أني جليس من ذكرني، وحيثما التمسني عبدي وجدني".

ولو تدبرنا في الأحاديث الواردة بشأن الذكر نجد عبارة..

"أنا جليس من ذكرني.."

"أنا مع عبدي ما ذكرني.."

"أذكروني أذكركم.."

"أني حبيب من أحبني، وجليس من جالسني، ومؤنس لمن أنس بذكري". فالذكر دليل المحبة الصادقة، والصورة الواضحة لنقاء النفس الإنسانية، تجاه خالقها ومبدعها من العدم، وكما قال أمير المؤمنين (ع): "الذكر لذة المحبين"

- "الذكر مجالسة المحبوب"

- "الذكر شيمة المتقين"

- "أهل الذكر أهل الله وحامته". فما أجلها من كرامة يستهين بها الإنسان أن يكون جليس الله وحبيبه، وأن يكون الله مؤنسه في وحدته وصديقه في وحشته وغربته.

قال موسى (ع): "يا رب أقريب أنت فأناجيك؟ أم بعيد فأناديك؟ فإني أحس صوتك ولا أراك، فأين أنت؟ فقال الله تبارك وتعالى: "أنا خلفك وأمامك وعن يمينك وعن شمالك، يا موسى: أنا جليس عبدي حين يذكرني، وأنا معه إذا دعاني".

وفي حديث قدسي آخر، أن الله تبارك وتعالى قال: يا داود: "بلغ أهل الأرض، أني حبيب من أحبني، وجليس من جالسني،

ومؤنس لمن أنس بذكري، وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني، ومطيع لمن أطاعني، ما أحبني أحد من خلقي، عرفت ذلك في قلبه، إلا أحببته حباً لا يتقدمه أحد من خلقي".

وفي حديث قدسي، قال تعالى: "إذا أحب العبد لقائي أحببت لقاءه، وإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإذا تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإذا تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً".

فالمجالسة والمصادقة، تشعرنا بالحب واللذة الروحية مع الخالق تبارك وتعالى، فالجلوس عند العالم من المستحبات التي أكد عليها الإسلام، لأن جلوسك مع من هو أعلم وأرفع منك علماً وتقوى، يجعل حالة من الانسياب للعلم من الأكثر تركيز إلى الأقل تركيزاً، كما أثبت علماء الفيزياء والمادة أن اقتران جسمين أحدهما يملك طاقة وحرارة أكثر من الآخر، يجعل الطاقة والحرارة تنتقل من الجسم الأكثر طاقة إلى الأقل طاقة، إلى أن يقترب الجسمان من طبيعة بعضهما البعض في الطاقة والحرارة.

فإذا كان جلوسنا مع عالم بشري نستمع لأحاديثه وخبرته ما يدعم سلوكنا وينقي نفوسنا، له هذه الأهمية والكرامة، فكيف إذا كان جليسنا هو الله تبارك وتعالى، مالك الملك، نور الأنوار أصل الوجود ومنشأه.. ماسك السماوات والأرض بقدرته..

عندها تنساب الفيوضات الإلهية والأنوار الرحمانية من المعطي الملك المنان إلى العبد الضعيف المسكين والمستكين.. وتتوالي هذه الأنوار وتضمحل الكدورات، ليحل محلها النفحات الربانية، فيقتبس العبد من مولاه جزء من نوره، وتقتبس جوارحه إشعاعات فيض وجوده.

فالمجالسة والمصادقة والحب تعني التزود بالنور الإلهي، الذي لا يشعر الإنسان بإشراقته إلا بالذكر والتسليم المطلق لله تبارك وتعالى، فالذكر "مجالسة المحبوب" كما جاء عن أمير المؤمنين (ع).

والذكر يشعر الإنسان باللذة الروحية والأنس في مناجاته مع الخالق، ففي حالة الخلوة تتجلى معاني الحب الإلهي، وتتوحد علائق القرب الباقي، وتتشيد وشائج العشق الروحي.

وما أروعها من ساعات تلك التي يقضيها المحب مع حبيبه، حيث ينعدم فيها الزمن، وتنهل فيها النفوس العطشى من معين القدس الإلهي، لذلك جاء في الحديث: "الذكر مفتاح الأنس" كما جاء في حديث آخر: "إذا رأيت الله يؤنسك بذكره فقد أحبك".

ومن حق المحب على الحبيب ذكره بلا انقطاع، والتلهج باسمه بلا امتناع، والشوق إلى قربه باحتراق، والسعي لمرضاته باتساق.

فإذا ذكرنا الله أحبنا، وإذا أحبنا اصطفانا، وإذا اصطفانا كان هو سمعنا وبصرنا وكل جوارحنا، فـ "من أكثر ذكر الله أحبه".

وينبهنا الإمام زين العابدين (ع) إلى تلك اللذة في مناجاته "وأستغفرك من كل لذة بغير ذكرك، ومن كل راحة بغير أنسك، ومن كل سرور بغير قربك، ومن كل شغل بغير طاعتك".

فكمال اللذة بالذكر، وكمال الراحة بالأنس، وكمال السرور والفرح بالقرب من الخالق تبارك وتعالى، وما عدا ذلك سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً.

وماذا عسى المخلوق أن يطلب من الخالق، إلا عطفه ورحمته، وماذا يطلب الضعيف من اللطيف إلا قربه وحبه وصحبته،

وماذا يطلب الجاهل من العالم إلا قبسات من فيض نوره وتجليات قدسه.

فعندما يختلي الذاكر بمحبوبه، تتعلق أنفاسه، وتتوحد صفاته، وتنطلق كلماته "إلهي بك هامت القلوب الوالهة، وعلى معرفتك جمعت العقول المتباينة، فلا تطمئن القلوب إلا بذكراك ولا تسكن النفوس إلا عند رؤياك".

عندها يدعوك رب العزة لقربه، ويصطفيك لمحبته، ويصطنعك لنفسه ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾.

لذلك كان الذكر من أعظم النعم التي أكرم بها الخالق بني الإنسان، لأنه شعور بالانسجام والبهجة فمن خلاله تقترب الروح من عالمها الحقيقي الذي جاءت منه، فتشعر بعروجها إلى بارئها ومصورها ومنشئها، النشأة الأولى، فينتابها حالة من السمو والنزاهة والفرح.

ولنذكر أنفسنا على الدوام بوصية الله عز وجل لنبيه المصطفى ﷺ عندما سأله: "يا أحمد هل تدري أي عيش أهنأ وأي حياة أبقى..

أما العيش الهنيء، فهو الذي لا يفتر صاحبه عن ذكري، ولا ينسى نعمتي، ولا يجهل حقي، يطلب رضاي في ليله ونهاره، أما الحياة الباقية، فهي التي يعمل (صاحبها) لنفسه، حتى تهون عليه الدنيا وتصغر في عينه، وتعظم الآخرة عنده، ويؤثر هواي على هواه، ويبتغي مرضاتي، ويعظم حق عظمتي، ويذكر علمي به، ويراقبني بالليل والنهار عند كل سيئة أو معصية، وينقي قلبه عن كل ما أمره، ويبغض الشيطان ووساوسه، ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطانا أو سبيلاً، فإذا فعل ذلك أسكنت قلبه

حباً، حتى أجعل قلبه لي، وفراغه واشتغاله، وهمه وحديثه، من النعمة التي أنعمت بها على أهل محبتي من خلقي، وأفتح عين قلبه وسمعه، حتى يسمع بقلبه، وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي، وأضيق عليه الدنيا، وأبغض إليه ما فيها من اللذات، وأحذره من الدنيا وما فيها كما يحذر الراعي غنمه عن موانع الهلكة، فإذا كان هكذا يفر من الناس فراراً، وينقل من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن دار الشيطان إلى دار الرحمن. فمن عمل برضاي ألزمه ثلاث خصال، أعرفه شكراً لا يخالطه الجهل، وذكراً لا يخالطه النسيان، ومحبة لا يؤثر معها على محبتي محبة المخلوقين، فإذا أحبني أحببته، وأفتح عين قلبه إلى جلالي، ولا أخفي عليه خاصة خلقي، وأناجيه في ظلم الليل ونور النهار، حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين ومجالسته معهم، وأسمعه كلامي وكلام ملائكتي، وأعرفه السر الذي سترته عن خلقي، وألبسه الحياء حتى يستحي منه الخلق كلهم، ويمشي على الأرض مغفوراً له، وأجعل قلبه واعياً وبصيراً، ثم لا أجعل بيني وبينه ترجماناً، فهذه صفات المحبين".

الذكر.. أن تقترب أكثر

اقترابنا من شيء يجعل صفاتنا وسماتنا قريبة الشبه منه.. فحين نقترب من زهرة يلامس أريجها هالتنا التي تتأثر بعبيرها، وحين نقترب من مروحة نشعر بالانتعاش، وحين نقترب من مدفأة نشعر بالدفء، وحين نقترب من النور نبدأ في رؤية الأشياء على حقيقتها.

فالاقتراب من الشيء يحملك صفاته ويبادلك شعوره وإحساسه، وهذه سنة كونية وقانون إلهي في الموجودات.. لذا حذر الله من الاقتراب عن كل ما يحمل صفات سلبية أو ظلمانية

أو غير أخلاقية حتى لا تنساب تلك الصفات إلى نفوسنا فتكون حائلاً في إشراقة أرواحنا..

ولكن في الوقت نفسه جعل الاقتراب من مصدر النور هدف البشرية على مر العصور.. أن تقترب الأرواح من منبع النور والخير والسعادة والحب والرحمة، وهذا مفهوم العبادة التي تعني القرب من الحضرة الإلهية، أي أن تكون حاضراً قريباً متصلاً بذلك النور المشع والحب العظيم. فبمجرد أن تزيل الحجب عن نفسك وتستشعر حالة الشفافية الروحية وتبدأ في ملامسة حقائق الحياة.. تنفتح في أعماقك بوابة الاتصال، وتنقدح شرارة الحب وتتوهج صفات الخير والطهارة والحكمة، فتجد الله قريباً منك، بل أقرب إليك من حبل الوريد، وستشعر بهذا الاقتراب، ستشعر كيف تنساب إليك صفات الجمال والجلال، وكيف ستختفي عنك صفات السوء والفساد ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

والمحسن هو من وصل إلى حالة القرب المشهود وسبح في محيط الحب الممدود، ولا يتأتى هذا إلا حين يعمر الذكر قلوبنا الصدأة.

الله قريب منك إلى درجة المجالسة.. ولكن هل أنت قريب منه إلى درجة المؤانسة؟.. في بداية الخطاب القرآني لنبي الله آدم حين كان قريباً كان الله يناديه باسمه بشكل مباشر (يا آدم..) ولكن بعد وسوسة الشيطان وأكله من الشجرة ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ.. ﴾ والمناداة تكون للبعيد.. إذن فالله قريب، ولكننا نحن من يحدد قربنا أو ابتعادنا عنه.. بأفعالنا بأفكارنا بسلوكنا بنوايانا نحدد إن كنا قريبين منه أو بعيدين عنه.

القريب.. أو العابد.. أو المتدين هو من تتجلى فيه صفات الجمال والحب والتسامح والعفو والعلم والبصيرة والحكمة في الحياة.. سأل موسى بن عمران ربّه فقال: ياربّ، أبعيد أنت فأناديك، أم قريب فأناجيك؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى، أنا جليس مَن ذكرني".

رموز العبادات ودلالتها

حين نؤدي طقوسنا العبادية وننتهي منها، هل يبقى لها أثرٌ في أعماقنا وقلوبنا أم أنها تنتهي بانتهاء أدائها؟

هذا يدعونا لمعرفة رموز العبادات وعلى الخصوص تلك التي تكون في أوقات محددة أو أماكن معينة.. فكل العبادات عبارة عن طقوس لشيء أعظم بكثير من أن تقنن أو تحدد في زمن معين أو تؤدى في مكان معين.. بل أن الله عز وجل حين وضع الشـروط الوقتية اللازمة لإتمام هذه الشعائر إنما أراد أن تكون بحالة من التركيز والتمعن بحيث يصل الإنسان إلى أقصى درجات التفاعل مع السلوك العبادي..

فالصلاة.. الصوم.. الحج.. قراءة القرآن.. ليلة القدر.. وغيرها من طقوس عبادية، خصها الله في أوقات معينة حين أدائها حتى نعيش الحالة بأرقى مستوياتها الروحية، ولكن هذا لا يعني أنها تنتهي بانتهاء وقتها المخصوص بالأداء.. كمثل شخص يشارك في دورة لتعلم التأمل على سبيل المثال، فيتعلم كل ما يتعلق بهذا الموضوع، وتهيأ له الدورة كل الشروط المهمة لإتمام هذا الأمر، فيتم تركيز العمل بكثافة تتطلب الانتباه والمثابرة والوعي حتى يشعر المتدرب بفاعلية وقيمة ما يقوم به.. ولكن هذا لا يعني أن نمارس التأمل فقط في الدورات، أو في أوقات محدودة ونتركه بقية حياتنا. ما فائدته إن لم يُفعل في حياتنا العملية؟.. وهذا الأمر ينطبق عملياً وفعلياً على كل الشعائر والعبادات الدينية..

الله يريدنا أن نقوم بأداء العبادات في أوقاتها وشروطها ولكنه أرادها أن تستمر معنا بقية اليوم.. بل إلى بقية حياتنا، أي أنها لا تُحد ولا تقيد بوقت معين.

الصلاة نؤديها في أوقات محدودة.. ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً﴾ كطقس عبادي.. ولكن الله يريد أن يكون يومنا بمجملة مفعماً بالصلاة والصلة معه، نستلهم منها المدد مركزاً في أوقاتها المحددة كي تهبنا وتزودنا المدد لبقية اليوم لنكون معها على الدوام. فالصلاة لا تنتهي بالتشهد الأخير بل هي حاضرة ودائمة بالصلة التي يعقدها المصلي في قلبه، وقس على ذلك بقية العبادات الأخرى.

لذلك حري بنا ان نلتفت إلى كلمة "يحافظون" وكلمة "دائمون" اللتان جاء ذكرهما في سورة المعارج.. فحين يشرع الله في ذكر صفات المؤمنين يقول في الآية 23 ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ أي أنهم يكونوا في صلة دائمة مستمرة غير منقطعة مع الله سبحانه وتعالى، وليس كما قيل في التفاسير أنهم يقيمون الصلاة في أوقاتها، لأن الحق يسترسل في ذكر هذه الصفات فيذكر في الآية التي تليها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي يؤدون الصلاة في وقتها لأن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا..

فالعبادات رموز تؤدى في وقت محدد وفق شروط معينة لنعيش الحالة الروحية ومعاني هذا الرمز بقية يومنا أو بقية حياتنا.. العبادة ليست فعل مجرد بل هي رمز ينبغي أن نعيشه وندرك معانيه طوال حياتنا.. فالحج رمز ومعانيه لا تنتهي برمي الجمرة الأخيرة، ففي كل حركة وشعيرة فيه مفاهيم ينبغي أن نعيشها، وأن نحملها معنا إذا رجعنا، وأن نجسدها في حياتنا، وقد ذكرنا هذا مفصلاً في موضوع الحج محاكاة الحياة.

الصوم رمز.. كل الأحاديث التي وردت بشأن ثواب الصائم "أنفاسكم فيه تسبيح.. نومكم فيه عبادة.. أعمالكم فيه مقبولة.. دعاؤكم فيه مستجاباً".. وغيرها من أحاديث كثيرة في فضل الصيام.. كل هذه الأمور بمقدور الإنسان أن يحصل عليها خلال الأحد عشر شهراً الأخرى كذلك.. فقط حين تجعل الله محور حياتك.. حين يكون الله هو الغالب في تفكيرك وفي شعورك فإن أنفاسك ستكون تسبيح.. حين تنام ولسانك لهجاً بذكر الله وجوارحك تشكر الله وممتنة لنعمه وعطائه فإن نومك سيكون عباده.. حين يكشف الله عن سر قلبك وتشعر بسلامته ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ فإن أعمالك ستكون بعين العناية والمشيئة الإلهية.

ليلة القدر رمز.. ما أجملها من ليلة مفعمة بالفيض الإلهي نعيشها كل سنة، هل يمكن إعادتها؟ هل يمكن للملائكة أن تعاود النزول مرة أخرى.. هل يمكن للكيان العظيم "الروح" أن ينزل إلى الأرض مرة أخرى؟

في الوقت الذي تشعر فيه أنك قريب من الله، قريب من الحضرة المقدسة.. فتلك ليلة القدر بالنسبة لك.. في الوقت الذي يكون ذكر الله هو الأهم في حياتك بحيث تشعر بأن كل قواك الروحية ولطائف قلبك النورانية بدأت تشرق للخارج، فتلك ليلة القدر بالنسبة لك.. فكل ما يمكن أن يحدث في ليلة القدر يحدث شبيهاً له لك آنذاك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ..﴾ ليلة القدر أن تعيش حالة "ربنا الله".. في اللحظة التي تتجرد فيها عن كل شيء، وتوجه همتك وتنقي قلبك وتصقل وعيك وتشحذ كل مشاعرك وأحاسيسك باتجاه حضرة القدس ستعيش ليلة القدر..

ليلة القدر رمز لا ينتهي بطلوع الفجر.. سلام هي حتى مطلع الفجر.. بل هي ليلة دائمة مستمرة تشرق على الدوام في قلب المؤمن العارف لا يلتمسها في العشر الأواخر فقط بل يتحراها في كل أيام حياته.. متى ما شعرت بسلام قلبك في الداخل ستومض ليلة القدر في وعيك..

لذا ما ينبغي عمله بعد الانتهاء من طقوسنا العبادية، صلاة، صوم، تهجد، دعاء، حج.. وغيرها من عبادات، أن نحافظ على شعورنا الروحي – الذي شعرنا به أثناء العبادة - وأن نسحب هذا الشعور لبقية أيام حياتنا، فلا ننتظر العام القادم كي نعيش حالة الوصال الروحي العميقة كالتي يعيشها البعض في ليلة القدر، ولكن لنسع لخلق ليالي، وليالي، وليالي عديدة نعيش فيها ذات الحالة.. الله وضعك في مختبر عملي وهيئ لك كافة الظروف لخلق وتجلي معالم هذه الليلة، وكأنه سبحانه وتعالي يقول لك: هل استشعرت.. هل عرفت.. هل تأكدت.. هل زال عنك الشك بإمكانية حدوث مثل هذا الفيض.. إذن أصبح الطريق سالكاً لك كي تخلق لك ليالٍ مشابهة لهذه الليلة، وسوف أكون معك أساعدك وأمدك بالعون وسآمر من يتنزل عليك.

دلالة العبادات

دلالة العبادات تتفاوت بحسب ما نحمله من وعي وإدراك لها، وكلما تعمق علمنا وإحاطتنا وبحثنا عن حقائقها كلما اتضحت الصورة أكثر وقربت إلى أذهاننا بالشكل الذي يريده الله لنا أن نفهمه وندركه.

فهناك تصور إلهي لكل الحقائق وهناك تصور بشري يخضع لما يحمله الإنسان من معارف وأفكار اكتسبها من البيئة والمحيط والتربية والواقع الاجتماعي الذي يعيش في.. فالتصور الإلهي للصلاة لا يقتصر على أدائها الشرعي، إنما تكمن الغاية منها

في التواصل الذي يسبح الإنسان من خلاله في عالم الملكوت الأعلى، بينما لو طالعت كتب التشـريع فإن تمام الصلاة يكون بأداء أركانها وشروطها الشكلية. ومن هنا يقول الله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ فالله يوبخه على الرغم أنه يصلي، وقد تسود ثفنات جبهته، إلا أنه ساه غير مدرك لحقيقة الصلاة وأبعادها الروحية.

ولنأخذ مثالاً آخر أكثر تفصيلا.. مثال الشكر

فعلى كثرة من يلهج بالحمد والشكر لله سبحانه وتعالى.. إلا أن الله ينعت الشاكرين بالقلة.. لماذا؟

فالشكر معرفة المنعم والثناء عليه بما هو أهله وبما أولاه من معروف بمختلف صوره وأشكاله. وحين أشار الله في جملة من الأحاديث الشـريفة إلى رفعة ومنزلة الشكر العظيمة، بل وجعلها توازي أو تتقدم على منزلة الرضا لا لأنه يحتاج أن يسمع كلمات الثناء والشكر والتبجيل ممن منحه عطاياه وهباته لأنه الغني الذي لا يفتقر إلى شيء والمتجرد عن كل السمات والنوازع البشرية.

ولكنه أراد من الشكر التواصل مع المنعم ومعرفته والتقرب إليه، فلو أن شخصاً دائم العطاء والمنح لك، ويعطيك دون مقابل أو شرط، يعطيك ويساعدك ويقدم لك ما تحتاج إليه، ألا يكون ذلك مدعاة للتقرب منه وجعله ذا أهمية في حياتك..؟

كما أن الشكر إقرار وتأكيد منك بأن هناك يداً أخرى تساعدك وتعمل معك في الخفاء لتحقيق أهدافك.. قوة غيبية من السماء تدعمك وتهيئ لك سبل الحياة.

فمن المنطق الذي لا يختلف عليه اثنان أنك تشكر من يساعدك أو ينجز لك خدمة أو يقدم لك معروفاً.. أليس كذلك! فلو أنك حققت إنجازاً في عمل ما، فمن غير المعقول أن تشكر جارك، أو صديقك، أو زوجك.. لقد أنجزت العمل منفرداً دون تدخل أي

طرف من الأطراف، ولعل أحدهم ليعجب حين تشكره على فعل لم يقم به.

ولكن من يشكر الله.. سواء في أثناء عمله أو بعد الانتهاء منه، أو حين يأخذ فترة استراحة يلتقط فيها أنفاسه يقول: اللهم لك الحمد والشكر، أو شكراً لله الذي منحني القوة والقدرة على إتمام هذا العمل. فهذا إقرار منه أن هناك من قدم له يد العون والمساعدة، فيقوم بشكر الله على هذه المساعدة.

هذا الشعور.. بأن حولك وقوتك مرتبطة بحول وقوة أخرى يزداد ويتعمق كلما قويت الصلة بينهما، فكلما استشعرت تدخل الله ومساعدته لك في عملك أو فيما تقوم به أو فيما يهبك إياه، كلما أفاض عليك المزيد والمزيد. لذلك قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ.. ﴾. وفي المقابل، فمن يعتقد أن ما يحصل عليه أو ما يهيئ له سبل الحياة مرتبط بإرادته الشخصية وبعمله وتخطيطه الذاتي فسوف يحرم من المساعدة والفيض الإلهي ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ والكفر هنا حالة الجحود بالعطاء والفيض الإلهي الذي يمد الله به عالمنا المادي.

إذن فالشكر الحقيقي إنما هو حالة شعورية تقر فيها بأن قدرة الله تعمل معك في الحياة، وبالتالي فأنت لست وحيداً في حركتك وسعيك وإنجازاتك. ومن هذا الشعور يتعمق شعور القرب والمحبة، فمن الجفاء والجحود أن لا نحب ونعشق من يكون معنا في كل خطوة وإنجاز ونجاح وعمل في حياتنا..

ومن هنا نعلم لماذا يقول الحق جل وعلا: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ فالتلفظ بالشكر دون الشعور بحالة القرب، ودون معرفة المنعم وصاحب العطاء ودون إرجاع كل كبيرة وصغيرة من أعمالنا إليه قد يبعدنا من جملة الشاكرين الحقيقيين.

وكما في مفهوم الشكر كذلك في كل التعاليم الدينية الأخرى، فالكثير من الناس يؤدونها على أكمل وجه، ولكن قلة منهم يعون ما يعملون.. ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ قليلاً منهم يتعمقون في المقاصد والعلل الروحية للأعمال.. لذلك قال الإمام زين العابدين (ع): "ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج".

العبادة وحالة التوازن

تخلق صور وأشكال العبادة حالة من التوازن النفسي والروحي، حالة من الطمأنينة والهدوء والسكينة وأفضل الطرق للتعامل مع الواقع الذي نعيش فيه.. لأننا حين نكون في حالة ضعف وعدم توازن واضطراب وتشويش وتذمر يصعب علينا تلقي الفيض الإلهي أو خلق حالة من التواصل.. فأوقات الصلوات الخمس هي من أكثر الأوقات التي تقل فيها الطاقة في الأرض، لذلك أراد الله أن يوجد حالة تواصل يستمد من خلالها الإنسان طاقة الفيض الإلهي ليخلق في نفسه حالة التوازن..

قد تسمع من البعض كلاماً مغايراً لهذه الفكرة، فيقول إن أوقات الصلاة لها طاقة عالية لهذا شرع الله الصلاة في هذه الأوقات للحصول على هذه الطاقة، فوقت صلاة الفجر يحوي على طاقة عالية.. وهذه فكرة يجانبها الصواب.. فالطاقة تكون في أدنى مستوياتها الحيوية والأثيرية، والتي يبدأ انبثاقها وتوهجها وتألقها مع الدقائق الأولى لشروق الشمس كما قال تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾. فوقت صلاة الفجر تكون طاقة الأرض في أقل مستوياتها، ولو راجعنا حالات الوفاة لرأينا أن أغلبها يكون في هذه الفترة من الثانية ليلاً إلى الفجر والساعة التي تليها. وهناك توجيهات روائية تحثنا على عدم النوم في هذه الفترة لأن النائم يقل عنده مستوى الطاقة الذي يتزامن مع نقص الطاقة على الأرض. كما تحثنا الإرشادات النبوية على

استغلال هذه الفترة في التسبيح والذكر ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ وذات الأمر يحدث قبل غروب الشمس، حين يبدأ قرص الشمس في الاختفاء..

فتشريع العبادات لا يقتصر على كونها أداة للعروج أو وسيلة للتأمل والتفكر وإنما جعلها الله كذلك وسيلة للتوازن الجسدي والنفسي والروحي. ولكن لماذا.. وما المغزى من هذا كله؟

لأننا فقط حين نكون في حالة توازن وهدوء وسكينة وسكون للفكر والجوارح تكون لنا القدرة على تلقي الفيض الإلهي.. ماذا يعني هذا أيضاً؟

يعني أن الفيض الإلهي والرحمة الإلهية والعطاء اللامتناهي يحيطنا من كل جانب وعلى الدوام.. العالم الروحي ليس مكاناً في السماء تذهب إليه.. ولا في العرش كي تعرج إليه.. هو معك، وحولك، وفوقك، وتحتك، هو في كل مكان، وأنت منغمس فيه، انغماس السمكة في ماء البحر.. لذلك فالسير إلى الله ليس سيراً مكانياً أو زمانياً.. بل هو تغيير قناعات وأفكار وسباحة وتسبيح في محيط القدرة الإلهية فقط.. الله يحدد لك وقتا تمارس فيه عباداتك كي يتسرب إليك من خلالها رذاذ فيضه ليقوّي فيك ملكاتك الروحية الأخرى التي تتفتق وتتغلغل لمعرفة المعبود الحقيقي. وخلال اليوم تنتاب حركة الأفلاك حالة من التغير تتفاوت بين الضعف والشدة، فيعطيك الله وسيلة كي تتدرع فيها لتتجاوز هذا التغير. فتكون متوازناً من جانب، ومن جانب آخر تنهل من هذا الدرع وهذه الوسيلة (العبادات) طاقة إضافية وفيضاً نورانيا فيما لو تماهيت وتعمقت بها روحيا ستشحذ ملكة التأمل والتفكر والتمعن.. وبالتالي حالة الوصال مع الخالق.

الليل والبناء الروحي

أيقظ الله نبيه المزمل وحبيبه المدثر ليرتشف من فيض النور الإلهي في عتمة الليل البهيم ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾. وكأن البناء الأساسي والأولي ينبغي أن يكونَ في جوف الليل، فهناك قولاً ثقيلاً سوف يلقى على نبي الرحمة.

لقد كانت الشرارة الأولى في غار حراء.. ذلك الغار الذي شهد أول تجلي للنبي ﷺ حيث تجلى من عمق ظلامه نور جبرائيل حاملاً رسالة الله لنبيه.

ولكن لماذا الليل؟ وما ضرورة عتمة الظلام لتكون أرضية البناء الروحي؟

ينبغي أن نفرق بين الظلام الذي يعبر عن الشر والطاقات السلبية والغايات اللاسوية وبين الظلام أو الظلمة كواقع طبيعي نعيشه بمعنى أن لا يكون هناك إنارة أو مصادر للضوء.

نحن نتكلم عن الظلام الذي يتجلى من خلاله النور.. ظلام غار حراء.. وظلام طور سيناء.. الظلام الذي يصبح أرضية للخير والصلاح والفلاح في الحياة.

الظلام له تماسٌ كبيرٌ في عمق النفس البشرية، فمن تعود أن يعيش لحظات مع نفسه في الظلام سيشعر بأن الظلام أصبح كالمرآة التي تتجلى فيها مكنوناته الباطنية.. يصبح كمرآة للذات.. تظهر فيها صور المخاوف والمشاعر والآلام والأفكار والمعتقدات المكنونة لعشرات سنين مضت. وظهورها يعني تحللها

وانصهارها، فكل ما يظهر يعرض نفسه للفناء والتلاشي على مرآة الذات..

وكأن الظلام أداة تجلي وإظهار كطبيب نفساني يعالج مرضاه حين يكشف خبايا بواطنهم.

لذلك يخاف البعض من الظلام أو حتى من الإضاءة الخافتة بدعوى أنها تسبب له الكآبة والحزن. في الواقع هو يخشى مواجهة نفسه وتجلي أفكاره وظهورها للعلن.

في الظلام تشعر بذاتك على حقيقتها، وبمجرد أن يصبح الظلام جزء منك وتغوص في أعماقه سوف تنكشف لك حقيقة النور، سترى ومضات ذلك النور تحلق حولك وتمدك بأنواع الإلهامات النيرة، سوف لن تشعر بالخوف الذي شعرت به بادئ الأمر، سيتحول الظلام إلى أنس لم يسبق أن شعرت به قبل ذلك.

ستكتشف أن الظلام والنور كلاهما في داخلك يختفي أحدهما ليظهر الآخر وهكذا دواليك. وفي كل مرة اسمح لقلبك أن يستمد تلك الطاقة الخلابة الإلهية.

شعور الظلام شعور مبهر وعظيم.. تخيل أنك للحظة منقطع عن كل شيء، لا شيء حولك لتراه، كل شيء غارق في العتمة.. فراغ.. ومحيط ليس له نهاية. سواء أغلقت عينيك أم فتحتهما فإنك لا ترى سوى السرمدية. ستشعر وكأنك محلق في الفضاء.. كأنك في رحم الكون، ستشعر بقشعريرة فلا شيء هناك سوى الحب الذي يحتويك ويحيطك من كل جانب، لم تعد كائنا أرضياً فقد أطلقت جناحيك للفضاء، وحلقت في عالم اللانهائي والحب الإلهي..

في هذه الحالة ستدرك عظم ما أنت فيه، وتفاهة ودنو عالم الأرض حين تضيء الأنوار بعد أن تنتهي رحلتك هذه.

لم أختبر لذة النشوة الروحية بقدر ما اختبرتها في الظلام.. قد تكون مخيفة بادئ الأمر للبعض، ولكن بمجرد أن تخرج النفس مكنوناتها وشذرات ماضيها، وتتخلص من الأفكار والمعتقدات التي زرعت في وعيها الباطن سوف يتحول الظلام إلى أنس لا يعادله أنس.

اختبر الظلام بمختلف أنواع العبادات، ستجد اختلافاً كبيراً.. الاختلاف هنا بين أن تصلي أو تتهجد أو تدعو وأنت متثاقل إلى الأرض وبين أن تصلي وأنت محلق في الفضاء ورحم الكون.

ستشعر بقوة باطنية عالية.. في الأيام الأولى ستتجلى لك العديد من الصور الفكرية التي يقوم عقلك الباطن بتفريغها وإظهارها وهذا ما يسبب لك الخوف، فهناك ملفات قديمة سيتم فتحها..

قد لا تشعر بها حسياً ولكنك تشعر بنتائجها فهي ما تسبب لك الخوف والرهبة، بعد ذلك يشتد عودك ويقوى قلبك، فلا شيء بات قابعاً في الباطن، وهنا يتحول الظلام إلى أُنس يبتغي عيشه فترة أطول.

قد تنهمر دموعك على خديك.. تشعر برهبة وكأنك أمام قوة عليا تحكم الكون.. ينتابك فرح بموقفك هذا.. تهون عليك كل رغبات وحاجات كنت قد طلبتها لنفسك.. تشعر وكأنك في لقائك الأول مع من كنت تناديه وتترنم بأسمائه.. تشعر بحب جارف وقوي يتخلل كيانك وبنفحة حنان تلامس قلبك.

فالليل الذي يذكره الله في كتابه يختلف عن ليلنا اليوم، فليلنا اليوم مزين بمختلف أنواع الإضاءة حتى لا نكاد نشعر بظلام الليل.. الكثير منا لم يختبر الليل الحقيقي، صحيح أنه يقوم الليل ويتهجد النوافل ويقرأ القرآن ولكن لا شيء من هذا يحدث في الظلام.

استغربت من تصرف صديق صالح كان يقوم الليل كثيراً، وكنت معه في يوم ما في زقاق مظلم فامتنع عن مرافقتي فيه لأنه يخاف من الظلام.. صديقي لم يصاحب الظلام ولم يقم الليل بعد، لقد أقام صلاته في نهار الإضاءة. ينبغي أن تتحول العتمة في عيون المؤمن إلى أمر طبيعي فلا يخاف أو يخشى شيئاً ما دام في معية الله.

حين نقرأ "إليك قطع العابدون دجى الليالي بتبكير الدلج إلى ظلم الأسحار، يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك، فبك إلهي لا بغيرك أسألك أن تجعلني في أول زمرة السابقين إليك.." عن أي دجى ودلج وظلم الأسحار نتحدث..

دعونا نحيي الليل كما لو كنا في عصر النبي ﷺ أن يكون الليل ليلاً حقيقياً يكشف لنا حقيقتنا ونحلق من خلاله إلى فضاء الكون.. دعونا نتهجد وكأننا في غار حراء، حيث لا شيء سوى ظلام دامس.. أن نحفظ ما نتهجد به من آيات القرآن الكريم والأدعية المأثورة حتى لا نحتاج إلى الإضاءة.. نتسربل بالتحصينات المقدسة ونختلي بأنفسنا ساعة من الزمن نسبر فيها أغوار ذواتنا.. نأخذها ونحلق بها في فضاء الحب الإلهي.

كثيراً منا لا يشعر بذلك العطاء الذي وعدت به الأحاديث الشريفة، فقيامه لم يغير شيئاً في حياته ولم يزده وعياً ويقظة وحباً.. لذا ينبغي أن ننظر إلى معنى الليل من حيثياته وليس من مسمياته، من وقائعه وآثاره وليس من كونه فترة زمنية تحدث بعد مغيب الشمس.. فالليل بدون ظلام لا يعد ليلاً.

لا يزال عالم الليل مجهول بالنسبة إلينا، ولا نطل بنافذتنا عليه ولا نشهد معالمه. لذلك نحن لا نشعر بالفعل بأهميته كأرضية للبناء الروحي وليس معنى ذلك أن الإنسان لا يمارس بناء هذه الروحية أثناء النهار، ولكنه يعني أن الليل هو أفضل

وقت لتركيز الإيمان في النفس وتقوية الصلة الروحية بالله عز وجل.

لم يختر الله الليل ليكون محطة البناء الروحي عبثاً، بل لعوامل عديدة تؤثر تأثيراً مباشراً على النفس البشرية كما قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾.. فعندما يقوم الإنسان في الليل فإنه يعلن صراحة انتصار الروح على الهوى ويرفع شعار القيام ضد النوم والكسل والاسترخاء، ويستجيب لنداء السماء الذي يتضح لنا من خلال هذا الحديث القدسي الذي يوحي الله سبحانه لنبيه موسى بن عمران (ع): "يا بن عمران كذب من زعم أنه يحبني فإذا جنه الليل نام عني، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه، هأنذا يا بن عمران، مطلع على أحبائي، إذا جنهم الليل حولت أبصارهم في قلوبهم ومثلت عقوبتي بين أعينهم.."

ويمتاز الليل أيضاً بالسكون والاستقرار والصفاء، حيث تكون النفس صافية لعدم تكدرها بأمور الحياة اليومية والمشتتات العملية والاتصالات المؤرقة للنفس. فالأرض المثقلة بالرواسب والسموم لا ينبت فيها الثمر، كذلك الإيمان، لا ينبت إلا في التربة الخصبة.

وهذا السكون والهدوء الذي يخيم على الكون ليلاً هو أفضل مناخ للخطاب الوجداني، ولنداء القلب حين يبث همومه للباري عز وجل.

كما أن الأرواح والملائكة في العالم الأثيري تكون في حركتها قريبة جداً من الأرض أثناء الليل، ومن هنا كانت الرؤى والأحلام والإلهامات الطيبة، وكما يقولون أن عمل الملائكة والأرواح المرشدة يضاعف ليلاً.

ألم يرتدع ذلك السارق الذي كان يهم بالسرقة في جوف الليل، عندما سمع ذلك الصوت القرآني ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا

أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ لأن سماع هذه الآيات القرآنية في الليل مع مزيد من التفكر يجعل لكلمات القرآن إيحاءات مؤثرة تنعكس على قلب الإنسان.. لذلك فالمناجاة في قلب الليل سهم يخترق الحجب ويصل إلى عنان السماء، فعندما يتلفظ الإنسان بمثل هذه الكلمات "إلهي إن حرمتني فمن ذا الذي يرزقني، وإن خذلتني فمن ذا الذي ينصـرني، إلهي أعوذ بك من غضبك وحلول سخطك، إلهي إن كنت غير مستأهل لرحمتك فأنت أهل أن تجود عليّ بفضل سعة رحمتك.. إلهي قد وقف الخاطئ المذنب بين يديك يرجو عفوك وإحسانك.." يشعر بلذيذ مناجاة المولى عز وجل، وأن روحه أقرب إلى عالم الملكوت منها إلى عالم الدنيا.

المناجاة دلالة على الحب والأنس بالله، فالمواظبة على التهجد في هدوء الليل مع صفاء النفس يشعر الإنسان بحلاوة الخلوة مع حبيبه والتنعم بمناجاته.

ويساهم الليل في إبراز مظاهر عظمة الله فيؤثر في قلب الإنسان تأثيراً بالغاً.. فهذا الظلام الذي يخيم ويعشعش علينا يجعل النفس تشعر بالرهبة وتتوق إلى النور الحقيقي بعد أن تتحسس الظلام بعمق وخصوصاً عندما يراقب الإنسان هبوط الظلام وبريق النجوم في السموات.

إنه شعور جارف بالرهبة.. فما قيمة الإنسان في مقابل هذا الكون العظيم الذي يسبح لله، لذا كان مما ناجى به داود (ع): " يا داود عليك بالاستغفار في دلج الليل فانظر إلى ارتفاع النجوم في السماء، وسبحني وأكثر من ذكري حتى أذكرك، يا داود إن المتقين لا ينامون ليلهم إلا بصلواتهم إليّ ولا يقطعون نهارهم إلا بذكري.. يا داود إن العارفين كحلوا أعينهم بمرود السهر وقاموا ليلهم يسهرون يطلبون بذلك مرضاتي..".

هذا هو عالم الليل يخلصك من الأنانية والأنا ويغمرك بالصفاء والسكون.. هو عالم الرهبة وتجلي خشية الله، لذلك يكون مناسباً للبناء الروحي المركز..

أوحي الله تعالى إلى نبيه موسى (ع) في حديث قدسي: "إن لي عباداً يحبوني وأحبهم ويشتاقون إلي فأشتاق إليهم، ويذكرونني فاذكرهم، فإن أخذت طريقهم أصبتك، وإن عدلت عنهم مقتك..

قال: يا رب ما علامتهم.

قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الشفيق غنمه ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطير إلى أوكارها، فإذا جن الليل واختلط الظلام، وفرشت الفرش، ونصبت الأسرة، وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا أقدامهم وافترشوا لي وجوههم وناجوني بكلامي".

فكن من الذين وصفهم القرآن الكريم.. "بأهل الليل".. الذين يقعدهم الوله لمناجاة محبوبهم في عتمة الليل البهيم..

كن ممن يسبح من ظلام الليل إلى عالم النور، ويجعل من الليل مطيته إلى رضوان الباري، ويحلق بروحه عالياً إلى عرش الرحمن، ويجعل من قلبه مهبط الملائكة والأنوار.

دين البصيرة.. والخلاص

لماذا الدين..؟ ولماذا يتوجب علينا أن نكون متدينين؟

في مراحل الخلق الأولى، حين كانت الأرواح في قمة تألقها وقوتها منغمسة ومتشربة في عالم النور، لم تكن بحاجة إلى معتقدات دينية أو تشريعية، فقد كانت في توافق كامل مع السنن الكونية والنواميس الإلهية.. وحين ترتحل من هذه الحياة الأرضية وتعود إلى موطنها الأصلي لا تمارس طقوسها الدينية في ذلك العالم كما نقرأ في العديد من الأحاديث والروايات فالدار الآخرة ليست دار تكليف وإلزام وتشريع إنما هي دار حصاد لما بذرناه وجزاء لما عملناه. لذلك نقرأ في الحكم: "لم يكن في أزله إخلاص أعمال ولا وجود أحوال، بل لم يكن هناك إلا محض الأفضال وعظيم النوال".

إذن.. الدين ومعالمه وطقوسه وشعائره وتشـريعاته جاءت كلها بالتدريج بعد المرحلة والحقبة الذهبية التي عاشتها الأرواح في سابق عهدها على الأرض، واتضحت ملامحها في عهد آدم النبي، ذلك أن التجسد المادي وطبائعه النفسانية بدأ يتداخل مع إشراقة الروح، ويفرض قواه على قراراتها واختياراتها في الحياة. ولعل قصة آدم مع شجرة الخلد ترمز إلى هذا التداخل الذي أصبح يقوى شيئاً فشيئاً مما هيأ الله الأرض لاستقبال آلافٍ مؤلفة من الأنبياء والرسل لإحداث حالة توازن بين التوجيهات السماوية والرغبات والأمنيات البشرية التي بدأت تنحرف عن مسارها السليم.

ومن هنا نعلم أن الدين جاء لتصحيح خلل ما في المنظومة الفكرية والنفسية للبشرية، بمعنى أن الدين إنما جاء لخلاص الإنسان.. ولكن مم هذا الخلاص؟

الخلاص من شيئين أساسيين: حب التملك، وحب البقاء والخلود.. وهما شر كل بلاء يقع على البشرية. فحين يعتقد الإنسان أن الحياة دار خلود وليست ممراً وجسراً لمرحلة أخرى، وحين يعمل كل جهده وطاقته في التملك والاستحواذ وجمع الثروات أو ما يعرف اليوم بالوفرة التي تحقق أمنياته يكون قد تثاقل إلى الأرض أيما تثاقل.

قد يعتقد البعض أنه غير معني بهذا الكلام، ولكن حين يراقب نفسه حين ينهار لأتفه الأسباب، وكيف يرتعب من فكرة الموت أو الفقد، وكيف يغضب حين لا تتحقق أمانيه ورغباته، أو حين يخسر شيئاً ما، سيعلم أنه ليس كذلك. فالجميع يريد أن يتخلص من الألم دون أن يختبره أو يستفيد منه، الجميع يريد أن يعيش حالة الدعة والرفاهية وكأنه مخلد في الأرض، ومن هنا تبدأ مشكلة فصل الإنسان عن ذاته الحقيقية.

لذلك من أهم مهام التدين أنه يعلمنا أن الخلود إنما هو للأرواح وليس للأجساد، وبالتالي لا طائل من التملك والاستحواذ فالحياة الأرضية ليست سوى جسر لعوالم أخرى. ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ ومن هاتين الفكرتين تنبع كل شرور العالم من حقد وكراهية وبغض ونفاق وقتل واقتتال ودمار وخراب وانتهاك للحقوق وتعدي على الغير وتسلط وطغيان وحسد وتكبر وتجبر وفرقة وتحزب وطائفية.. وغيرها من شرور كثيرة لا تعد ولا تحصى.

هناك دافع فطري قوي في أعماق الإنسان للبحث عن الله والتقرب منه، لذلك لم تكن مهمة الأنبياء والرسل الأولى

تعريف الناس بالله بقدر ما كانت مهمتهم إزالة العوائق والكدورات التي ترسبت في قلوبهم من حب الدنيا وفكرة الخلود.. فالله والحب والسلام والروحانية حقائق تسري تلقائياً في وعي الإنسان بمجرد أن يتخلص من العوالق، بمجرد أن يكون إناء القلب فارغاً فإنه سيمتلئ بهذه الأمور، ولطالما أكدنا على هذا الأمر في أكثر من مقال. ومن هنا نعرف حقيقة النفي قبل الإثبات في ذكر شهادة التوحيد "لا إله.... إلا الله".

ينبغي أن يتزامن التعريف بالله التعريف بالإنسانية والحياة، فمن عرف نفسه عرف ربه، فحين يعرف الإنسان نفسه ومكوناتها وحقيقة وجوده سيعلم أن فكرة التملك لا طائل منها وأن الخلود مرتبط بروحه لا بجسده المادي سيشعر بتشوق كبير وحنين عظيم للعالم الذي هاجر منه والذي سيرتحل إليه لاحقاً.. سيشعر بوله فياض للإله الذي خلقه وسواه وركبه بالصورة السوية التي يعيش فيها على الأرض.

فمفهوم التوحيد الحقيقي إن لم يخلق باعثاً حقيقياً باطنياً للإنسان فإنه إيمانه سيتحول إلى مجرد طقوس شكلية إجرائية حركية، بينما لو كان الباعث وجدانياً داخليا فإن إيمانه يخلق حالة من الولاء المزوج بلمسات روحانية عرفانية ومشاعرية.

حين نتوجه إلى الدين نتيجة ضغوط خارجية، أو حين نمارس طقوسه دون شعور حقيقي بحاجتنا إليه أو كنوع من التقليد لآبائنا وأسلافنا فإن النتيجة ستكون إما الوقوف على أطلال الحياة وإما التراجع والإلحاد وترك الدين عن بكرة أبيه.

نفرح كثيراً في حفلات لبس الحجاب، حين تصل الفتاة إلى العمر الشرعي لتكون ملزمة بلبسه وارتدائه.. ولكن ما الذي غرسناه في قلب وفكر الفتاة قبل هذه المناسبة؟ ولماذا تنزح الكثيرات منهن إلى خلعه بعد بضع سنوات؟ هل خلقنا الباعث

الباطني والروحي للحجاب أم أننا نسقط تكليفنا الشرعي دون أن نهيئ الأرضية المناسبة له؟

دور الأبوين المهم والرئيسي يكون قبل الحجاب لا أثنائه أو بعده.. الحجاب نقلة نوعية في حياة الطفلة الصغيرة ينبغي أن يكون نابعاً من وجدانها وعمقها الباطني. يجب خلق رغبة ذاتية وتوق عميق في لبسه وهذا لا يحدث بين ليلة وضحاها وإنما بحاجة إلى سنوات طويلة من التهيئة.

قبل الحجاب على الوالدين أن يُعرفوا الفتاة بالله.. بعطاياه.. بقدرته.. بمعيته وحبه لنا.. حين نذكر الله وحبه لنا في كل حدث نمر فيه مع الطفلة الصغيرة.. حين نربط كل جمال نراه بالله.. حين نقصص بين فترة وأخرى قصصاً جميلة ومبهرة عن الله وكيف أنه يلبي حاجاتنا ويستجيب دعواتنا.. حين نغرس في الطفلة أهمية الطلب من الله والالتجاء إليه في الأخطار والأزمات.. حين نحقق بعض رغباتها وأمنياتها ونرجع تحقيقها إلى الله.. حين نقضـي معها أخر عشرة دقائق قبل نومها نحدثها عن الله وكيف أنها تعيش في أحسن حال حين تكون بمعيته، حتى وإن أغمضت عينيها نردد ترانيم ذكر الله عليها.. في هذه الحالة لا يكون الحجاب عبئاً عليها لأنها تكون قد اختبرت علاقتها الخاصة مع الله، فالطفل تكون أبواب روحه مشرعة للملائكة والأرواح الطيبة وهمسات العالم الروحي، علينا فقط أن نوقظه من غفلة التشتت والانشغال الذهني.. فالأطفال أشباه ملائكة من الممكن أن تجري على أيديهم ما نعجز عنه نحن، ومن السهولة أن يحقق الله لهم رغباتهم فيما لو غرسنا فيهم فكرة المعية والحب.

حين تتوطد علاقة الطفلة الصغيرة بالله - بواسطة الأبوين - ستعمل كل ما من شأنه أن ترضي هذا الإله المحب القريب الذي تأنس به وتلجأ إليه، فهذا أقل ما يمكن أن تفعله تجاهه.. لذلك

حين يُفرض الحجاب فرضاً وقهراً دون تهيئة الأرضية المناسبة ثم بعد ذلك نتذمر ونشتكي بأنها غير ملتزمة بالحجاب فالمشكلة تقع في عدم التهيئة المبكرة.

نرجع إلى موضوعنا من جديد..

إن الدين إنما جاء ليعطينا البصيرة في التخلص من الشرور التي تفرزها الحياة الأرضية، ويخلق حالة من التوافق النفسي والروحي بين متطلبات الحياة والتواصل مع العالم الآخر، وبين الأرواح البشرية التي تعيش معنا الآن على الأرض.. ويغذي نهم عقولنا في خلق صورة شبه شاملة وكاملة للحياة، فكلما تعمقنا في الدين أكثر كلما انجلت ظلمات الوهم لأن بصيرتنا حينها تكون مستمدة من الله والعالم الروحي مباشرة، بصيرة لا تحتاج للرجوع إلى أحد ما..

وهذا ما نعنيه حين نقول إن الدين إنما جاء لخلاص الإنسان..

ولكن!

أكبر معضلة.. وأعظم مشكلة حدثت في تاريخ الأديان كلها، حين انفصل الدين عن منابعه الأصلية ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ فأصبحت قيم ومفاهيم الدين تصاغ وفق عقلية بشرية محدودة الأفق، تصل في أوقات كثيرة إلى مخالفة نصوص الوحي المقدس الثابتة، وهذا ما تنبأت به أحاديث آخر الزمان "يأتي زمان على أمتي لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه".. حين طغت الآراء والاجتهادات الشخصية على البصائر القرآنية، ومن هنا نبع الخطر الكبير الذي فرق الأمة وشتت شملها. فالخطر يكمن في الداخل وليس من الخارج. أصبح الدين الذي يهدف إلى إصلاح البشرية أداة للغلبة والمصلحة والمكاسب الدنيوية.. تراث الأنبياء والأولياء أصبح

خاضعاً لاجتهادات مجموعة من الأشخاص يوقعون عن الله ويستحوذون على الآخرين باسم الله ويغسلون أدمغة الناس باسم الدين، ويثيرون الأحقاد والضغائن باسم الدين.

لقد أصبح الدين شيئاً.. ورجال الدين شيئاً آخر.. تعددت أقنعتهم، فقناع مع الله وقناع مع الناس. لم يعد رجال الدين يُعبرون عن دين الخلاص الحقيقي كما أراد الله له أن يكون حتى بات المؤمن القابض على دينه كالقابض على جمر أو لظى لا لغيابه أو ندرته بل لأن ما يُطرح لا يُعبر عن جوهره الإلهي، ناهيك عن العبث في فهم أصوله وتدليس مفاهيمه التي أصبحت لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معايشهم فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون. مما كان له أسوء الأثر في نفوس الشباب الذين جرفتهم تيارات الإلحاد وفقدناهم ولا نزال نفقد المزيد كل يوم لأنهم وجدوا أن ما يُنقل إليهم وما يسمعونه لا يحقق لهم السعادة الطيبة الموعودة التي يتحدثون عنها ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾ لأنهم علقوا في قشور الدين دون جوهره، الدين الحقيقي يكمن في باطنه وجوهره وما طقوسه وشكلياته إلا مرحلة مبدئية لسبر أغواره والولوج بأعماقه.

ومن هنا نفهم المعنى الحقيقي ليوم الخلاص وللإمام المخلص في آخر الزمان الذي سيبين حقائق الأمور ويعيد الدين إلى سيرته الأولى وفق الرؤية الإلهية الكونية ويجتث الحشائش الفاسدة والضارة التي نبتت في تربته.

لقد حذر القرآن بشدة من ظاهرة تغييب العقل الواعي تحت سطوة وسقف رجل الدين لأن الله يعلم أن الركون إليهم سيحول المشروع الإلهي إلى مشروع بشري حين يتم تحويل الدين من علاقة روحية مع الخالق إلى مجرد أداء لطقوس شكلية يتاجر بها من يتاجر باسم الدين أو المذهب. لم تستثني هذه الظاهرة أي دين سماوي، فكلما بعدت الشقة كلما تحول الدين إلى سلعة

تباع وتشترى في دكاكين المنتسبين إليه ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

لقد قرر البابا بونيفاس الثامن وأصدر حكمه قبل ما يقارب من 720 عاما حين قال: "إننا البابا بونيفاس الثامن الآن، نقول، نقرر ونعلن: إنه من أجل خلاص أي مخلوق بشـري، ثمة شرط لابد منه وهو الخضوع للبابا". ولقد تزامن هذا التاريخ مع دعوات أخرى مشابهة أطلقت في عالمنا الإسلامي آنذاك وما تلاها. وبالتالي فليس الأمس بأسوأ حالا من اليوم فما أكثر الأرباب الذين نتمسك بهم من دون الله لتسيير حياتنا ووضع مناهج لها..

الدين يخلق البصيرة.. والبصيرة خلاص للإنسان تهبه نظرة شاملة وشبه متكاملة للمشروع الإلهي على الأرض.. بالبصيرة يعرف الإنسان موطئ قدمه، يعلم مستقره ومنتهاه، يعلم تراتبية الأحداث التي تتداول في حياته.. ولكن كيف نحظى بهذه البصيرة مع غياب العقول المبصرة للعديد من رجال الدين الذي يعيشون على هامش طقوسه؟ بمعنى.. أن فكرة خلاص الإنسان تقوم على أمرين مهمين وأساسيين:

الفكرة الأولى: أن يكون للحياة هدف جوهري وأساسي تندرج تحته مجموعة أهداف فرعية أخرى.

الفكرة الثانية: الخوف من فقدان هذا الهدف وبالتالي تقهقر حياته إلى مستوياتها الدنيا.

وكلا هذين الأمرين غير مدرجين ضمن أولويات عمل المؤسسات الدينية التي تركز فقط على نقل التراث والتاريخ وجانب محدود من الأخلاقيات دون وعي وتمحيص وإدراك بل وتعتبرهما - الفكرتين - من أمور الترف الفكري غير المكلفة بها شرعاً وينبغي ألا يلتفت إليهما المؤمن.. فالدين برأيهم يدور في

رحى الأوامر والنواهي والاستنباط الشرعي للفرائض كالصلاة والصوم والحج.. وغيرها من أمور مشابهة. في حين أن هاتين الفكرتين هما ما يخلقان حاجة الإنسان إلى الدين، وبدونهما لن نجد ما يثير اهتمامنا للدين ويجعلنا نبحث في مفاهيمه وغاياته وأهدافه ليل نهار.

غياب العقول المبصرة لحقيقية الدين مشكلة كبيرة.. إلا أن الأكثر منها مرارة وخطيئة أنهم وضعوا سقفاً لا ينبغي لأحد من بعدهم أن يتجاوزه أو يصل إليه.. لا تقل بما لم نقله، فهم لم يغيبوا حقائق الدين عن عقولهم وإنما فرضوا على الآخرين كذلك هذا التغييب.. وضعوا صراطاً ومحجة من سار عليها نجى ومن تخلف عنها هوى وهلك.

إذن.. أين السبيل وإلى أي وجهة نشد الرحال؟

لا تعول إلا عليه.. تصل إليه

قف مع نفسك وقفات مطولة.. تفكر، تأمل، واعلم جيداً وبيقين أن طريق الخلاص يبدأ من أعماقك، من قلبك.. تغافل عما سمعته أو تعلمته سابقاً من أن البصيرة تأتي من آخرين أو من الخارج وأن قدرة التغيير تأتي بوحي من بعض رجال الدين، لا تنتظر أحداً كي يفتح لك باب المؤانسة أو يحدد منهجك في الحياة أو يرسم خارطة طريقك.. حتى القرآن اقرأه أنت بنفسك، لا تقرأه بأنفاس غيرك، اقرأه وكأنما قد نزل للتو من السماء. اطلب من الله المدد كي يفتح لك باب العلم فهو القائل ﴿ويعلمكم الله﴾ ولكن متى؟ حين نصل إلى حالة من الشفافية والروحانية - التقوى - ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

تبصـر بكتاب الله العظيم وبرسوله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وبأرواح الأولياء الطاهرة فهم أحياء عند ربهم

يرزقون.. عش حالة الغربة الروحية والمعرفية فترة من الزمن، فهي فترة الفراغ الذي سيمتلئ فيما بعد بما تريد معرفته.. عش حالة الغليان المشاعري والفكري حالة التساؤلات التي تؤرق فكرك ووجدانك، فمن غير أن تصل إلى درجة الغليان لا يمكنك أن تحلق عالياً..

لا تنتقل من الغث والضعيف إلى ما هو أكثر غثاثة وضعفاً منه، فهناك من يجد في دورات وأمسيات التنمية البشـرية بديلاً عن الخطاب الديني.. الدورات التي جذبت بقانون الجذب أموال المتدربين وزادت أرصدة المدربين اكتنازاً ووفرة. أو أمسيات تطور الوعي الروحي التي امتلأت بها مواقع اليوتيوب ووسائل التواصل الاجتماعي، فالجميع أصبح عارفاً ومدرباً وحكيماً وروحانياً وهم يجهلون أبسط مبادئ الروحانية في ألا يكونوا ماديين متملكين يقولون ما لا يفعلون وما لا يعلمون.. ففاقد الشيء لا يعطيه.

"إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء الذي يصلحون ما أفسد الناس من بعدي" والغربة هنا ليست غربة أناس وأشخاص وأعداد وإنما هي غربة مبادئ وقيم وفهم حقيقي لحكمة الدين في الحياة.. مما يؤكد أن ما يتباهى به البعض سواء من الكثرة العددية أو الأحقية والأفضلية المذهبية ليست هي ميزان الحق الجلي ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ﴾ كما أن الشعائر الشكلية هي الأخرى ليست علامة يعول عليها فـ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

الله يعلم أن هذا سيحدث.. لذلك أودع في الإنسان وسيلة اتصال مباشرة تمكنه من الاتصال بعالم الغيب على اختلاف مستوياته، وحتى تُفعل هذه الوسيلة ينبغي أن تزيل عنها موبقات النفس - حب التملك والبقاء والخلود - وأوهام الأفكار المشوشة - معتقدات ما وجدنا عليه آباءنا - حينها سيجلو الله

بصيرتك التي ستكون سبب خلاصك من شقاء الحياة وتمنحك هبة العيش في العالمين في آن واحد.. العالم الروحي والعالم المادي وهو غاية ما يريد الدين تحقيقه من وجود الإنسان الأرضي. وبالتالي لا عذر للإنسان.. مهما تشعبت به السبل وأحاطت به المفاهيم الخاطئة وعاش في بيئة غير واعية من أن يكون متديناً مؤمناً وروحانياً ما دام باب الاتصال السماوي مفتوحاً..

أراك مهموما..

لا أعلم كم من الوقت مضي وأنا أترقب النجوم في ليلة خلت من أية إطلالة للقمر.. فكل شيء يسبح في ظلام دامس ماعدا حبات لؤلؤ ترصع عباءة السماء السوداء.. كان للهدوء سلطاناً فرض سيطرته وهيمنته على المكان سوى صوت خفيف لأمواج البحر الهادئة..

أتمعن في النجوم تارة.. وفيما يحيطها من ظلام تارة أخرى، وكأني أعيش لحظات ما بين الحقيقة والفناء، الوجود والعدم، النور والظلام.. وفي كل نقلة أشعر كأن شيئاً ما بداخلي يزداد سكوناً وصمتاً، حتى كأن السماء أصبحت ذات لغة مجردة من كل أبجديات الحروف ما عدا الصمت.

شعرت لوهلة بأن صمت الكون يمتص كل ما بي من ألم ومعاناة وانكسار عانيته من قسوة الحياة ومرارة العيش.. وكأن أمواج البحر حين ترمي بنفسها على الشاطئ تجردني من همومي وأحزاني لتعود أدراجها من حيث أتت.. حتى بت أشعر بخفة في جسدي وروحي وكأن أثقالا قد أزيحت عن كاهلي.. فقدت إحساسي بجسدي المرتمي على الشاطئ.. حينها أدركت أن شيئاً ما قد حدث أو يوشك أن يحدث..

أحسست كأن السماء تكاد تنطبق على الأرض وأن المياه أصبحت جزءا من السماء وأن النجوم باتت قريبة مني حتى

كأنها تلامس جسدي.. اختلط كل ما كنت أراه أو أشعر به.. امتزج سمعي ببصـري بإحساسي، أصبح البحر كالسماء، وكأن النجوم تسبح فيه وأمواج البحر كالغمام يحوم حولي، أما رمال الشاطئ فتحولت إلى حبيبات تنبض بالحياة..

لم أفقد إحساسي بجسدي فحسب.. بل فقدت إدراكي بالمكان والزمان.. فقدت إدراكي بنفسي فلم يعد عقلي حاملا لأية أفكار.. لم أعد أفكر.. لقد فقدت قدرتي على التفكير..

وأنا في تلك الحالة سمعت صوتاً لا أعلم مصدره هل هو من أعماقي أم من الكون والفضاء.. أم من.. لا أعلم.. صوت أكاد أفطن إليه بسمعي وبصـري.. كيف أدرك صوتاً ببصـري؟.. بل إني أدركه وأفهمه بكل كياني الذي بت لا أشعر به..

سمعته يقول:

"أحيانا نصل إلى مفترق طرق في الحياة.. حتى نظن أنها النهاية، فنعيش حالة إحباط وكآبة حين تنهال علينا الأزمات والمشاكل والمنعطفات الخطيرة.. ولكن ثق أن لدى الله رؤية أوسع بكثير مما تعتقد، فهو يعلم أن ذلك مجرد منعطف في المسير، وليس هو المسير.. وقفة على قارعة الطريق وليس الطريق.. ولكن بعد أن تتوقف وتدرك نفسك وتسترخي وتتقوى وتدع الله يشاركك في حملك، ستعلم أن ما تعانيه وما وصلت إليه مجرد منعطف في الطريق سرعان ما تتجاوزه.

حين تغيب عن بصيرتكم أنتم البشر الصورة الشاملة تعتقدون أن كل أزمة وكل منعطف وكل بلاء هو نهايتكم، كمن يجعل من سقوطه أو إخفاقه في اختبار ما أنه قد سقوط وفشل في الحياة".

حين سمعت هذه الكلمات أدركت أنها تخصني، فأنا أعاني من أزمات كبيرة في حياتي لا أجد نفسي قادراً على تحملها، بل لا أجد أحداً بمقدوري البوح له بها.. لذا وجدتها فرصة سانحة

فقد وجدت من يشاطرني سريرتي وقد يجيب عن تساؤلاتي.. لذا، وبلا صوت، وبنفس الطريقة التي أدركت فيها ما قال، أجبته: "ولكن المنعطفات صعبة وأليمة وقد تؤدي بحياة الإنسان إلى التعاسة والشقاء، وقد تنهي حياته نتيجة الحسرة والكمد؟".

أجاب: "من يعتقد أن الحياة سهلة بسيطة لا يفقه حقيقة الحياة.. الحياة صعبة بالتأكيد ولا جدال في ذلك.. لذا يفتش البعض عن طرق ووسائل كي يتخلص من هذه الصعوبات.. فهو يريد أن يُسيرّ الحياة وفق إرادته ومشيئته وبالطريقة التي يريدها، وهو لا يعلم أن هذه الصعوبات ما وجدت إلا لكي تؤسس بنيانه من الداخل..

هل كان بمقدور النبي ﷺ أن يكف بأس قريش عنه حينما كانوا يلقون علي جسده الطاهر الرفث وهو يصلي في الكعبة المشـرفة؟ هل رأيت كيف تورمت قدماه وسالت دماؤه الطاهرة حين هاجر إلى الطائف يطلب النصرة..؟ هل تعلم كيف عاش في أحلك الظروف في عام الأحزان حين توفت زوجته وكفيله؟ هل تعلم ما كان شعوره وقد تكالبت العرب على قتله ليلة هجرته؟

ألم يكن بمقدور النبي أن يحسن من هذه السيناريوهات في حياته بقدرته الذاتية التي منحها الله إياه؟ أو أن يطلب من الله أن ينقله من حال إلى حال؟ أوتعتقد أن الله سيرفض طلبه؟ بالطبع كلا.. ولكنه أراد لمشيئة الله أن تسري فيه، وأن ترتبط مشيئته بمشيئة الله.. فكل ما يحدث له إنما هو بعين الله.

فما لكم بني البشر سرعان ما تهربون أو تتأففون أو تنتكسون على أعقابكم بمجرد أن تلم بكم معضلة أو تصيبكم محنة، أو تنزل بكم ضائقة. فالجميع يريد أن تجري أموره وفق ما يريد، وأية عقبة أو منعطف في طريقة يعتبره خروجاً عن السيناريو الذي رسمه لحياته..

صحيح أن الحياة صعبة.. ولكن الصعوبة هي السبيل الوحيد للحكمة والبصيرة.. فكما أن الذهب لا يخلص وينقى إلا بالنار العالية، وكما الفحم لا يتحول إلى الألماس إلا من خلال الضغط العالي، كذلك الحكمة لا تتحقق إلا من خلال المعاناة والصعوبات في بداية الطريق، وحين تعيش وعي الروحانية ستنجلي المعاناة شيئاً فشيئاً لأنك ستدرك حقيقة ما تواجهه، وستعرف لماذا تحدث لك هذه المنغصات وستعلم كيف تتقبلها والطريق للتخلص منها.

عندما يرى الله أن هنالك حاجة لديك للخروج من وضعك الحالي، لتغييره نحو الأفضل، لتقترب من هدفك الحقيقي أكثر، يضع في طريقك معوقات وابتلاءات، ويجعل حياتك غير مستقرة. وحين يحدث ذلك، تبدأ بالتساؤل عن علة تغير حالك ولماذا أصبحت غير مريحة، وعن سبب هذه المنغصات التي تعترض طريقك.. وعندها سوف تنتبه أن ثمة أمر ما ينبغي اكتشافه، فتلجأ إليه وتدعوه لكي يساعدك على تحسين حياتك ويكشف لك عن وضعك ومكانك في سيناريو هدفك الحقيقي.

وبالمناسبة.. لو كان كل شيء على ما يرام في حياتك، هل كنت ستفكر أن ثمة هدف لك في الحياة ينتظر منك أن تقوم بتحقيقه؟

سألته: "وهل ينبغي أن نعيش حالة المعاناة حتى نصل إلى هذه المرحلة من الوعي؟".

من السهل أن تعيش حياة ميتة لا طائل منها سوى اللهو والمتعة والاهتمام بالقشريات والمظاهر الزائفة، ولكن من الصعب أن تكون حياتك ذات هدف ومغزى ورسالة. وفي هذه الحالة لابد من نقلة نوعية في حياتك، لابد أن تزيد تواصلك مع الله لتعرف هدفك ورسالتك..

تلك الجروح التي تعاني منها ما هي إلا فتحات ينساب منها النور إلى حياتك الجديدة.. هي جروح في نظرك البسيط ولكنها منافذ للتواصل إن استطعت أن تفهمها جيداً..

هناك من يتماهي مع المعاناة والضعف فيتقمص دور الضحية ويبدأ في التذمر والتبرم والسأم والشكوى والمعاناة، وحينها سيكله الله إلى نفسه، لأنه سيكون مشغولاً بنفسه، لا يسمع إرشاداته ولن يعرف طريق المخرج والفرج، سيبقى في دائرة مغلقة كطاحونة الرحى.

ولكن هناك من يفجر قوته من الضعف، فثمة قدرة خارقة تكمن في الألم، وهذا ما لا يفهمه الناس.. فأثناء الضعف والألم تتجلى قوة الله فينا كأفضل ما يكون.. حين تتضاءل قوة النفس يضـيء نوره العظيم بأعماقك.. شريطة أن تقبل برضا وامتنان السيناريو الذي وضعك فيه.

حين كنت صغيراً.. هل أصبت في يوماً ما بجرح أو ألم..؟ هل سقطت من السلم والتوت قدمك ولم تكن تستطيع النهوض؟ ما فعلت حينها؟ هل استغثت بوالديك، ناديتهم بأعلى صوتك طلبت منهم الحضور، بالتأكيد سوف يجيبونك، ولأنك أخبرتهم بألمك فسوف يقولون لك: "ابق حيث أنت.. لا تتحرك.. سوف نأتي لنساعدك".. وهذا بالمثل ما يقوله الله لنا حيث نكون في منعطفات خطيرة في حياتنا: "أبق حيث أنت سأكون هناك معك" وحينها نشعر بحضوره وقربه منا، يتحول إيماننا النظري الذي تعلمناه من الكتب والمنابر إلى واقع حقيقي، بحيث يثبت في قلوبنا حين صدقناه بعقولنا، أي أن إرادته وقوته تتجسد معك حين تكون في وقت الشدائد والأزمات..

الله يقول لكم: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ ويقول كذلك: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ ولكنكم غير مدركين لهذه المعية وأهميتها في حياتكم.. تعتقدون بها كفكرة أو كعقيدة ولكنها

غير مفعلة في حياتكم. قد تكونوا سمعتموها أو قرأتموها في مكان ما، ولكن دون أي تجربة روحية حقيقية في حيثيات هذا القرب وهذه المعية.

لذلك بعض هذه المنعطفات والأزمات التي تحدث في حياتك تهدف إلى أن الله يريد أن يلفت نظرك نحوه ويشعرك بضـرورة التوجه إليه خصوصاً حين تسد كل الأبواب بوجهك.. وعندها تذكر هذه الحقيقة وانقشها في ذهنك وتمسك بها بثبات إنه حاضر وقريب معك.

والقرب والحضور لا يعني كما يتخيله البعض أنه يراقبنا ويراقب تصرفاتنا وأفعالنا فقط.. الله يفعل ما يتخطى المراقبة وما تعجز العقول عن إدراكه لنا، فهو عارف بوقع الحدث والمأساة، محيطٌ بكل وقائعه وجزئياته، عالمٌ بنهاية السيناريو الذي نمر به، وطرق خلاصنا منه أو البقاء فيه.. وعلى الرغم من علمه بهذا فهو يجارينا في كل لحظة وفي كل موقف يتفحص درجة استطاعتنا وإمكاناتنا وسعتنا، فمهما اشتدت بنا الأزمات ينبغي أن نعلم أنه لا يكلفنا ما لا طاقة لك به.. ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا.. ﴾ بمعنى أن ما نراه عبئاً ثقيلاً ومأساة قاسية، هو يعلم أن بمقدورنا تحملها، لأنه أعلم بنا من أنفسنا من ناحية..

ومن ناحية أخرى هو يعلم ما ستؤول له النهاية، فيعلم أننا سنخرج من هذا المنعطف لا محالة. ولكن لأن نظرتنا ضيقة ومحدودة فسرعان ما ننهار لأتفه الأسباب.

سألته: "هل يعني هذا أن أعيش حالة الرضا على الدوام؟".

الأمر أكبر من الشعور بالرضا.. فهذا الشعور مقدمة لأمور أهم بكثير.. ينبغي عليك أن تثق بأن لله خطة أوسع بكثير من تصورك الشخصـي، فهو لا ينظر للحدث الآني فقط وإنما

لمسيرة حياتك بأكملها.. وهذه الثقة تجعل من حركتك في الحياة مغزى وهدف، ففي كل مرحلة أسأل نفسك: ماذا يريد الله منى إذ جعلني في هذا الموقع الآن ولأي شيء ابتلاني بهذا الأمر. هل لشـيء ينبغي عمله أم نتيجة لأفعال سيئة صدرت منك أم لارتباط هذا الأمر بشـيء ينبغي اختباره وتجربته.

أن تشعر بالرضا أمر في غاية الأهمية.. ولكن أن تسأل الله وأنت في حال الرضا عن سبب وجودك في هذا الحدث أو البلاء أو المكان، هنا أنت تدخل إلى خصوصية أهدافك التي تتطلع إليها..

ولا يسأل أو يتفقه في هذه الأسئلة إلا الصنف الثالث من الناس.. فالناس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

الأول: هم الذين يتذمرون دائما.. حياتهم سلسلة من الشكوى والتأفف. لماذا يحدث هذا لي؟ لماذا يسلط الله عليّ أنواع البلاء؟ لماذا كلما أخرج من مصيبة أقع في أخرى؟ يلعنون الساعة التي ولدوا فيها، يلعنون الزمن والأيام.. ويرون أن الله سبب معاناتهم فينهالون عليه بالعتاب واللوم بمجرد أن يقعوا في مشكلة ما أو منعطف في حياتهم.. لقد نسوا كل ما أنعم الله به عليهم في حياتهم من خيرات وبركات وأمور سارة وسعيدة. والمؤمنون منهم بعد أن ينتهوا من سرد كل الشكاوى وتفصيل كل الوقائع والأحداث المأساوية يقولون الحمد لله على كل حال.. وهل بقي من الحمد شيئاً؟.

الثاني: هم الذين ينهارون جراء البلاء والمنعطفات والأزمات، نتيجة لنظرتهم القاصرة وثقتهم المزلزلة بالله. يعتقدون أن ما يحدث لهم أمر محتوم لا مفر منه ولا يد لهم فيه، وأن حياتهم ينبغي أن تسير على هذا النهج، فتثبط همتهم وتخور عزيمتهم عن المعرفة، ويقل تعلقهم بالله، فتصبح علاقتهم به أشبه بعلاقة

الحاكم بالمحكوم، كأمر واقع عليهم لا علاقة له بتطور أرواحهم ونموها ونضجها.

الثالث: هم الذين وعوا الصورة الأشمل للحياة واستشفّوا بصيصاً من خطة الله لهم، وعلموا أن ما من شيء إلا وله سبب وغاية ومقصد. وبالتالي مهما كانت المعاناة قاسية فهي لأجل هدف معين.. إما أن يكون لأجل اختبار شيء ما، أو لأجل ردة فعل لعمل قاموا به، أو لأجل أنه مقدمة لشيء آخر أكثر أهمية، أو لأجل تعديل وتشذيب بعض الصفات السلبية العالقة بهم. وفي كل هذه الحالات يكون الهدف فيها تطور أرواحهم لتكون أداة تحقق مقاصد الله في أرضه.. فالله يريد أن يعلمنا ويدربنا في واقع عملي ما لا نستطيع تعلمه بأية طريقة أخرى..

قلت له:

ولكن كيف نستطيع أن نميز فيما إذا كان الابتلاء الذي نعانيه نتيجة أعمالنا السابقة أو نتيجة لصفات يريدنا الله التخلص منها، أو نتيجة لتمحيص واختبار سمة أخلاقية معينة؟

ينبغي أن تؤمن إيمانا راسخاً أن الله لا يسمح بأي ألم بلا غاية أو هدف من ورائه.. فالله لا يريد لعباده التعاسة والشقاء والألم. فالأب لا يفكر ولو للحظة أن يقسو على ولده حين يطلب منه أن يتعلم أو يدرس، أو حين يطلب منه أن يفرش أسنانه حتى لا تصاب بالتسوس، أو أن يأكل لينمو ويكبر، قد يراها الابن نوعاً من القسوة لأنه لا يعلم عاقبة الأمور، ولكن الأب يقوم بهذا بدافع الحب والرأفة والرعاية لولده.. لأنه يعلم. ولو تمعنت في مجمل الابتلاءات والمشاكل والأزمات لا تجدها تخرج عن عدة أمور:

1- الجهل:

فجهلك قد يرديك سبل المهالك.. ابتلع أقراصا من الدواء تجهل مكوناتها واستخدامها ستجد نفسك على سرير في مشفى إن لم تفارق الحياة..

فكثيراً من الأزمات والمشاكل - وما نعتقد أنه ابتلاء - سببه جهلنا بالشيء. كثيراً من الأمراض سببها الجهل المركب بالتغذية الصحية، وكثيراً من حالات الطلاق سببها الجهل بفنون الحياة العائلية، وكثيراً من الأمراض النفسية سببها جهلنا بالمكونات النفسية وعلاجها، وكثيراً من الخلافات الاجتماعية سببها جهلنا بفنون المداراة وحسن الإصغاء والحب.

حين يضع طفلك يده على النار لا شك أنها ستحترق لأنه يجهل قانون الاحتراق، أما أنت فلا يمكن أن تقوم بهذا العمل..

وكل هذه الأمور ندرجها نحن في خانة الابتلاء، في حين أنها نتيجة الجهل وعدم الوعي والانتباه، ولأننا لا نريد الاعتراف بجهلنا نعلقها على شماعة الابتلاء، وأن المتسبب بها هو الله سبحانه وتعالى..

ولكي تتفادى هذه النقطة عليك أن تنتبه لكل خطوة تخطوها في الحياة.. اجتهد أن تكون حركاتك وأفعالك واعية فاحصة متأنية، فما من حركة إلا وينبغي أن يسبقها علم ومعرفة. لا تكن كالتائه مغمض العينين، بل تفكر وتعلم وانتبه وافهم لكي تخلو خطواتك من الهفوات التي تسبب لك المشاكل والأزمات.

2- ردة فعل

قد تكون منتبها حريصاً وذكيا في تعاملك مع مختلف الأمور، ولكنك ترتكب أخطاء بحق غيرك أو بحق مخلوقات الله المختلفة.

ولأن سلوك الإنسان سواء كان العملي أو الفكري يخضع - كما يخضع كل شيء - لقانون المادة الذي ينص على أن كل فعل له

ردة فعل تساويه في القوة وتخالفه في الاتجاه، فإن سلوكه غير السوي تجاه الآخرين سوف ينعكس عليه طال الزمان أو قصر.

فحين نظلم، نغتاب، نحسد، ننهر، نتسبب في الفرقة، نسب، نلعن، ننافق، نأكل أموال الآخرين، نتمنى لهم السوء.. وغيرها من أمور لا تذهب أدراج الرياح، فما تسببت به من أذى سيعود إليك بقوته وشدته سواء بصورته أو بصور أخرى..

لذا ينبغي أن تراقب نفسك جيداً في كل ما تفعل وعلى الخصوص في تقييمك وتبجيلك للآخرين وتقديرهم وعدم النيل منهم، وينطبق هذا على الحيوان والنبات والأشياء كذلك. قبل أن تتفوه بأية كلمة ضع نفسك مكان الطرف الآخر وفكر هل سيؤلمه ما ستقول أم تختار صيغة أخرى هي الأقرب إلى قلبه.

3- لست كبيراً لتمشي وحدك

يتحين الله لحظة ضعفك ليمدك بالقوة والمنعة والنور وليرشدك الطريق..

حين يعتقد الكثير من الناس بأنه قد كبر بما يكفي ليسلك السبيل وحده.. يعتقد أنه يعلم كل شيء وقادر على كل شيء، وبمقدوره أن يحقق كل شيء، وأن تتجلى وتتحقق له أمنياته في كل شيء.. شخص كهذا يكون موصد الأبواب مع الله.

الأزمات توقظك من غفلتك وتنزعك من أناك (أنا) التي تعتقد باكتفائها عن الله.. لا يمكن لقوة الله أن تلامس روحك وكيانك مادام وهم الأنا يعتقد بأنك قد كبرت على المشي وحدك وبمقدورك أن تسلك طريق الحياة وحدك. شعورنا بالضعف أمام الله هي القوة الحقيقية.. لأنه لن يدعنا بالتأكيد في حالة الضعف هذه بل سيمدنا بينبوع القوة منه تبارك وتعالى.

لذا قد ترى البعض ممن يرى نفسه وقد حقق الإنجازات الباهرة.. تسير أموره على أكمل وجه وكما يريد ويخطط..

حياته آخذه بالنمو والازدهار.. وفجأة يحدث ما لم يكن في الحسبان وتنقلب الأمور رأساً على عقب، ويكون وقعها عليه كالصاعقة أو الكارثة التي أفسدت كل شيء قد بناه.

يبدأ عندها بالتذمر والسؤال: لماذا يارب حدث ذلك؟ لماذا حدث لي أنا شخصياً دون غيري؟ لماذا الآن وفي هذا الوقت؟ لماذا وقد كانت حياتي كأفضل ما يكون؟ لماذا.. لماذا.. في حين حري به أن يسأل (ماذا) بدلاً من لماذا. أن يسأل الله ماذا تريد مني أن أعمل؟ ماذا تحاول أن تعلمني؟ ماذا أستفيد من واقعي الجديد؟

الله يريدك أن تعود إليه من جديد.. وأن تدرك أنك لا تستطيع أن تمشي في حياتك بمعزل عنه ودون الاتكال عليه حتى لو تعلمت علوم الأولين والآخرين. لذلك هو يدعوك لتعود إليه وفي نفس الوقت يشذب أغصان الأنا التي تفرعت منك، والتي جعلتك تتوه في طريقها وتعتقد أنك ستهنأ بمعزل عن الله.. وهذا ما تفعله الأزمات والابتلاءات التي تمر بها. فهي كالمنجل الذي يقطع الأغصان المتفرعة لكي تنمو الشجرة بشكل رأسي عالياً نحو السماء..

4- طلب المزيد

هناك من يرى نفسه ترساً في آلة الحياة لا شيء يلفت انتباهه فيها سوى العمل وتكديس الأموال وجمعها.. يبذل كل وقته وجهده ليستمتع بما جناه من مكانة وسمعة وحياة مترعة بكل أصناف المتع.

الله لا يمقت الغنى والتمتع بزينة الحياة.. ولكن في نفس الوقت يريد من الإنسان أن يتوجه إليه ويتعرف عليه وينمي روحه كما ينمي أمواله. عادة ما نطلب المزيد والمزيد وهذا طبع الكائن البشري.. أنتم تبحثون.. وتقضون حياتكم في البحث عن المزيد.. وكأنكم ستخلدون في الأرض..

البعض يملك أموالاً تكفيه لألف عام أو أكثر ولا يزال يجمع المزيد.. أنتم تجمعون أكثر مما تحتاجون.

والبحث عن المزيد يسبب الألم ويدخلك في معاناة، ويبعدك عن هدفك في الحياة.. ففي معترك الصــراع وأثناء بحثك عن المزيد ستواجه العديد من الأزمات والصعوبات والمشاكل والمنعطفات التي من الممكن أن تتجنبها ولكنك تدرجها في خانة الابتلاءات التي تعترضك وهي ليست كذلك.

قد يمنعك الله من أمور لأنه يريدك أن تتفرغ للبحث عنه ولو استطعت أن تمسك بطرف الخيط الذي يدلك عليه ستكون أسعد أهل الأرض، وستكتفي بالقليل ولو عرضت عليك أموال الدنيا كلها..

أما ترى أن أغلب الأغنياء يصرفون أموالا طائلة في علاج أنفسهم من الأمراض في أرقى المصحات.. تارة تكون هذه الأمراض منعطفات وإشارات لكي يدركوا أن ما يقومون به قد وصل حد التشبع والاكتفاء.

لذا توقف في إلقاء نفسك في تهلكة الرفاهية وجمع الأموال.. لا تنظر إلى من هو فوقك فترهق نفسك. ثق أن ما تملكه يكفيك، ولا تدخل نفسك في طاحونة الحياة فلله حق عليك أن تتعرف عليه أكثر ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ مشكلتنا أننا إذا فرغنا نبحث عن عمل آخر يشغلنا، في حين أن الله يدعونا لننصب بين يديه ونتفرغ له.

لذا لا تفتح على نفسك بابا أنت في غنى عنه.. وتوجه إلى من بيده ملكوت السموات والأرض يرزقك كيفما يشاء وبالقدر الذي يريد.

5- العلم بشيء ما واجتيازه

هناك اختبار لأمر ما ينبغي أن تجتازه، فقد يمنعك الله من المال لأنه يريدك أن تختبر حالة التقشف والحرمان لينظر ماذا تفعل، هل ستبقى على عهدك معه أم تنقضه. قد يضعك في مكان تصطدم فيه مع شخص غضوب سريع الانفعال لينظر ماذا تكون ردة فعلك تجاهه وكيف ستتعامل معه. قد يرزقك بطفل مريض لينظر قدرة تحملك وصبرك ورعايتك..

قبل أن تنزل للحياة الأرضية كتبت عهداً وميثاقاً بأنك ستجتاز العديد من الأمور وستتحلى بالعديد من الفضائل، وحتى تحقق هذه الأمور ينبغي أن تكون في المكان المناسب لتحقيقه.

لذا ينبغي أن تنظر لكل حدث في الحياة على أنه مسرح تمثيل.. قاعدة اختبار.. فهناك شيء ما ينبغي أن تقوم بدوره، وقيمة معنوية ينبغي أن تكتسبها من واقع ما أنت فيه. فكل مشكلة وكل أزمة وكل ألم يريد أن يعلمك شيئاً ثمينا في الحياة، لا تخرج منه إلا وقد تعلمت الدرس جيداً..

تارة يظهر الله صفاتك السلبية من خلال غيرك، فتجدها في زوجتك، ولدك، صديقك، رئيسك في العمل. يريد الله أن يريك صورتك من الخارج، وتكون أنت الذي يعاني منها لتعرف كم يتألم الناس من صفاتك التي ينبغي عليك أن تتخلص منها.. فعادة لا يرى الإنسان صورة نفسه الحقيقية ويعتقد أنه غير ذلك.. فحين تراقب تصرفات غيرك أسأل نفسك هل هناك ما ينبغي أن أغيره في نفسي. فقد تتأذى الزوجة من معاملة زوجها لأنها تجد نفسها في غاية الكمال، في حين أن هذا الزوج ما جاء في حياتها إلا ليريها الصفات التي لابد أن تتخلص منها، أو تتطور من خلالها، ولولاه تبقى حياتها دون أن تتغير أو تتقدم..

قلت: وهل ستبقى على هذا الحال كثيراً؟

ليس الهدف أن يقاسي الإنسان المعاناة والالم، فالله لا يريد له ذلك، بل هو يسرع عملية خروجه من الأزمات؟ لذلك بمجرد

أن تنتبه – المرأة - لحقيقة الصفة التي لابد أن تتخلص منها وتتعلم الدرس جيداً.. سيتغير الزوج، أو سيختفي من حياتها من تلقاء نفسه.. ولكن إن طلبت الفراق والانفصال ولم تلحظ نفسها فسوف تعيد الكرة مرة أخرى، وهكذا مراراً وتكرارا..

والدروس التي نتعلمها ونستوعبها من الأزمات والمنعطفات هي ما تؤسس شخصياتنا وتزيدها وعيا ونضجاً، فالجوهر يتشكل من صميم المشقة.

والإنسان الذي يعيش حياة خالية من الهم، بلا مشاكل أو تجارب أو ليال مظلمة تعانيها النفس، هو إنسان سطحي لا يعلم فقه الحياة.

6- دعوته لك

مالم تشتمل الحياة على المعاناة والألم التي يتحول فيما بعد إلى وعي في أعماقنا، فإننا لن نتوقف أبداً لنتعرف بوعي على ذواتنا الحقيقية أو لنصغي إلى توجيه وإرشاد الله لنا..

حين تكون في مطار ما.. وتكون مشغولاً بحاجياتك وأغراضك.. وفجأة يثير انتباهك صوت في الميكرفون يعلن عن الاستعداد للرحلة.. لقد كنت مشغولاً ولكن فجأة انتبهت لصوت المناداة عن الرحلة.

دون أزمات ومنعطفات ومنغصات ومشاكل نكون أشبه بالمسافر المنشغل بحاجياته وأغراضه دون أن يعلم بضرورة توجهه لبوابة الإقلاع.. الله سبحانه وتعالى ينبهنا بالعديد من الطرق والوسائل - عن موعد الإقلاع - والرجوع إليه والتواصل معه لحل هذه الأزمات. الله يطرق أبواب قلوبنا وأرواحنا من خلال الابتلاءات التي نمر بها، ليقول لنا ها أنذا فإني قريب أسمع دعوة الداعي إذا دعان.

دون المنغصات سنمضي قدما بسرور ظانين أننا ذاهبون إلى مكان ما، ولكننا في الحقيقة ندور في رحى لا نحرز أي تقدم

نحو الأمور الأعمق التي يريدنا الله أن نختبرها في الحياة. يسمح لنا أن نتعثر في طريق رحلتنا اليومية، فنحن كالجرحى والألم يغمرنا، غير أن ما نظن أنها جراح هي عكس ما تبدو عليه، هي توثيق محبتنا لله الصادقة والحقيقية التي تعلمنا وتجعلنا أقوى بكثير مما نحن عليه.

من يعيش على ضفاف الأنهار أو البحيرات لا يعرف الكثير عن الأمواج العاتية والعواصف القوية، أما من يمخر عباب البحار والمحيطات فيري عجائب قوة وقدرة الله.. هذه القوة لا يراها إلا من يخوض غمار الابتلاءات حين تخرجه قوة الله من سطوة الحرمان والعوز والفاقة.

في هذا النوع قد يجد المؤمنون العديد من العراقيل أمامهم، هم يعلمون أن الله من وضعها في طريقهم.. لا ينظرون إليها كمشكله أو كمصيبة أو كارثة.. بل يتعاملون معها كمهمة وكنقلة نوعية في حياتهم..

فقد يسقط جدار منزله فبترت ساقه.. وحين يستيقظ في المشفى يبتسم ويعلم أن ثمة مهمة جديدة في حياته عليه القيام بها..

قد يُسجن بريئاً دون ذنب، فيعلم أن له مهمة خاصة لنزلاء ذلك السجن.. ولذلك يدخله دون مبالاة..

بل قد يضع الله في طريقك أناسا يزعجونك لا لشيء، إلا لأنه لا يريدك أن تسكن وتطمئن إليهم، لذلك قالوا: "إنمَّا أجْرى الأذى عَلى أيْديهِمْ كيَْ لا تَكونَ ساكناً إلَيْهِمْ. أرادَ أنْ يُزْعِجَكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتى لا يَشْغَلَكَ عَنْهُ شَيْءٌ".

الله يرسل رسائله إليكم بالأقدار التي لا تعرفون مغزاها تارة، وأخرى بإلهام الأفكار، وأخرى بإرشاد الأشخاص المقربين، وتارة بمن تعتبرهم أعداءك وتسببوا لك بالمعاناة والألم. فقد يضع

الله أمامك أناسا يزعجونك كي تتعلم أن تكون متقبلا أكثر، غفورا أكثر مليئاً بالرأفة والرحمة.

هل تعلم ما الفرق بين النبات الذي يزرع في بيئة راكدة هادئة وبين تلك التي تزرع في بيئة تتخللها رياح عاصفة أو ممطرة؟

أجبته: لا

أجابني: الأشجار التي تزرع في بيئة عاصفة تكون جذورها قوية وتمتد إلى مسافات كبيرة تحت الأرض، بينما التي تزرع في بيئة هادئة تكون جذورها قصيرة لعدم حاجتها إلى الثبات، فلا شيء يحركها بقوة. وكذلك الإنسان حين يتقبل واقعه، ويتعايش مع ابتلاءاته، ويستفيد من دروسها تمتد جذوره أعمق فأعمق في تربة عناية الله ورحمته وهدايته.

7- للرفعة والعبرة

هناك أرواحٌ اجتازت المراحل السابقة.. ولكننا نلحظ أنها تواجه كذلك منعطفات وابتلاءات في حياتها كالأرواح الطاهرة للأنبياء والرسل والأولياء والصديقين. وهذه الابتلاءات إما لزيادة في الدرجة والرفعة الروحية، وإما للعبرة.. حتى يكون النبي والولي عبرة لغيره من الناس الذين يدعوهم. وبالتالي فهذه الأرواح تبتلى لنختبر نحن من خلالهم.

حتى إذا ما صادفتنا مثل هذه الابتلاءات نجد في صورهم ومواقفهم ما يشد أزرنا للاقتداء بهم والسير على نهجهم والتحلي بصفاتهم حين عاشوا في خضم أحداثها.

فهُم الصورة العملية والفعلية لما ينبغي أن نكون عليه نحن وقت الابتلاءات.. فقصص الأنبياء في القرآن ليس لأجل التسلية والقراءة، ولكنها لأجل أن نتمثل بأدوارهم حين نكون في واقع مشابه. فآدم، ونوح، وموسى، وعيسى، وإبراهيم، وإسماعيل،

ويعقوب، ويوسف، ومريم، ويونس، وأيوب، وأصحاب الكهف، ومؤمن آل فرعون.. ومحمد عليه وعليهم جميعا صلوات الله نماذج حية وعملية أراد الله من خلالهم أن يعلمنا كيفية التصرف من خلال ردود أفعالهم في الأحداث والمواقف والابتلاءات.

لقد تجاوزوا مراحل الاختبار وأصبحوا مثالا يختبرنا الله من خلال مواقفهم.. فالله يعطينا الجانب النظري من خلال آياته الكريمة ويتبعها بصور عملية حية حتى نثق أن ما يقوله بإمكاننا تحقيقه.

وهناك صورة ثامنة ومهمة من الابتلاءات لا تستطيع إدراكها الآن لن أتطرق لها وسأتركها لوقت آخر.

سألته: لم أكن أعلم كل هذه الأنواع من المنعطفات والابتلاءات.. ولكن إذا كان كثير منها بفعل الإنسان أو نتيجة ردود أفعاله وتصرفاته أو لجهلة لماذا ينسب الله البلاء إلى نفسه؟

من رحمة الله وعطفه وحبه لنا نسب كل شيء إلى نفسه..

قد يصطدم ابنك الصغير بطاولة تكون قد وضعتها في الصالة فينكسر زجاجها وتجرح يده.. ويكون هو المتسبب في هذا الحدث، ولكن لحبك الشديد له لا تريد أن يعيش في حالة من لوم وعتاب نفسه، فتقول: أنا المتسبب في ذلك فأنا من وضعها في المكان الخاطئ.. فالأب يعلم أنه ليس مخطئاً.. والابن يعلم في قرارة نفسه أن أباه ليس مخطئاً بل الخطأ منه.. ولكن ردة فعل الأب تنم عن حبه العميق لولده.. وسيدرك الابن هذه الحقيقة بعد حين. ولكن حين يصطدم ابنك المراهق أو الكبير بنفس الطاولة فلن تقول له ما قلته لابنك الصغير. بل ستقول له: بني ينبغي أن تنظر أمامك قبل أن تتحرك حتى لا تتعثر في مشيك.

صحيح أن الله ينسب البلاء إلى نفسه ويقول ليبتليكم.. وليبتلي الله ما في صدوركم.. ولكنه في نفس الوقت يقول: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ فالله أعز وأجل أن يعذب عباده الذين خلقهم ليرحمهم. ويقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ ويقول: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ.. ﴾ ولذلك فرّق الله بين المصيبة التي تكون نتيجة ما ذكرناه في النقاط (1-2-3-4-5) وبين الابتلاء الحقيقي (6-7). وكأن هناك متغيرات من داخل الإنسان وأخرى نتيجة تأثير عوامل روحية من الخارج تضع الإنسان موضع التمحيص والاختبار.

لذلك يقول أهل الله: "ليخفف ألم البلاء عنك، علمك بأنه سبحانه هو المبلي لك، فالذي واجهتك منه الأقدار، هو الذي عودك حسن الاختيار".

حين تعلم أن كل ما تواجهه هو بعين الله، سواء كان نتيجة جهلك، أو نتيجة لردود أفعالك، أو نتيجة لاندفاعك وتهورك، أو نتيجة لإدخال نفسك فيما لا يعنيك، أو نتيجة لغلبة الأنا والكبرياء في سلوكك، أو نتيجة لإرادته في اختبار شيء ما في الحياة.. كل هذه الأمور تحدث تحت إشراف وهيمنة الله الذي سن لها القوانين التي تحكمها.

لذا فإن علمه بكل ما يحيط بك وما يختلج في فكرك وقلبك، وأن كل ما يحدث لك تحت إشرافه يجعلك في حالة اطمئنان أكثر، وهذا الاطمئنان يجعل وعيك أكثر اتقاداً لكي تتدارك الكثير من الأزمات والمواقف والأحداث التي تقع فيها. لذلك يقول: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ يكفينا أن نعلم هذا (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) ولكن علمنا هذا ينبغي

أن يلهمنا البصيرة والوعي الذي نستطيع من خلاله أن نتجنب الطاولة فلا نصطدم بها مرة أخرى.

إن فهمت أن كل ما يصيبك إنما هو لتطورك وتعليمك، وتوجهت إلى الله بقلبك فسوف تعرف المخرج مما أنت فيه وسيُفتح لك طريقٌ آخر أجمل وأكثر بهجة وغبطة.. وستعرف حينها لماذا يقول المحب: اللهم زدني بلاء.

انتبهت فجأة لما يدور حولي وتذكرت ما دار من حوار أسمع صداه في قلبي، فابتسمت وكأني مخلوق ولد للتو والساعة.. إنسان للتو فهم جزء بسيطاً من معادلة الحياة التي سأعيشها بقلب منفتح، ورضا غير محدود، وبتواصل مع الرب المعبود.

الصبر.. وتغيير القدر

نعتقد أنها صفة نفسية أخلاقية ينبغي أن نتحلى بها في المواقف الصعبة والمأساوية كفقد عزيز أو فشل مشـروع أو حين نتعرض لحادث ما.. فقط. ويغيب عنا أن الصبر يدخل في كل منحى من مناح حياتنا.. ففي كل حركة نحتاج إلى صبر..

كما أننا دائما نطلقها بعد مرورنا بأحداث مؤلمة ومأساوية في حياتنا ولا نعلم حقيقة أننا بحاجة إلى الصبر في أمور حياتنا الكمالية والإيجابية والتطورية أكثر من المأساوية والسلبية منها..

صحيح أن الله أوصانا بالصبر على ما يصيبنا ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ التي تكون نتيجة أحداث درامية مأساوية متعبة.. ولكنه في نفس الوقت جعل الصبر مفتاح وراثة الأرض ﴿وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ مشيراً إلى التطور الكمالي في حياة الإنسان.

فالصبر على مصاب ما يكون بعد الحدث.. والإنسان مطالب بالصبر على الملمة والكارثة والنكبة والمصيبة بعد أن تقع.. أما الصبر في كل متعلقاتنا الحياتية الأخرى فيكون أثناء وقبل الحدث.. لذا ينبغي لك أن تصبر على التأمل ونتائجه أثناء أدائه والقيام به حتى تصل إلى غاياته وأهدافه.. ينبغي أن تصبر على أفكارك حتى تنضج.. تصبر على أذكارك ومناجاتك حتى تأتي

أكلها.. تصبر على علاقتك حتى تتوطد، تصبر على برنامجك الصحي حتى يكتمل، تصبر على زحمة المرور حتى تصل، تصبر على معاكسات أبنائك حتى ينضجوا، تصبر على تداول الأفكار وتشعبها واستيعابها أثناء بحثك الفكري.. وهكذا.

لا نريد التطرق إلى مفهوم الصبر من بابه الأخلاقي والسلوكي، فقد تجد عشرات المواضيع التي تطرقت لهذا الأمر.. نريد أن نتطرق إليه من مفهومه الروحي، وكيف بمقدور هذه الصفة التي قد بدأنا نتملص منا - كوننا نعيش في عصر السـرعة - أن تغير من أقدارنا وحياتنا.

حين نتكلم عن الصبر فنعني به: التريث والانتظار في هدوء وطمأنينة وعدم التعجل في الأمر.. وهذا الانتظار يكون ممزوجاً بالقدرة على التحمل والثبات وعدم الجزع والتذمر والشكوى.. وبالتالي بالصبر هو حبس النفس وإمساكها عن الإتيان بالشيء قبل موعده، وقبل أن ينضج.

تتجلى معالم الصبر في كل معالم الطبيعة من حولنا.. فالماء لا يمكنه تجاوز الوقت ويغلي عند درجة حرارة 80 مئوية.. فالماء ينتظر بهدوء حتى تصل الحرارة إلى 100 فيقوم بالفوران.. لا يمكن للسماء أن تمطر ما لم ينتظر المزن بخار الماء المتصاعد من البحار فتتشكل الغيوم، بعدها تهطل الأمطار..

إذا وضعت بذرة في التراب فمن غير الممكن أن تنمو إذا كنت تستخرجها كل يوم لتعرف أين وصل نموها.. هي بحاجة إلى فترة كمون وانتظار لتنمو البراعم وفق توقيتها الخاص.

كل معالم الطبيعة تشهد كمال الصنعة، وهذا الكمال يتجلى حين يأخذ وقته المتأني والكافي لينمو ويزدهر وهذا المعنى العملي لمفهوم الصبر..

ولكن الإنسان.. الكائن الوحيد الذي شذ عن هذه القاعدة لأنه خلق من عجل ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ لذلك قلما يصل الإنسان

إلى أهدافه بسبب نفاذ صبره وتسرعه أو جزعه أو تذمره في التأني، فهو يريد الوصول ولا يعلم أن كمال الوصول مرتبط بالصبر.

نتطرق لهذا الموضوع لأننا بتنا نسمع أشخاصاً كُثر يدعوننا إلى عدم الصبر والأناة، وإلى التسرع والاستعجال وعدم التحمل، وإلى العجلة في الوصول إلى الثراء والقوة والتمكين وتجلي الرغبات وتحديد مصيرنا وأقدارنا بأنفسنا..

ففي الوقت الذي نكون فيه بأشد الحاجة إلى من يخفف وطأة النهر الجاري المتسارع الذي نشهده في حياتنا اليومية، نجد الكثير انزلق في متاهاته وأصبح جزء من عجلة التسارع اليومي الذي يسعى الجميع لنيل مطالبهم وتحقيق رغباتهم فيه..

وكأنهم يقولون لنا.. لا تصبر.. بل اتخذ موقف ما.. موقف حازم ينتشلك مما أنت فيه..

نسمع برمجيات جديدة في العديد من دورات التنمية تحث المتدربين لاتخاذ قرارات متسرعة بغية الوصول إلى أهداف سريعة معلبة، ولكن مع الأسف الشديد أدت كثير من هذه القرارات إلى تفاقم المشاكل النفسية والاجتماعية والأسرية.

لقد نفذ صبرنا.. أجل لم تعد لدينا القدرة على حل مشكلاتنا، أو التأني في أعمالنا حتى تنتهي، لم تعد لدينا قدرة على تحمل الآخرين وعلى تحقيق غاياتنا وأهدافنا.. بتنا نتنقل هنا وهناك.. نبحث عن الإنجاز السريع، التطور السريع، المعلومة السريعة، العلاقة السريعة، القراءة السريعة، التخطيط السريع، حتى في أكلنا وشربنا أصبح غرامنا تلك الوجبات السريعة، ليس لأنها ألذ طعماً وأشهى مذاقاً، ولكن لأننا غير صبورين على إعداد وجباتنا.

- مشاكل عديدة كانت على وشك أن تُحل، كانت بحاجة إلى قليلٍ من الصبر والتأني، فجاءت قرارات متسرعة أدت إلى تعقيد المشكلة أكثر من ذي قبل.

- عدم توافق أسري كان يحتاج إلى فترة وجيزة من الصبر والتأني ودراسة الموضوع بحكمة، جاءت القرارات المتسرعة لتحكم بالانفصال.

- فقدنا وأضعنا العديد من الأصدقاء والأحبة بسبب تسرعنا وعدم تريثنا في فهم وإدراك مواقفهم، أو حتى التمهل لفهم ما يريدون، لم نمهلهم فرصة يعبرون فيها عما يريدون، فضاعت سنين طويلة من المحبة.

- فشل العديد ممن يمارسون التأمل في تحقيق أهدافهم لعدم قدرتهم على الاستمرار أكثر قليلاً فيما يقومون به.. لقد نفذ صبرهم..

- كثيراً من مشاريع التأليف والكتابة قد تصل إلى مرحلة متقدمة، هي فقط بحاجة إلى خطوة أخيرة.. ينفذ صبرنا وينهار المشروع.

- كثيراً من أبنائنا فقدناهم لأنهم كانوا بحاجة إلى صبر وتأني في المعاملة.. فنفذ صبرنا معهم وضاعوا من بين أيدينا..

لا يعني الصبر هنا الخضوع والخنوع والاستسلام للأمر الواقع، ولا يعني التنازل عن حقوقنا الطبيعية والإنسانية، إنما يعني التريث والانتظار وتحمل الوضع الراهن.. ولكن انتظار ماذا؟

وهنا تأتي مفارقة الصبر بين القرار الفردي الشخصي، وبين التدبير الإلهي.. الله يقول لك إن استعجلت في أمرك ولم تتريث وتتمهل فالأمر متروك لك، أي سأكلك إلى نفسك، فأنت تريد نتائج أمر لم يكتمل بعد، تريد الحصول على أمر لم يصل

إلى درجة النضج بعد. وحين تختار هذا فأنت المسئول عن نتائج أعمالك وما يترتب عليها من أمور.

بينما لو صبرت وتمهلت واحتملت فإن يد القدرة الإلهية ستعينك لأن ما صبرت عليه وصل إلى درجة الكمال والنضج، وحان وقت قطف حصاد ما صبرت عليه. لذلك يقول الحق ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا.. ﴾. فقدرك هنا مرتبط بصبرك وتجلدك.. إن صبرت فإن قدرك سوف يتغير فيما يخدم أهدافك العليا، بينما لو تسرعت فإن قدرك سيتحرك باتجاه أهدافك الشخصية الدنيا.

وكما يقول العرفاء: "عندما يتراكم عليك كل شيء، وتصل إلى نقطة لا تحتملها، احذر أن تستسلم، ففي هذه النقطة يتم تغيير قدرك". ولكننا مع الأسف الشديد كثيراً ما نستسلم.. ونستسلم.. بعد ذلك نقول: تعساً لحالي، لماذا أخفق في كل شيء؟، لماذا يتطور غيري ولا أتطور؟.. لماذا يستفيد غيري من التأمل ولا أشعر بأية نتيجة؟ وغيرها من (لماذات) كثيرة يرددها كثيرون.

بمقدورك أن تحسن حياتك.. أنت فقط بحاجة إلى الصبر والانتظار والتحمل قليلاً وسوف ترى يد القدرة كيف تدبر أمورك وتأخذ بيدك وتفتح لك أبواباً لم تكن تحلم بها..

قد يصل بك الحال إلى التوتر والإحباط واليأس.. لا بأس بذلك.. لأن بابك يوشك أن يفتح إن صبرت قليلاً ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا.. ﴾ وهذا وعد الله ولا يخلف الله وعده.

وكأن الإنسان الذي لا صبر له يحكم بنفسه ويتخذ قراراته بنفسه دون دعم وإرشاد من السماء..

لذلك حين نقول ماذا بعد الصبر؟ هو الحكم والقرار العدل الذي لا يكون نتيجة تفكير بشري متسرع.. بل يكون من مدبر

هذا الكون ﴿.. وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، فبعد الصبر لا تكون أنت صاحب القرار، لأن الأمر قد كمل وتم ووصل إلى مرحلة النضج، وهنا فقط يكون الحكم لله وحده..

كثيراً من مواقفنا التي نتخذها في حياتنا يُخيل إلينا أنها مواقف صحيحة وسليمة، ولكن هل وصلت إلى درجة النضج حتى تحكم عليها بالصحة والصواب؟ كثيراً منها يكون نتيجة تسرع، ولو تمهلت قليلاً لكانت النتائج أكثر روعة وأقرب للكمال.

لذلك حين نقول: أن من لا يملك الصبر لا يملك شيئاً، ذلك أن جوهر كمال كل عمل بحاجة إلى نضج وتأني، فنحن لا نعيش في حلبة سباق كما يتصور البعض، ولا نعيش في قانون الغاب حيث الصراع والتنافس والبقاء للأقوى كما تنقله علوم التنمية الحديثة، نحن كيانات روحية متأنية بحاجة أن تنضج تجربتها في الحياة، التسرع والانتقال هنا وهناك لا يثبت التجربة الروحية في الذات، هي بحاجة إلى تمحيص وتأكيد وهذا لا يكون إلا بالتروي والتشبع بالتجربة.

لا يمكن لطالب يقلب صفحات كتابه أن يجيب في أسئلة الامتحان إجابات وافية، لأن المعلومة لم تهضم وتخزن بالشكل المطلوب. وكذلك تجربة الإنسان في الحياة لا تثبت في الذات الحقيقية أو في الروح إن لم تهضم بشكل كبير.

ليس من الضرورة أن نكون جزء من العالم المتسارع الذي نعيش فيه.. فالعالم الذي اصطبغ بالفلسفة المادية وبنظريات البعد الواحد لا ينبغي أن يؤثر في قناعاتنا الروحية في أننا أرواح في تجربة بشرية، ولسنا بشر في تجربة روحية.. لذلك كان اختبار الصبر من أهم الموضوعات التي توصي بها الأرواح الساكنة في عالم الروح التي ستنزل إلى الأرض وتولد عليها.

كما أنها كانت من أهم وصايا الأنبياء والأولياء في كل الأديان والمذاهب منذ خلق آدم إلى وصول الخاتم ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

بالصبر تملك كل شيء هو مستحق لك، لأنك حينها لا تكون وحيداً.. ستكون مع الله.. لأن الله مع الصابرين ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وبالتسرع لا تكون وحيداً فحسب، بل ستفقد ما أتعبت نفسك عليه سنين طويلة من حياتك، فرب مثقف أو عالم يدرك العديد من المفاهيم والأبعاد الروحية والفلسفية، ولكنه حين يتسرع وينفذ صبره يتصرف كوعاء أجوف خال من كل المعارف والأفكار. لم يتأن ويرجع إلى وعيه المكنون، لم يقلب صفحات ذاكرته العميقة، لم يستشر قلبه الذي أودع فيه ملكاته التي اكتسبها.. فكل ذاك غاب عنه حين اتخذ قراراته المتسرعة.

دروس الحياة المتعددة التي ذكرها الله في سورة الكهف.. والتي جمعها في رموز الأحرف (كهيعص) جعل مفتاحها الصبر..

فالتلفظ بالأحرف لا يكفي ليخلق منك كياناً روحياً، إنما مرورك بالدروس المتعددة وتشربك من العلم اللدني والذكر الإلهي هو ما يفتح لك رموز الشفرة القرآنية والتي لا تتأتى إلا من خلال الصبر والتأني ومعرفة الصورة الشاملة للخلق والحياة، لذا قال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ.. ﴾.

لا تفر وتهرب كالأطفال

كثيراً ما نفر راكضين كأولاد صغار أخذوا الحلوى من يدي والديهم أو أقربائهم دون أن نقول كلمة شكراً.. هذا حالنا حين يغدق الله علينا بهداياه وعطاياه.. حين يشفينا من مرض، يجبر خاطرنا بغائب، يقضـي حوائجنا ورغباتنا، يخرجنا من المشاكل والأزمات، يداري فقرنا وعجزنا، يحقق مقاصدنا ومرامينا.. كثيراً ما نهرب منه حتى دون أن نقول له شكرا يا إلهي..

حين يحقق الله لنا شيئاً أو يستجيب دعاءنا، فإنه يكون قد كشف شيئاً ما عن مقاصده، فهو يريدنا أن ننتبه جيداً إلى أفعاله التي تعمل فينا العجائب في هذا العالم.. يريدنا أن نعلم أنه ما تدخل إلا لأنه يعلم بحاجتنا إلى مساعدته وقدرته وسلطانه. فبرحمته مد يد العون لنا، وبقدرته بسط لنا قدرة التمكين من تحقيق رغباتنا، وبسلطانه هيمن على ما يمكن أن يسبب لنا الأذى..

أما.. والآن.. وقد تحقق لنا ما نريد، وأنجز وعده فينا، فلا ينبغي أن نهرب هروب الأطفال الصغار وبأيديهم الحلوى..

ينبغي أن لا ننسـى وعودنا القلبية، انكسارنا الروحي، عواطفنا الجياشة حين كنا نطلب منه تحقيق مرادنا أو غاياتنا..

ولو أن كل إنسان أبقى في قلبه شيئاً من حرارة النار الملتهبة التي كانت تغذي قلبه حين كان يرجوه في مهماته وحاجاته وطلباته لعشنا في حالة من الغبطة الروحية العميقة.. فكم وكم

وكم هي العطايا التي منحنا الله إياها.. وكم من حاجاتنا قضاها، وكم من آمالنا التي حققها.. وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها.. ولكننا دائمي الهروب.

يقدم لك إنسانٌ ما معروفاً فيبقى ديناً في رقبتك كالطوق طوال عمرك، تذكره أينما حللت أو ارتحلت.. وتنسى عطاء الملك الذي يغدق عليك الكثير من كرمه وجوده في كل مفاصل حياتك.

حين يستجيب الله دعاءنا أو يشفي مرضنا نفرح ونغتبط ونشكره على جميل صنعه وسماعه لندائنا.. ولكن بعد فترة تقل حرارة الشكر، حتى تنطفئ وكأن شيئاً لم يكن.. فلا نشعر بأعماقنا بالاستجابة العظيمة التي رحمنا بها والتي من خلالها تحقق مرادنا..

حين ينتشلنا الله من عقبات كأداء، مرض عضال، كآبة متمكنة، حالة انكسار، مشاكل، أزمات، فشل في الأعمال.. ألا ينبغي أن نوقر ونمتدح الإله الذي انتشلنا ورفعنا ونجانا من هذا كله.. أن نلهج بذكره والثناء عليه، ألا ينبغي أن نرفع ذكره كما رفعنا وخلصنا من العقبات، ألا يتطلب منا هذا توقيره وإعزازه وتبجيله.. ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً.. ﴾ ذكر الله هذه الآية بعد أن عد نعمه المباركة ﴿يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾.. ولكننا دائمي الهروب.

ينبغي أن تبقى حرارة الشكر والعرفان والامتنان بدوام ذكره وتسبيحه وتقديسه وتهليله، وإلا فنحن لا نقدره حق قدره، ولا نوقره على عطاياه وهباته. ولكن لماذا؟ لماذا ينبغي أن نوقر الله بذكره وتسبيحه؟ ينبغي أن نعلم أولاً أن الله منزه وكامل لا يحتاج إلى شيء، فلو اجتمعت الإنس والجن على شكره وتقديسه وذكره ما زاد فيه شيء، وإن امتنعوا ما نقص منه شيء.. "لا يزيد

في عزه إقبال من أقبل، ولا ينقص من عزه إدبار من أدبر". فلماذا يطلب منا شكره وذكره إذن؟

حقيقة الذكر لا تزيد في ملك الله وإنما تُعلي وترفع من شأن الإنسان الروحية وتفتح مداركه القلبية. فـ"لا تنفعه طاعتك، ولا تضره معصيتك، فإنما أمرك بهذه ونهاك عن هذه لما يعود عليك".. كل ما هنالك أنه أراد أن تذكره لأنه يريد أن يرفعك بذكره، وعلى الخصوص حين يكون القلب متوجه إليه حال الطلب والدعاء ليخلصه من المحنة أو الكربة أو المعضلة فإن حرارة الشوق إليه تكون مشتعلة في قلبه ملتهبة في روحه، يكون أرضاً خصبة لغرس أشجار الذكر والشوق الدائم إليه.

لذا نسمع عن العديد ممن تغيرت حياتهم الروحية نحو الأفضل حين أبقوا حالة التبجيل والتوقير والذكر لله بشكل دائم كشطر مهم في حياتهم.. لأنهم تلمسوا فيض القدرة وتذوقوا رحيق الرحمة وانبسطت أسارير قلوبهم بنفحات البسط الإلهي.

العارفون بالله لا يقفون على باب العطايا وتحقيق الحاجات.. فهم يسبحون في مملكة التوحيد الخالص، فالعطاء والمنع عندهم لا يقلل أو يزيد من قربهم وتوجههم لمولاهم. لأنهم ينظرون إلى سالف العطاء الأول.. إلى كرامة الوجود وفيض الخلق.. إلى نعمه التي تسري في أجسادهم منذ خلقهم، إلى سلامة أجسادهم وحواسهم، إلى الهواء الذي يستنشقونه، إلى رؤيتهم لألوان الطبيعة من حولهم، إلى ضياء الشمس الذي يبهرهم، إلى نور القمر الذي يسحرهم، إلى رقة قلوبهم حين يذكرونه.. إلى كل شيء في الوجود..

كل شيء نراه، نسمعه، نحسه، نتذوقه، نشمه.. بحاجة إلى توقير المانح والمعطي. وهذا التوقير والشكر من أعظم هباته علينا لأنه يريد أن يرفعنا به في كل مناحي تطورنا الروحي..

وأنت تقرأ هذه الكلمات ثق أنه لولا محبته لك ما استطعت أن تقرأ شيئاً.. ولولا محبته لي لما استطعت أن أكتب شيئاً.. فكلاً في فلك يسبحون.. أنا وأنت وهو وهي.. لم نكن شيئاً مذكوراً في عالم الوجود لولا مدد محبته ورحمته وعطائه..

فلا تهرب أو تفر بالحلوى كالأطفال.. بل توقف وانتبه وتفكر بالمعطي وماذا يريد منك واشكره على عطاياه.

الخلوة.. وسقوط الأقنعة

جبل النور.. غار حراء.. طور سيناء.. الوادي المقدس.. رموز لتجربة إنسانية عظيمة جرت أحداثها بعيداً عن الناس ومفردات العالم المادي.. كانت الشرارة التي تألق فيها الإنسان ليكون نبياً ورسولاً وولياً وصالحاً وعارفاً ومرشداً.. وبالتالي خليفة الله في أرضه وتجلي لنوره بين الكائنات.. هذه التجربة هي الخلوة..

والخلوة في أبسط معانيها هي الانفراد بالنفس، أو الاختلاء بها، حتى يتمكن المختلي من معرفتها بصورة أقرب وأكثر جلاء، ومن ثم تكون هذه المعرفة وسيلة تقربه من الخالق، كما تدعوه للتأمل في عالم الملكوت والتفكر في علة الوجود والخلق والجبروت..

لا تعني الخلوة الانعزال أو أن تذهب بعيداً.. تهجر دارك، أو تعتزل في كهف بعيدا عن أعين الناس، فالعزلة الحقيقية ليست عزلة الجسد وإنما هي عزلة الأفكار وضوضاء الفكر. كن أينما تكون وفي أين وقت تختار ولكن استقطع من وقتك برهة من الزمن، أوقف شلالات الأفكار المتلاطمة التي ترتطم في عقلك، لكي ترى وتشعر بعمق مياه المحيط. نصف ساعة في اليوم أو بين فترة وأخرى بمقدورها أن تزيل الكثير من الصدأ عن النفس.

فالخلوة سفينة تعبر بك إلى محيط الحقائق والمعارف الربانية لأنها تعمل على دوام الفكرة وتثبيت للعلوم والمعارف التي تترشح في القلوب، لذا قيل "ما أحوج الإنسان إلى خلوة

يدخل فيها ميدان فكرة". فلكي تثبت الحقائق ينبغي للمشتتات أن تزول، والخلوة أفضل طريقة للتخلص منها.

وإذا كانت رسالة الأنبياء تتطلب شيئاً من الخلوة، فإن رسالة الإنسان في الحياة بحاجة هي الأخرى إلى شيء من الخلوة..

ففي خضم معادلة التقدم والتطور الذي يشهده العالم اليوم فقد الإنسان جزءاً كبيراً من هويته وأصالته وجوهره نتيجة للضغوط الخارجية التي باتت تطمس شخصيته وتجعله كياناً آخر غير كيانه الحقيقي، أو بتعبير آخر تلك الضغوط التي تجعله مجرد ناقل لما يصدر إليه، أو تجعله مجرد مرآة عاكسه لما يوجه إليه من أضواء أو صور، فأصبح فاقداً لهويته وحقيقته.

ولكي يبدأ الإنسان من جديد، فهو بحاجة ملحة لجلو شخصيته وإزالة ما سبق وعلق بها من ركام وأتربة وتعلقات، فإذا كنا في حياتنا اليومية بحاجة إلى ترتيب البيت، وتنظيم المكتب، وتنظيف الخزانات والأثاث، فنحن كذلك بحاجة إلى ترتيب الباطن عن طريق الخلوة الواعية مع النفس، تنفض عنها رواسب العوائق التي علقت بها وتهبها مساحة من الفراغ الذهني الذي تحتاجه لتبدأ مرحلة عمل جديدة أكثر فاعلية.

قلة من الناس هم الذين يعرفون قيمة الخلوة، وكثير منهم يهابونها ويخشونها، بل وتشكل لهم هاجساً مخيفاً مرعباً لأنها ساحة المواجهة الحقيقية بين الإنسان وذاته. ففي هذه المواجهة يسقط كل شيء، تسقط الأقنعة التي زيفت حقيقة الإنسان والتي وضعها على وجهه منذ ولادته.. تسقط عادات الأفكار وقوالب التطبيع، تسقط أواصر الأغلال التي أحكمت قيد القلب والوجدان، تسقط المسميات والألقاب التي طالما رأى نفسه من خلالها لا من خلال ذاته الحقيقية.

في الخلوة تسقط الأنا.. والأنا هي القناع أو الستار الذي يحجب ذاتنا وهويتنا الحقيقية، يسقط الستار بين أدوارنا وما نقوم به في الحياة وبين ذواتنا الحقيقية. فالممثل حين يرتدي القناع على خشبة المسرح يمثل دوراً بعيداً كل البعد عن حقيقته الأصلية أو صفاته النفسية. وينتهي دوره بانتهاء العرض فيخلع عن وجهه القناع، ليعود إلى طبيعته الأصلية. إلا أننا في الحياة قد نرتدي الأقنعة طوال حياتنا ومنذ نشأتنا الأولى دون أن نقوم بخلعها ولو للحظة واحدة، حتى أصبحنا نعتقد أن تلك الأقنعة هي ذاتنا الحقيقية، أو هي حقيقتنا الذاتية.

فقناع المهنة والوظيفة، الثروة والغنى، الكرسي والمكانة الاجتماعية، الجنسية والانتماء، اللون والجمال، العائلة والشهرة، المعتقد والمذهب.. لا تمثل حقيقة الإنسان، فذاته بعيدة كل البعد عن هذه المسميات والألقاب. وحين يعود الإنسان إلى نفسه عبر التأمل والتفكر يتجرد عن كل تلك الأقنعة التي حجبت حقيقته.

يتماهي الإنسان مع دوره في الحياة إلى درجة أنه يفقد حقيقته، فهو المدير الناجح، والصحافي اللامع، والطبيب الماهر، والمحامي الحاذق، والتاجر الفطن، والشيخ الحكيم، والخطيب البارع.. كل هذه المسميات والألقاب التي بناها الإنسان لذاته ويراها الآخرون فيه تسقط في الخلوة.

في الخلوة وأثناء التأمل تسقط الأقنعة بمستواها الفردي، كما تسقط أثناء الأزمات والأهوال بمستواها الجمعي، فهول المطّلع الذي تسببه الكوارث والنكبات تذيب الأقنعة التي تلطخت بها الوجوه عقودا من الزمن، فلا يعد يرى الغني نفسه ثريا، ولا يرى الجميل شكله مبهراً، ولا يرى صاحب الكرسي نفسه مرتفعاً، ولا يرى القبلي نفسه مؤيداً، ولا يرى المواطن نفسه منزهاً. حين تسقط الأقنعة تسقط المسميات والألقاب والعوالق، فلا يبقى إلا الإنسان الذي يتساوى مع أخيه الإنسان.

يعد سقوط الأقنعة عند البعض مأساة وفاجعة كبيرة، فمن أفنى عمره وحياته في تلميع وزخرفة قناعه.. لاهثاً.. جاريا.. مهرولا.. في بناء مملكته وثروته ومكانته وعائلته وحزبه على حساب نفسه وذاته، سيصاب بخيبة أمل كبيرة ومؤلمة حين يفاجئ بسراب ووهم ما كان يسعى له طوال حياته. كما أن الأقنعة تمنحهم الأمن والأمان والاستقرار في علاقاتهم الاجتماعية وتعتبر صمام أمان لخيلاء نفوسهم، لذلك فإن سقوطها يشعرهم بالضياع والحيرة والتعثر.. ومن هنا يخشى كثير من الناس دخول الخلوة..

كل الأقنعة تسقط حال الموت، وهو سقوط قهري لا مفر منه، يجد المرء نفسه مجرداً عن كل شيء، ولكن قبل أن تسقط الأقنعة نتيجة للكوارث الطبيعية أو نتيجة للموت القهري علينا أن نسقطها الآن وبدون أي تردد عبر التأمل والعودة إلى الذات والرجوع إلى الله، علينا أن نبحث عن حقيقة أنفسنا ونفصلها عن المسميات والأقنعة المزيفة ونهيأ أنفسنا للمرحلة التي تليها. فلو ذاق الإنسان حلاوة الخلوة لاستوحش من نفسه، فالخلوة أفهم للفكرة.. وطول الفكرة يمهد طريق الوعي والبصيرة والنجاة. فبعد الخلوة يخرج الإنسان وهو ينظر إلى الحياة بصورة جديدة، يرى كل شيء يسير في فلك متناغم متناسق محكم، لا يرى شيئاً مستقلاً بذاته فكل في فلك يسبحون، يبدأ في رؤية الإبداع الخلقي في الموجودات، بعدها يسترجع هويته وأصالته التي فقدها.

المصداقية.. بلا أقنعة

المصداقية تعني أن يمارس الإنسان دوره في الحياة بلا أقنعة مزيفة، ويتعامل مع الآخرين من خلال ذاته الحقيقية وصفاته الجوهرية، فينعكس باطنه الحقيقي (الذات) للخارج، بلا أقنعة تُشبع رغباته وتداري نواقصه وتحقق أمانيه.

حين ينظر إليك مسؤول بصلافة ويعاملك بفوقية وتعنت، فهو يرتدي قناعاً يختبئ ويتوارى خلفه.. هذا القناع يوعز له بالأهمية والاعتبار من جانب، ويشبع من خلاله كبرياؤه وغروره وعجبه من جانب آخر، وقد يداري فيه عقداً وأمراضاً نفسية من جانب آخر. وبالتالي فمعالم هذا القناع يعكس سلطان الأنا والشخصية الخارجية، وهي تختلف عن ذاته الحقيقية، فذاته تمقت هذه الصفات، فما يقوم به يتناقض وسماته الروحية الحقيقية، فنقول إنه شخص غير صادق مع نفسه، أو لا مصداقية له.

فالصدق من الناحية الروحية أن تكون لك شخصية واحدة حقيقية.. أن تمارس أدوارك في الحياة دون أقنعة، يعبر لسانك عما في قلبك، وفعلك عما في ضميرك. مع الأسف الشديد يتشبث معظمنا بهذه الأقنعة التي تتحكم في العديد من سلوكياتنا وتصرفاتنا تجاه الآخرين، فنظهر لهم جميل ما عندنا ونبطن سوء الظن بهم، وكأن لنا شخصيتان في آن واحد، شخصية خارجية ظاهرة وأخرى في الداخل. ظاهرها الصلاح وباطنها مبني على المراوغة واللف والدوران وسوء الظن بالآخرين وتفسير أعمالهم بما يتوافق مع رؤيته. ينظر للآخرين بريبة وشك ونفاق فيما يعملون، يعتقد الصلاح في نفسه، وأنه على خير دونهم، أفكاره ومواقفه هي حق مطلق والآخرين على الباطل، يتلفظ بألفاظ بذيئة ويصف الآخرين بأوصاف سفيهة، وأن الله يجري على يديه البركة والخير دون العالمين.

كان أجدادنا في السابق يطلقون مسمى "اهل الله" على بعض الأشخاص، فيقولون فلان من أهل الله، وعندما تسأله عن سبب هذه التسمية يقول لك: "لسانه يفرغ عما في قلبه، وهو طيب وعلى نياته" ولكن الغريب في الأمر أن هذا الشخص يكون

موفقاً في أحواله، فكثيراً ما ينجيه الله من الكربات والأهوال، وقد تجري على يديه بعض الأمور التي لا نجد لها تفسيراً مقنعاً.. دعاؤه مستجاب للحظة، يجد رزقه في مكان ما، تهدأ الرياح في يوم عاصف إذا أراد السفر، يخلصه شخص ما من زحمة المراجعين ويقضي حاجته.. الخ. وعادة ما نبرر نحن هذه الحوادث فنقول: "الله يعطيه على قدر نيته".

يكمن سر هذه الشخصية في كلمة واحدة هي: المصداقية، فلهذا الإنسان كيان واحد، أزال الأقنعة عن نفسه فتعامل مع الآخرين بملكات وسجايا الروح.

أغلب المشاكل التي تزخر بها مكاتب الاستشارات النفسية سببها انعدام الصدق والمصداقية.. سواء على صعيد العلاقات الزوجية أو الوظيفية أو الاجتماعية أو الروحية والنفسية.. فالرجل يرتدي قناع المحب المتفهم المثقف المسئول، هذا القناع سرعان ما يسقط بعد الزواج، والعكس كذلك فالمرأة التي تضع قناع المدبرة والمهتمة بشئون الأسرة والمثقفة الواعية سرعان ما يسقط بعد العشرة.

حين يخطب شخص ما في جموع غفيرة من الناس المتلهفة، ويوجه الناس وفق القناع الذي يرتديه، ليغذي الأقنعة الأخرى الشبيهة، لا الذوات ولا القلوب - فما خرج من القلب يدخل القلب، ما خرج من القناع لا يؤثر إلا في الأقنعة الشبيهة له - يبدأ عندها مسلسل الضياع.

أن تكون صادقاً يعني أن تحترم ذاتك على حقيقتها، تحترم روحك، وتظهرها للناس كما هي دون تغليف بالكذب وتزييف وادعاء. لذلك قد يكون المؤمن سارقا أو زانيا أو بخيلاً أو جبانا، ولكنه لا يكون كاذباً، لأنه يكون حينها قد خرج من دائرة الإيمان والسبب أنه يستنكر نفسه وأعمالها وأفعالها، يرفض شيئاً في

داخله، وكأنه يعاني من ازدواج شخصية. فالكذب يعني إخفاء حقيقة ما بداخلنا، ومن يخفي الحقيقة ستختفي الحقيقة عنه ولو بحث عنها طوال حياته.

الصدق يحفظ ملكات الإنسان في داخله التي تنمو في اتجاه تصاعدي واحد وليس في اتجاهات متعددة. فحين ينعكس الباطن على الظاهر بصدق يشعر الإنسان بفرح عميق وغبطة نفسية وابتهاج وسرور لأن الباطن حينها يكون منفتحاً على الطاقة الإلهية التي تملأ الكون دون سدود أو حواجز الأقنعة المزيفة. فطاقة الحياة حينها تكون منسجمة مع الذات.. ويكفي أن يكون الإنسان مراقبا لهذه الحالة، بل يكفي أن يتعبد بها، ليرى كم بابا سماوياً سوف ينفتح أمامه.

لذلك نرى "أهل الله.. أو ما نطلق عليهم أهل النية الصافية" يتنعمون براحة البال والابتسامة الملائكية والقلب المفعم بالمحبة لكل العالم.

يقظة الواقع

- الخطئة الكبرى والهبوط
- الفتن تعبر من نافذة الجهل
- المتلاعبون بالعقول
- رجال لا يخطئون
- رسالة في زمن التيه
- العلمانية وتشويه الأديان
- لمن نسمع
- لا تنتقد.. أنت بالواد المقدس
- قلق.. وترقب الغد
- عندما يفقد الزمن زمانه
- لا تقعوا في شباك الصياد
- التغيير.. وطاحونة الحياة
- هل تحب أن تملك كل شيء؟

الخطيئة الكبرى والهبوط

هل بدأ الخلق نتيجة خطيئة ارتكبها آدم وعصى بها ربه حين استطعم لقمة ذاقها من الشجرة المنهي عنها في الجنة؟ وما فلسفة مثل هذه الحياة التي تبدأ بمعصية؟

تتطرق مجمل الكتب السماوية لقصة آدم عليه السلام، ليس لمعرفة بداية وآلية الخلقة فحسب وإنما لتوضيح الوهم الكبير الذي ستقع فيه البشرية على مر العصور.

لم يكن آدم أول مخلوق بشري على الأرض حتى يكون الفيصل بين تخَلق وتكون الحياة من عدمها. وبالتالي فكل الرموز المرتبطة بقصة آدم طور متقدم جداً في عملية الخلق الذي بدأ منذ ملايين السنين. وهو ما نطلق عليه بطور النفخ والبداية الجديدة لتشكل الوعي الإنساني.. والدمج بين مرحلتي الخلق والنفخ هو ما قالت به كتب الأديان المحرفة التي وضعت سيناريوهات تخدم مصالحها في تحجيم الأسس التي تقوم عليها الحياة، والذي تم نقله حرفيا (مع الأسف الشديد) في العديد من تفاسير القرآن الكريم الذي يناقض هذا التصور الضيق المحدود.

الجوهر في قصة آدم لا علاقة له بالتفاحة أو الرمان أو الحية أو الطاووس أو الجنس أو غيرها من خزعبلات شكلت عقيدتنا لقرون مضت. فالمحور في قصة آدم يتعلق بعالم الروح أو حسب

التعبير القرآن (الجنة) وبين الخطيئة التي ارتكبها آدم التي عبر عنها القرآن (بالمعصية).

لم يكن الإنسان قبل آدم يعي حقيقة الخلق وفلسفة الحياة، كان يعيش بفكر محدود وأفق ضيق، إلى أن تمت عملية النفخ التي أشعلت شرارة الوعي والإدراك والمعرفة لديه وأصبح مؤهلاً ليكون خليفة الله في أرضه..

ولكي يحظى آدم بهذه الخلافة تطلب الأمر أن يكون هناك عهدا بينه وبين الله.. فسر الحياة يكمن في هذا العهد..

لقد أخذ الله على آدم عهداً أن لا ينساق خلف (الأنا) وينخدع بأدوارها ومتطلباتها وهويتها المزيفة.. لأنها رأس كل خطيئة وأعظم شرك يشوه حقيقة أهدافه الروحية.. وبيّن له أن بقاءه في عالم الروح (الجنة) مرتبط بصفاء تفكيره ونقاء سريرته، ووعيه الروحاني، وحذره من الأوهام والهواجس الفكرية أو الانصياع خلف المسميات الشكلية الخادعة لأنها سوف تفقده مكانه في ذلك العالم.

أوصى الله خليفته.. لا تجعل الأشياء والأشخاص محور حياتك أجعلك في سلام دائم لا يزول، فأنت نفحة مني، إن ارتبطت بغيري ستفقد صلتك بي، سيتلوث كيانك الداخلي، وسوف تنفصل عن عالم الروح (الجنة) لأنه عالم يتناقض والأنا.. لا تربط ذاتك بشكلك أو فكرك أو حسبك أو نسبك أو حاجتك أو ملكك.. لا تتعلق بشـيء.. أي شيء.. فقط اجعل ذاتك مرتبطة بنوري شاعراً بدوام وجودي..

حين تسلم العهد الرباني في بادئ الأمر تهيأت له كل سبل الحياة الرغدة والسعيدة ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ.. ﴾ فكان رزقه يأتيه رغداً ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ ذلك أن الله عهد إليه (كن معي أكن معك)

وحين يقول الله (أني سأكون معك) فمعنى هذا أنه سيسخر له كل معادلات عالم الغيب والشهادة لخدمته وتكون تحت إمرته، وهذا ما كان بالفعل فيما يعرف بجنة آدم التي توفرت فيها كل مقومات الحياة السعيدة والمبهجة التي لم ولن يتمكن العلم أن يأتي بمثلها مهما أوتي من سلطان.

ولكن في لحظة ما نسي آدم هذه الوصايا، وبدأ الوهم يتسرب في وعيه ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ وانساق خلف الأفكار والوساوس التي ظن أنها تأتي من ذاته الحقيقية، وبدأ وهج الوساطة يقل ما بين عالم الغيب والشهادة.. فلم يعد وسيطا كسابق عهده وبداية نفخة الروح فيه. فما كان يعتقد أنه نتاج تفكيره تبين أنه سيل التفكير المتواصل للأنا الخادعة التي لا تسكت أبداً.

وهنا كانت الخطيئة الكبرى.. لقد نسي آدم ذاته الحقيقية النورانية والتفت إلى حاجته الجسدية للملك والخلود، فاستمع إلى ذلك الهمس المخادع الشيطاني: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾. وبدأت تراوده أفكار تدعوه لطلب الأمان والضمان المادي أكثر من تفكيره بالثقة والعهد الذي قطعه على نفسه (كن معي أكن معك).. أراد أن يشعر بالاستقرار أكثر وأن يضمن الملك والخلود بآلية مادية حسية، ناسياً أو متناسياً أن فعله هذا يعد خرقاً لقوانين ونواميس الطبيعة وأن عمله هذا سيخرجه من جنة السعادة..

أراد أن يضمن السعادة الواقعية الملموسة فنسى آدم عهده وانكشفت سوءته وما كان يضمره في نفسه، فهبط بعد أن أوكله الله إلى نفسه يعيش وفق القوانين والسنن الوضعية الأرضية التي اختار أن تكون بديلا عن السنن الروحية السماوية.

فبمجرد أن ذاق الشجرة أدخل في ذاته كياناً ثقيلاً لا يمت إلى عالم الروح بصلة، وأوجد لنفسه هوية أخرى بعيدة عن وعيه النوراني، هوية حزينة معذبة لم تفق من غفلتها إلا حين بهت ذلك النور المحيط بالجسد وانطفأ، فبدت سوءته التي طفق يخصف عليها من ورق الجنة.

لقد عاد آدم إلى وعيه ورشده فتاب الله عليه، ولكن علقت البشـرية في أوهامها المادية التسلطية الاستحواذية وبقيت تعتقد أن الأمان والملك والخلود والبقاء يكون للأقوى والأدهى والأمكر، وأن من يأكل أكثر فهو الأقرب.

تسـرب هذا الوهم الكبير لبني آدم.. أمم وجماعات وحضارات وعقائد وملل ونحل وطوائف.. البعض يريد أن يتذوق الشجرة، والبعض يريد الأكل منها، والبعض يريد أكلها كلها.. والمصيبة والطامة الكبرى أن البعض يريد الاستحواذ عليها واقتلاعها من جذورها لخاصته.. هذا الوهم جعل هبوط البشرية من جرف الحياة سريعاً من جانب وبشعاً من جانب آخر..

أثار هذا الوهم حفيظة السواد الأعظم للحصول باسم القوة تارة، وباسم السلطة تارة أخرى، وباسم الدين تارة على مكاسب ومصالح وانجازات مرحلية ومستقبلية تضمن لهم الخلود والملك والبقاء، فسفكت دماء الأبرياء، وأثيرت الأحقاد الطائفية، ونبشت دفائن التاريخ لتصيد الزلات والهفوات، وتم تشريع اللعن والطعن والسباب والمساس بمعتدات الآخرين ولعنهم وتكفيرهم. فأصبحنا عباقرة مبدعين في الأكل.. أكلنا كل شيء، ناسين ومتناسين أن الملك والخلود الحقيقيين يأتيان من الله فقط، ومن التجربة الروحية الحقيقية معه، ومن التجرد عن كل شيء، كما قيل: "فرغ القلب من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار".

فحين نتجرد من كل شيء.. نتحول إلى وسطاء ما بين عالم الغيب والشهادة، وهذه هي الدلالة الحقيقية لكلمة الخلافة في المفهوم القرآني، أن نعيش في الحياة ونحن في كامل ارتباطنا بعالم الغيب، وأي انفصال عن هذه الدائرة تعد خرقاً للعهد الأول الذي قطعناه على أنفسنا مع الله قبل نزولنا إلى الأرض.

تشعبت أغصان الشجرة في كل الأحزاب والتيارات والطوائف والمذاهب كلاً يجرها إلى نفسه، وكلاً يتعلق بغصن منها ويظن أن فيه النجاة والخلود والزهو والسعادة، لا يفيق من وهمه إلا حين يعلم أنه ما تعلق إلا بحبل من حبائل الشيطان.

شجرة آدم تدلت أغصانها منذ فجر التاريخ.. يتشبث بها الكثير ظنا منهم أنها ستحقق لهم السعادة والسيطرة والاستعلاء والتمكين والكثرة، في حين أنها لا تزيدهم إلا وهنا وضعفاً وشقاءً وتعاسةً وعداوةً في الحياة ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ وظلاماً أبدياً بعد الممات.

كلنا يأمل الجنة - عالم الروح والحقيقة - ولكن كيف نحقق هذا الأمل وقد استبدلنا هويتنا الأصلية وخُدعنا شر خديعة من قبل وساوس أفكار الأنا الضالة التي تسعى للشهرة والزعامة والتملك والتسلط ونشر الأحقاد والضغائن والفتن بين الناس..

قصة آدم لا تعني تفاحة أو عنباً أو رماناً أو شيطاناً أو حواء.. قصة آدم تلقي الضوء على الخطيئة الكبرى للبشرية والتي تتمثل في الابتعاد عن النور الإلهي الأزلي الخالد والانجرار خلف بذور أفكار دخيلة زرعت في فضاء نفوسنا.. اعتقدنا أنها الحق والحقيقة دون أن ندرك أنها وساوس عقيمة لا تزيد مريدها إلا ضياعاً وهبوطاً في عالم يطمح للكمال والاكتمال.

والأدهى والأمر في هذا الموضوع أننا نقوم بأنفسنا من حيث لا نعلم بغرس فسيل هذه الخطيئة بين الناس حين نسخر

قوانين الطبيعة أو والنواميس الكونية لخدمة أغراضنا الشخصية رغبة في سعادة عابرة أو تملك زائل أو وفرة زائفة أو تجلي للأمنيات.

لقد أقسم لهما الشيطان أنه لمن الناصحين وأن ما يقوله سيؤدي إلى السعادة والملك والخلود وتحقيق الرغبات والأمنيات.. لقد استبدل الشيطان قناعه بقناع الناصح الأمين وبدأ يبث سمومه الخبيثة في آدم حتى استطاع أن ينسيه عهوده..

جاء بعدها النداء الإلهي مقرعاً فعلته وموبخاً صنيعته موضحاً له أن السعادة الحقيقية وتحقيق الأمنيات منوط بتوجهك الروحي الخالص.. وحتى تكون في سياق هذا التوجه الروحي ينبغي أن تتخلى عن كل أمنياتك ورغباتك وتطلعاتك المادية.

قال له: تخلى عن كل شيء وستكون كل شيء.. كن لا شيء تكن كل شيء..

من لم يختبر حقيقة الحياة لا يدرك هذا المعنى.. فهو يعيش في آفاق مادية تحجبه عن رؤية الحقيقة حتى ولو تلبس برداء المتقين.. يدركها فقط من عرف نفسه وأدرك الصورة الكاملة للحياة بما فيها مفاهيم الوجود وما قبل عالم آدم الأول وكيف عاش في جنة كانت مسخرة له بكل أبعادها..

أجل.. كانت الجنة تحت تصـرف آدم حين كان يتعامل مع القوانين الإلهية والكونية وفق بصيرة نافذة وراشدة، وحين وسوس له الشيطان في استغلال هذه القوانين لمصلحته الشخصية الآنية فقد أهلية التصرف، وكان الهبوط المأساوي..

جاءت بعدها أشرس الجماعات نهماً وجشعاً لتعمل على تفعيل هذه القوانين بما يخدم مصالحها في التحكم بالعالم فصاغت العديد من الأسس والقوانين بأشكال مختلفة وبصور مزركشة

ظهرت للعالم في القرن التاسع عشر واستمر تهذيبها بعد ذلك حتى وصلت درجة من القابلية والسهولة أنها اخترقت وسائل إعلامنا ودخلت في كل بيت عن طريق الانترنت ووسائل الاتصال الاجتماعي ودورات التنمية البشرية وما أشبه.

لقد عاتب الله إبليس لعدم سجوده ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ فمن هم العالين؟

العالين.. هم الذين انحصرت كل رغباتهم وآمالهم وطموحاتهم في اللاشيء.. فرفعهم الله في عليين.. هم الذين تناغموا مع قوانين الكون العليا، فسقط كل ما في الطبيعة من عيونهم ولم يكترثوا له.. هم الذين تركوا التدبير للمدبر.. وكان كمال تدبيرهم هو ألا يتدبروا أمرهم.. بل وكلوا أمرهم لله وحده يفعل بهم ما يشاء.. هم الذين ارتبطت مشيئتهم بمشيئة الله، لا بمشيئة أنفسهم ورغباتهم وأمنياتهم..

هؤلاء (العالين) كانوا بشراً مثلنا في يوم ما.. إلا أن الله رفعهم إليه لأنهم رفعوا ذواتهم به، فذواتهم ارتفعت بالله، فكانوا يسمعون بالله ويبصرون بالله ويتحركون بالله، كما جاء في الحديث "كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها وقدمه التي يمشي بها". تشربت ذواتهم من فيض النور الإلهي، وأصبحت حقيقتهم مجلي النور المقدس.

لنتوقف قليلاً.. ونراجع أنفسنا جيداً.. ونمحص ما نستقيه ونتلقاه من الآخرين، ونسأل أنفسنا، هل ما نتعلمه يسير بنا نحو العلى ونحو الله، أو نحو تحقيق رغباتنا من وفرة وسعادة وغنى وأموال ومنزلة ووجاهة وحياة مرفهة؟ فكم من لقمة منعت لقمات وكم من أكلة منعت أكلات كما في المثل القديم. ورُب آمالٍ وأمنياتٍ نعقدها لا تمت لمسيرتنا الحقيقية بصلة ولا بتطورنا الروحي. ورُب حاجاتٍ يؤخرها الله لمصلحتنا ليمحصنا فيها أو

ليختبر قوة إرادتنا أو ليرفعنا من خلالها درجات ومراتب، أو ليخلصنا من خلالها من تبعات وأعمال قمنا بارتكابها فيما مضى.. ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ.. ﴾.

لا تنس عهداً عهدته مع الله.. ولا تغرنك العصي السحرية التي توزع في الأمسيات والدورات فقد تسببت في مشاكل لا حصر لها، وعلى الخصوص لمن يحبهم الله ويريد رجوعهم إليه مرة أخرى.

لنكن إخوة في الدين والإنسانية ندعو إلى الله على بصيرة من أمرنا، بقلوب سليمة طاهرة، لنتمكن من العيش في الجنة من جديد.

الفتن تعبر من نافذة الجهل

يقال إن الفتن لا يمكنها عبور بوابة الوعي إلا من خلال نافذة الجهل والحقد الأعمى، فالميكروبات لا يمكنها اختراق جسد سليم معافى، هي تبحث عن الجسد الضعيف الواهن العاجز لكي تستوطن فيه..

المؤمن الحر الذكي الواعي المتفتح لا يمكن أن تنطوي عليه ألاعيب الفتن، لأن مخزون الاستنارة الباطنية لديه يكون بقدر يستطيع من خلاله كشف الأقنعة التي تتسربل من خلالها الأكاذيب المقننة التي تظهر للجاهل كما لو أنها حقيقة مطلقة.

التجربة الدينية ليست تجربة غامضة أو فلسفة أرسطية معقدة.. بل إن درجة وضوحها أعمت كثيراً من الناس عن رؤيتها وفهمها واستيعابها. فالإنسان لا يري القريب الملاصق لعينه، ولا يدرك العديد من البديهيات المتداخلة في فكره، ولا يشعر بالضمير الذي يُسيرّ كثيراً من مناحي حياته. لقد أخفى الله ذاته العلية المقدسة عنا بالقرب، فلو كان بعيداً لأدركناه "إنما حجب الحق عنك لشدة قربه منك، وإنما احتجب لشدة ظهوره، وخفي عن الأبصار لشدة نوره".. ولذلك كثير ممن تكلم عن الله لم يشعروا قربه.. تكلموا عنه من خلال إدراكهم البعيد.

تارة تكون بساطة الأشياء سبباً لعدم إدراكها.. فكثير من الإخوة والأخوات حين نجيبهم عن بعض الأسئلة يقولون: "فقط.. هذا كل شيء" نعم بالنسبة لك الآن هو كل شيء، وبمجرد أن تؤدي ما تعتقد أنه كل شيء، ستنفتح أمامك مفاتيح كل شيء.. هم لا يطبقوا ولا يؤدوا الواضح من الأشياء ويعتقدون

أن هناك أبعاداً أخرى تكمن في طيات الكلمات لم يُفصح عنها، في حين أنهم لو بدؤوا العمل بالواضحات لتجلت لهم المغيبات ولاتضح لهم ما كان متدثرا برمزية الكلمات..

وعلى نفس المنوال تكون التجربة الدينية في الأمم والمجتمعات.. فالكل متذمر مضطرب ينادي بالخلاص.. وهو بعيد كل البعد عن جوهر الدين تعاليمه ومبادئه.. الكل يشتكي من ضياع الإسلام ولكن في الوقت نفسه هو عنصر فاعل في هذا الضياع. الجميع بات يُخبر عن علامات آخر الزمان ونهاية العالم في مقاطع الفيديوهات ومواقع التواصل الاجتماعي ولا يعلم أنه نفسه (بطائفيته) إحدى هذه العلامات وأكثرها تأكيداً..

لذلك نقول بكل بساطة.. كما أن انتظار زائر ما يجعلك تستعد وتهيئ لوازم الضيافة.. كذلك حين تطلب رحمة الله ينبغي أن تهيئ في نفسك مستلزمات قبول هذه الرحمة، فالفيض والمدد الإلهي يغمر العالم جميعاً.

كثيراً من الناس ينتظرون.. كثيراً منهم يئنون.. يتوسلون.. يدعون.. يندبون.. ولكن دون أن يهيئوا أنفسهم أو يكونوا بقدر ما يطلبون أو يرجون تحقيقه.

التجربة الدينية في الأمم تؤسس على رؤية واضحة تتبلور في جعل العالم مسرحاً لتجلي الفيض الإلهي ومجالا يكشف فيه الخالق عن إرادته الحقيقية في الخلق، وبالتالي فإن هذا التجلي سوف ينظم عناصر هذا العالم ويخلصه من حالة الفوضى والاضطراب والتوتر، ويحفظه من السقوط والانهيار والتمزق، ويرفع عنه حجب الوهم ليتكشف للوعي حقيقة الأشياء ودلالتها الواقعية، ويدعم حالة التوازن والألفة بين الطبيعة والإنسان، وبين الإنسان وأخيه الإنسان، حتى أن الأرض تخرج أثقالها وكنوزها دون عناء، وتشرق الأرض بنور ربها. ولكن كل صور

التجليات هذه ترتبط بآلية الوعي البشـري، فالوعي البشري - كونه الوعي الأقوى بين الكائنات - يناط به تهيئة الظروف لهذا التجلي المقدس الذي من شأنه إحداث التغيير في العالم.

لذلك فإن التجربة الدينية ليست مجرد طقوس تؤدى أو شعائر تنجز وإنما مجاهدة ومكابدة دائمة لترقب هذا الحضور المقدس في الأشياء، فبدون تجلي هذا الحضور لا يمكن إحداث أي تغيير في العالم. فالوعي الديني وعلى مر التاريخ يسعى باستمرار لجعل الإنسان أداة لتحقيق الإرادة الربانية بحيث يكتنفه الحضور المقدس الذي يتجلى من خلاله المشروع الإلهي في خلق الأكوان. ومن هنا كان سر النفحة المقدسة في أبينا آدم.

ما نفع الدعاء والرجاء والتوسل إن لم ندرك حقيقة ومبتغى الرسالة الإلهية من الخلق، فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ذلك هو الشعار القرآني الذي يعكس آلية تجلي إرادة الوعي البشري في الموجودات. فمن خلال تغيير الداخل تتكشف حقيقة الوحدة الروحية لبني البشر بحيث ينظر فيها للآخر كما ينظر إلى نفسه..

قال حكيم يوماً: "إن لم يتأثر شعور الإنسان حين يصاب ابن جاره كما يتأثر حين يصاب ابنه فما بلغوا حقيقة المعرفة الروحية" فالتغيير الحقيقي يبدأ حين تندمج الأرواح برابطة الحب والمودة والألفة، وهنا يبدأ تحقيق المعجزات..

ولكن هل استوعبنا حقيقة التجربة الدينية في العالم الإسلامي.. العالم الذي تآكل من صدأ الفرقة والضياع والطائفية؟

لنعش الآن لحظة استنارة وصدق مع أنفسنا لنكتشف حقيقة ما يجري في عالمنا العربي والإسلامي.. قبل أن تدخل هذه اللحظة تجرد من كل العواطف الطائفية والحزبية والمذهبية

والقبلية ودع قلبك الفطري النقي حكماً لما ستصل إليه من نتائج في هذه اللحظة.. فقط تخيل.. ماذا سترى؟؟

سترى أمة تعاقب على هدايتها أفضل أنبياء الله ورسله كان آخرهم نبي الرحمة عليهم جميعا صلوات الله وسلامه.. لنتخيل للحظة.. هؤلاء الأنبياء العظام وهم ينظرون إلى أمتهم من بعيد، إلى تلك الأمة التي غرسوا فيها المبادئ والقيم والأخلاق والمثل والحب والمودة والتسامح والعطاء.. الأمة التي أخذت منهم جهداً مضنياً حتى استطاعوا أن يؤسسوا فيها مجتمعا فاضلاً.. الأمة التي طالما حُذرت من الفتن والاختلاف والاقتتال، وأخذوا عليهم المواثيق والعهود أن دم المسلم وعرضه وماله حرام، وأن من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً.. إلام ينظر الأنبياء وماذا سيجدون؟

سيرون أن الجهل استحكم عقول السواد الأعظم منهم.. وأن طوفان الأحقاد والكراهية تغلي في النفوس كغلي الحميم.. يرون أن المد الأسود بدأ يستشري في النفوس قبل الفؤوس.. وأن العلاقة ما بين السماء والأرض بات يحكمها هدير الدماء المسكوبة في الطرقات..

أنبياؤنا ينظرون إلى أمة الإسلام التي حذروها مرارا من فتن الشيطان وألاعيبه كيف ترتمي بأحضانه وتبرمج وفق مخططاته.. ولسان حالهم يقول "ما جئنا لنؤسس دولة أو نشيد ملكا، لقد جئنا لننتشلكم من ظلام الجهل وندخلكم عالم النور والمحبة، جئنا لنرتقي بجنسكم إلى مصاف الملائكة.. جئنا لنعرفكم حقيقة أنفسكم كي تعرفوا بعدها ربكم وخالقكم".. ولكن هو ذا الإنسان ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾..

لقد جهل أتباع الشيطان وحفدته من كلا الأطراف أنهم وقعوا في فتنة قاتمة أشعلها بأفكاره المتعصبة المتطرفة الشاذة المدلسة

العمياء عن الحقيقة الملوثة بالتاريخ المزيف.. أو من استغل هذا الانحراف الفكري عند بعض الشواذ ليشفي غليله المكبوت بإراقة الدماء وقتل الأبرياء وإثارة الفساد في الأرض بحجة الدفاع عن العقيدة..

من يقع في فتنة الدين اليوم يحقق انتصارا للشيطان عجز عن تحقيقه في يوم ما، فها هي الفتن تشتعل، وها هو الحقد يتفاقم، وها هي رائحة الدماء تغذي قوى الشـر المستترة خلف الأقنعة، ورائحة البارود تغذي عقول التعصب الجاهلية.. فإثارة المشاعر وتحريك العواطف الجياشة للدفاع عن السنة والتراث أو الدفاع عن أهل البيت من أقوى الأسلحة التي تستخدمها قوى الشر لإثارة الفتنة وإشعال الحروب الطائفية على مر التاريخ.. فمنذ القدم والتاريخ يشهد كيف تمت المتاجرة بمشاعر الناس تجاه حبهم العاطفي لعقائد معينة دون وعي وبصيرة، وكيف تمت سرقة مكتسباتهم في نهاية الأمر.. ولكن ما أكثر العبر وأقل المعتبرين.

أن يكون هناك مرضى يثيرون الفتن ويكونون حطباً لجهنم فذلك اختيارهم ولكن ما بال القوم الذين يتبعونهم ويقتفون أثرهم، أليس فيهم رجل رشيد، أين غابت روح كلمات القرآن التي يقرؤونها.. كيف انطفأت شعلة النور التي بثها الله فيهم وحُجبت عنهم الحقيقة..

مسرحية الفتنة الطائفية والمذهبية اليوم من أقبح الفتن التي عرفها التاريخ الإسلامي الحديث، فتنة خلفت الويلات، استبيحت فيها دماء الأبرياء وهتكت فيها أعراض العفيفات وترملت فيها النساء وتيتمت فيها الأطفال..

أفيقوا يا أمة السلام والإسلام وانشروا السلام في العالم.. لا يمكنكم أن تنشـروه إلا بعد أن تكتنفوه في أرواحكم وتوقروه

في قلوبكم ويتجلى في عقولكم لأنكم حينئذ تكونوا مرسى ومهبط العناية الإلهية التي لا تتنزل إلا في مرفأ السلام.

قوى الظلام.. تتغذى على أحقادكم

لا يصل وعي الإنسان مرحلة الكمال إلا بعد أن يرى صورة الخلق بكل أبعادها وتفاصيلها واضحة أمامه دون لبس أو غموض.. ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾. وإحدى أهم ركائز زوايا هذه الصورة الكبيرة، هي معرفة الطرف الثالث في معادلة الحياة.. فمن هو هذا الطرف الذي نلعنه علناً ولكننا نعبده سراً ونقدم له كل أسباب الحياة؟.

كثيراً ما نقرأ عن الشيطان في الكتب الدينية، وسواء اعتقدنا بوجوده أو لم نعتقد فهو كيان يشكل قوة ظلامية شريرة تعمل على هدم ركائز التوحيد الحق وتغييب مفهوم الألوهية المطلقة لله سبحانه وتعالى. إن الخوض في الشيطنة بحر عميق وسوف نقتصر على جانب واحد فقط وهو كيف تعمل البشرية على شحن قوى الشيطان وتوازن نبضات قلبه ليبقى حيا فعالاً مفعماً بالنشاط؟.

الشيطان لا يتغذى على العظام والقاذورات والحيوانات النافقة كما علمونا ونحن صغار، فهو لا يملك شكلاً أو جسداً مادياً لكي يمضغ العظم أو يأكل الجيف وما أشبه، هو مخلوق مغيب لذا فغذاؤه لابد أن يكون من جنس طبيعته. لذلك فهو يتغذى على المخلفات الطاقية التي يفرزها الإنسان كطاقة وكذبذبات سلبية.

فالإنسان المكتئب تصدر منه طاقة سلبية تمتصها الكيانات السلبية القريبة منه. والإنسان الذي تفوح منه رائحة الحقد يكون مرتعاً لكثير من الكيانات السلبية التي تأنس وتستلذ به.. فلو وضعت إنساناً حاقداً تحت جهاز كشف الهالة على سبيل

المثال، ستظهر لك صورة من التموجات الغريبة والشاذة.. وكل المتخصصين يعلمون أن هذه الأشكال لها وجود مادي.

ولكن ما لا يعلمه الكثيرون أن هذه الموجات أو الهالات هي غذاء للقوى الخفية التي تدير العالم في الخفاء. تتغذى على الوهج السلبي أو طاقة الأحقاد المنبعثة من القلوب التي تسربلت بالسواد. والتي تخرج من الكائن البشري حين يكون منغمساً بالحقد والكراهية، ولذلك فالقوى الشيطانية تعمل على إثارة النعرات العنصرية والطائفية والقبلية ففي هذه الأحقاد حياتها وحيويتها.

عندما نعلم أن الشيطان يتغذى على أفكارنا حتى ونحن في المساجد أو دور العبادة.. عندما نعلم أننا نؤازره وندعمه في مشروع الظلام الكبير، ألا يجب أن نعيد التفكير مجدداً في حياتنا!؟

إن قوى الظلام الآن تظهر أقوى ما تملك من سلطان معتمدة على الحقد الأسود لأتباعها، لأنها بدون هذه المساندة لن تكتب لها الحياة. لذلك فإن رسالتنا إلى كل بني البشر، أبناء آدم المتأدبين بشريعة التوحيد الخالص، الذين لم تلوثهم الاجتهادات البشرية ولم تزيفهم الادعاءات الحزبية ولم تعكرهم الفتاوى الوضعية ولم تنخرهم الاعتبارات الطائفية.. إلى أصحاب الفطرة النقية والنفوس الآدمية، أبناء النور والحياة.. أبناء الإيمان واليقين.. أبناء الحب والمحبة.. أن ينتبهوا إلى أفكارهم وقلوبهم هل جعلوها عرشاً للرحمن أم مرتعاً للشيطان؟.

كلنا يلعن الشيطان، ولكن الكثير منا يعبده بتصرفاته وأفكاره وأحقاده. فحين تفكر وتتمنى موت أخيك الإنسان فأنت بهذا الفكر تشحن قوى الشيطان وتغذيه كما لو كان أعز الخلق

إليك، حين تلعن، تسب، تقذف الآخرين بالتهم، تنشر الإشاعات القاتلة، تقتل النفس المحرمة بدعوى التصفيات الطائفية، أنت هنا تقدم حياة جديدة لقوة الشر والظلام.

ما نقوله ليس من نسج الخيال ولكنها حقيقة تحتم علينا أن نعي جوهر معادلة الحياة وأن لا نكون طرفاً ومفصلا من مفاصل قوى الظلام.

فلنوقف تغذية الشيطان وإمداده.. لنوقف الدماء التي تسيل باسم الدين، لنوقف خطة قوى الظلام.. ولنرجع إلى الله بقلوب طاهرة نقية، ولنتوج حياتنا القصيرة بشعار السلام فلا ينال محبة الله ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

المتلاعبون بالعقول

للوهلة الأولى.. حين نقرأ العنوان يتبادر إلى أذهاننا أننا سنتطرق إلى المعلومات السرية للجماعات التي تتلاعب بعقول البشر للسيطرة عليهم أو ما كشفته علوم الفيزياء الحديثة والباراسيكولوجيا حول قدرة بعض المؤسسات السرية والأصابع الخفية في توجيه وبرمجة أفكار البعض لأجل تحقيق مخططاتهم ومآربهم عبر إثارة الفتن والنزاعات والحروب وإشاعة الفوضى والدمار في المنطقة..

ليس هذا ما سنرمي إليه.. لأننا في الوقت الذي ننتقد فيه مؤسسات عالمية تقوم بهذا الدور، فإننا نعاني أشد المعاناة من المتلاعبين في داخل المنظومة الفكرية والدينية التي تعاني منها الأديان بشكل عام. بالأمس كان زرادشت يتوجه للنور واليوم يتوجه أتباعه للنار، بالأمس كان المسيح روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم واليوم جعلوه أتباعه إلها من دون الله، وتحولت روحانية المسيح إلى حروب صليبية ذهب ضحيتها ملايين البشر. بالأمس كان النبي محمد ﷺ محبة وتسامح ورحمة ورأفة ونور للعالمين واليوم يشوه أتباعه هذه الصورة بقتل الأبرياء واستباحة الدماء وبالتقليد الأعمى والجهل المركب حتى أضحى - في أمه النبي - القابض على دينه كالقابض على جمر.

تحدث كل هذه الأمور بسبب المتلاعبون بالعقول الذي يغيرون مجرى وجوهر الرسالات السماوية ويجعلونها خاضعة لأهوائهم ونزواتهم ومصالحهم، يشير رب العزة لهؤلاء بقوله: ﴿فَخَلَفَ

مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾.

فالدين.. أي دين، إذا أردت اغتياله وتحويره وقتل تعاليمه الربانية يكفيك أن تجرده من أبعاده الروحية، فالروحانية قلب الأديان النابض الذي إن توقف تحول المشروع السماوي إلى مشـروع توسعي أرضي.

لذا سنركز على فكرة محدودة تتعلق بالإجابة على سؤال في غاية الأهمية يقول: إن كان الدين يقوم على ركائز ومفاهيم روحية غاية في الدقة، إلى درجة أن الإيمان بالغيب جاء ذكره في القرآن مقدما على الصلاة والزكاة لأهميته في العقيدة الإسلامية ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، فلماذا تم التعتيم عليه وتغييب جملة من القيم والمبادئ الروحية من المنظومة العقلية للمسلم؟ لماذا تم التلاعب بتشـريح الدين لاستئصال روحانيته وإظهاره بصورة مغايرة لما جاء به الوحي المقدس؟

تأتي أهمية هذا السؤال لاعتبارين، الأول: ما نلمسه من استغراب ودهشة لبعض الإخوة والأخوات الذين يتساءلون حين نطرح بعض المفاهيم الروحية سواء تلك التي تتعلق بذات الإنسان وروحه، أو التي تلامس قلبه ووجدانه، أو تعرج به في آفاق الخلق وبداية التكوين وتقطع به شوطاً في العوالم الأولى للوجود.. فيتساءلون: إن ما تتطرق له من مواضيع على الرغم من أهميتها وحساسيتها وقربها من الحقيقة والوجدان إلا أننا لا نجد شبيهاً لها ولا مثيلاً في الكتب والمصادر التي اعتدنا الرجوع إليها.. فمن أين لك هذا؟

الاعتبار الثاني: نعتقد اعتقاداً كبيراً - والله أعلم - أن هناك حملة إلحادية أو لا دينية منسقة كبيرة سوف تكتسح العالم

الإسلامي خلال السنوات القادمة.. حملة شعواء شرسة لم ير التاريخ لها مثيلاً، سوف تقتلع العديد من الأسس والمبادئ التي يقوم عليها ظاهر الإسلام والعقيدة اليوم. بدأت هذه الحملة منذ سنوات وانتشرت في العالم الإسلامي كانتشار النار في الهشيم، تقوم على عدة محاور بحيث يصعب التصدي لها. وسوف نقوم بتناول هذا الموضوع بالتفصيل لخطورته لاحقاً.

ولكن ما نود قوله.. أن صورة الإسلام اليوم الماثلة بين أيدينا والتي عمد البعض على تشويه تعاليمها وتطعيمها بالخرافات والأساطير والأفكار الهامشية لا تسعفنا للتصدي وردع هذه الحملة الشعواء. لن يكون أبناؤنا وأحفادنا بمأمن من الانجرار خلف موبقات الإلحاد إلا حين نرجع إلى أصولنا الروحية من جديد، نُرجع الإرث الذي تم نهبه، والفيض التي تم طمسه. لا يمكننا مجاراة المرحلة القادمة ما لم نقم بإبانة ونشر وعياً حقيقياً قائماً على أسس ومبادئ روحانية في تفسير وتحليل مفردات هذا الدين العظيم..

فالدين القائم على أسس روحية متينة رصينة لا يمكن النيل منه أو المساس بمعتقداته لاندماجه وتماشيه ورسوخه مع الفطرة البشرية السليمة والعقل الواعي والقلب المتفقه، أما ما هو ماثل بين أيدينا اليوم والذي يقوم على أفكار وآراء واجتهادات واحتمالات وخيالات بشرية فسوف يؤدي إلى انحراف آلاف من أبنائنا بعد أن يكتشفوا بالأدلة والبراهين - التي تسوقها هذه الحملة - عدم مصداقيتها. المتابع والراصد لأعلام ومنسقي هذه الحملة يعلمون جيدا ما نقصد، فالأمر بات خطيراً إلى درجة دق ناقوس الخطر.

لهذين الاعتبارين نتناول هذا الموضع، سنشرع في بيان الاعتبار الأول ونترك الثاني لنفرد له موضوعاً مستقلاً..

ولكن..

كيف تم استئصال الأبعاد الروحية من الدين؟

سؤال الإخوة واستغرابهم من الأفكار الروحية ناشئ عن برمجة عقلية مفاهيمية خضعنا لها وهيمنت علينا قرونا وأحقابا طويلة من الزمن. برمجة عمدت للتقليل من شأن المفاهيم الروحية والتعتيم عليها في مقابل تدعيم الأفكار التي تتماشى مع الرؤية التي تخدم إرادات السلطة الدينية والسلطة الحاكمة آنذاك..

تم تأكيد وتوثيق وإقرار الجانب المادي في الدين ووضعه في مقدمة الأمور التي ينبغي تعلمها كالمسائل والأحكام الشرعية الموجهة للسلوك الظاهري العيني المتعلقة بأفعال الإنسان وعباداته كحرمة الخمر والسـرقة ووجوب الصيام والصلاة وما أشبه. وأغفلت العلاقة الروحية التي ينبغي أن يعيشها الإنسان في حياته. أغفلت العلاقة الحقيقية والعملية والفعلية بين الخالق والمخلوق. وخلصت إلى أن الشـريعة تنحصر في بيان فعل الأشياء أو تركها، أو التخيير بين الفعل والترك، بالأحرى مجرد أوامر ونواهي.. أفعل أو لا تفعل، فإن فعلت تكن من الناجين وإن لم تفعل كنت من الخاسرين. وهذا خلاف النظرة الروحية للدين التي تتخطى هذه الحدود الظاهرية إلى تطور تصاعدي يصل فيها الإنسان إلى محل القرب الإلهي ليس بعد موته وإنما أثناء حياته كذلك.

كما جاء في الحديث الشـريف: "عبدي أطعني تكن مثلي أقول للشيء كن فيكون، وتقول للشيء كن فيكون".

لذلك يعتقد السواد الأعظم من المتدينين أنهم في حالة من الكمال الديني لأنهم يؤدون ما عليهم من واجبات مفروضة من صلاة وصوم وحج وزكاة.. إلخ. تتخللها بعض أخلاقيات التعامل مع الآخرين.. وهذا كل شيء.

فالحياة في نظرهم فترة لأداء تكليف لما نحن مطالبين به، ننجز من خلالها طقوسنا العبادية وحين ننتهي منها ننال جائزتنا المناسبة. لم يخلق الله الحياة لتكون بهذه المحدودية القاصرة، بل خلقها لتكون أداة معراج للأرواح المتطورة الصاعدة التي تهاجر إليها بعد اختبارات شتى في عالم الروح.

الحياة التي نعيشها اليوم تختلف عن الحياة الحقيقية والجوهرية التي ينبغي أن نحياها في حياتنا.. الحياة الطيبة التي وعدنا الله بها لا تتحقق بأداء التكاليف الشرعية الحركية والأعمال الصالحة فقط، فبدون الآفاق الروحية لن يكون لهذه الأعمال غاية ترجى. لقد وعدنا الله بحياة طيبة آمنة كريمة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ.. ﴾ فالعمل الصالح لا يعول عليه دون إيمان ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، والإيمان هو استشعار الحالة الذوقية والروحية مع الله.

لذلك حين لا نتلمس وقع الحياة الطيبة في حياتنا ينبغي أن نراجع أنفسنا وننتبه أن ثمة خللا ما في منظومتنا الدينية.. وإلا كيف نعتبر أنفسنا مؤمنين مع كل صور التأخر والنكوص والتقهقر والتثاقل والتخلف والتقصير والمعاناة والعداوة والطائفية التي نعيشها.. فحين يعدنا الله بشيء ولا نجده متمثلاً ومتجسداً في حياتنا، ينبغي عندها أن نتوقف ونراجع أنفسنا ونعيد حساباتنا من جديد. هل نحن على المحجة والطريق السليم أم لا؟ هل هناك ثمة خلل في طريقة حياتنا وفهمنا لحيثيات الدين ومبادئه.

ولا تعني الحياة الطيبة أن نكون بمعزل عن المنغصات والمعاناة، ولكن حين لا تكون أرضيتنا راسخة قوية وعميقة في الجانب الروحي، فإن صور المعاناة والألم تستحوذ علينا وتتمكن منا، وتحيل حياتنا إلى بؤرة توتر وترقب وتوجس. في حين أن ما

يشعرنا بالأمان والسكينة هو الفرار لموطننا الأصلي، واللوذ بذاتنا الحقيقية وروحنا القابعة في أعماقنا، لأننا حينها لا نبالي ولو تكالبت علينا ابتلاءات ومشاكل وهموم الدنيا، وهذا لا يحدث إلا حين التماهي مع الأبعاد الروحية.

فشعور الإنسان بالمعاناة والألم والشقاء ينشأ لبعده عن موطنه الحقيقي الداخلي وتواصله واتصاله بمصدر القوة والقدرة. وهذا البعد يجعله كأغصان الشجر الذي تتمايل مع كل ريح ذات اليمين وذات الشمال، بل يكون مستقطباً للعديد من المشاكل والمؤثرات التي ترد عليه من الخارج، فبابه مشّرع لكل المؤثرات والحوادث الخارجية، حتى بدائله لحلول هذه المعضلات أو للتفريج عن الكربات يستجديها من خارج موطنه الحقيقي.

الصورة الحقيقة (التي ينبغي أن نكون عليها) حين تداهمنا الحوادث والآلام والأحزان تكمن في هروبنا إلى الدخل، نفر من الظاهر إلى الباطن، ذلك أن الباطن هو الشعلة التي تتوقد بزيت القدرة الإلهية والمعرفة الربانية. فقلوبنا المشتعلة بنور المدد الإلهي تمتص هول مشاكلنا وتحتويها وتفهمها وتقبلها عن حب ورضا وتسليم كونها جزء من واقع حياتنا ولها صلة وثيقة بمسيرتنا التطورية.. وبالتالي فإن ما نعيشه اليوم وما نراه من ردود فعل غير متوقعة من غضب وتذمر وعصبية وقتال وفوضى، سببه الحقيقي أننا أضعنا هويتنا الروحية، أضعنا بيتنا وموطننا الأصلي في أعماقنا، هربنا من الباطن إلى الظاهر كي نستجدي منه العون والمساعدة.

الخلل الذي منيت به أمتنا حدث حين تم تهميش الأبعاد الروحية في عقيدتها، حين تم انتزاع الركن الوثيق من منظومتها الفكرية وتغييبه عن العقلية الإسلامية، بل ومحاربته والانتقاص من شأنه. بتنا نعمل بكفاءة عالية فيما يتعلق بتشريع الأجساد وما يتعلق بها من استنباط، وشيدنا آلاف

المدارس والمؤسسات التي تنبش في الماضي والتأريخ وتحفظ تراث الأولين دون وعي وتمحيص، مؤسسات تُبرمج أتباعها على التلقي دون تفكر، وعلى الحفظ دون تحقق، وعلى التفقه دون تثبت، وعلى القراءة دون تدبر وتأمل.

فتعلقت عقيدتنا برسوم وأشكال الحركات الظاهرية وتقنية أداء العبادات المفروضة.

السواد الأعظم يجهل جذر مشكلة التخلف الحقيقي، لأنه عاش في فترة (لم يبق من الإسلام إلا اسمه، ومن القرآن إلا رسمه) لأنه فتح عينيه في حياة تسير على دروب الأمور الظاهرية، لا يرى أي مرفأ روحي يمكنه أن يرسي سفينته فيه ويتزود من معين المعاني ونفحات الروح.. يحضر الخطب والمنابر والدروس فلا يسمع سوى قصصاً وروايات وأحداثا تاريخية أكل عليها الدهر وشرب، وإن كان الناطق حاذقاً محنكاً فسوف يتناول بعضا من الأحاديث الأخلاقية. آلاف المنابر تعقد يومياً في مختلف دول العالم، ماذا حققت من إنجازات وأهداف؟ هل هناك تطور في الوعي البشري أم تدني للحضيض وهروب من التدين؟

السواد الأعظم يجهل المبادئ الأولية للروحانية التي تعتبر عماد الأديان وعروتها الوثقى..

المتلاعبون بالعقول أشبه بغربال غطي أفق التعاليم الروحية والحكمة المتعالية في منظومة الفكر الإسلامي.. يريدون الحياة تسير وفق رؤيتهم المادية المصلحية البعيدة كل البعد عن الهدف الإلهي لخلق العالم.. كان الرأي الواحد والأوحد هو الماثل وكل من يتجرأ على مخالفته يُنفى أو يُبعد أو يقتل. سطوة المتنفذين فيما مضى كانت أشد ضراوة من سطوة الحاكم. لم يكتفوا بتوجيه الناس خلاف الأبعاد الروحية بل عمدوا إلى تحوير

وتزييف معاني العديد من النصوص القرآنية والروايات والأحاديث الشريفة لأنها تخرج عن مسار معتقداتهم..

ولنأخذ مثالا على ذلك حتى تتضح الفكرة.. الصمت

كم مرة طرق سمعنا مجلسٌ يتناول قيمة وأهمية الصمت من الناحية الروحية؟ وكيف يصفو الفكر من خلاله من الكدر.. فـ"الصمت روضة الفكر".

هل سمعنا يوماً عن هذه الأحاديث:

- "إن من كان قبلكم كانوا يتعلمون الصمت وأنتم تتعلمون الكلام، كان أحدهم إذا أراد التعبد يتعلم الصمت قبل ذلك بعشر سنين فإن كان يحسنه ويصبر عليه تعبّد، وإلا قال: ما أنا لما أروم بأهل"..

- "إن الصمت باب من أبواب الحكمة، إن الصمت يكسب المحبة، إنه دليل على كل خير"..

- "إذا رأيتم المؤمن صموتاً فأدنوا منه فإنه يُلقى الحكمة"..

- "دليل العاقل التفكر، ودليل التفكر الصمت".

لا أعتقد أن الكثيرين قد سمعوا بهذه الروايات والأحاديث التي تبني من خلالها أسس المفاهيم الروحية. والتحوير الذي يحدث في هذا الموضوع أن الصمت حين يتم تناوله ليس في بعده الروحي ولكن في بعده الأخلاقي فقط كالأحاديث التالية: "من صمت نجا" أي من صمت نجا من آفات اللسان كالغيبة والبهتان والإثم..

يتبين من ذلك كيف أن الصمت الذي تقوم عليه ركائز أساسية في الأبعاد الروحية كيف تحول إلى مجرد السكوت عن فضول الكلام، أو كف اللسان وإمساكه عن التلفظ بما لا ينبغي أن يقوله من كذب وغيبة وما أشبه.. هم لا يعلمون الفرق بين السكون والصمت..

المتأملون يعرفون حقيقة الصمت، المؤسسات العالمية التي تدرس المبادئ الروحية تعلم جوهر الصمت، الرسول ﷺ يعرف حقيقة الصمت، لذلك كان يمارسه أياما طويلة في غار حراء قبل البعثة. الأولياء الصالحون كانوا في صمت ليس لأنهم يريدون ربط ألسنتهم وتقييد ألفاظهم حتى لا يتكلموا بالغيبة والنميمة والعياذ بالله وإنما لأن صمتهم يقربهم من همس الملائكة وعالم النور.. وأين هذا من ذاك..!

ولا نستثني أحداً من هذه البرمجة التي بدأت في عصور متقدمة، فكلما ابتعدنا زمنيا عن مصدر التشريع (الرسالة أو النبوة) كلما ازدادت كثافة وقوة هذه البرمجيات العقلية والتحوير الذهني، ذلك أن أية رسالة أو إرشاد إلهي يتحول من تجربة روحية إلى عملية ديناميكية تتوارثها الأجيال جيلا بعد جيل ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ.. ﴾ تفرغ من مضمونها الرسالي الحقيقي لتتماشى مع مصالح عليَة القوم على اختلاف مشاربهم وأهدافهم.

لا يكفي أن ننادي بأعلى أصواتنا بضرورة تبني الأخلاق الفاضلة واحترام الآخر على المنابر، لا يكفي أن نُسخر قنواتنا الفضائية في تعليم الناس أهمية الحياة والعيش الطيب، فهذا لا يكفي إطلاقا، فخلف هذه النداءات يكمن ظلام دامس تشبعت به عقولنا ومعتقداتنا ينبغي تصفيتها وتنقيتها أولاً.

الأرضية التي تنطلق منها نداءات الأخلاق تستوطنها فيروسات قاتلة زرعها المتلاعبون بالعقول. والتي من الأولى والأهم أن يتم التخلص منها أولاً.

ينبغي أن ننبه الناس إلى خطورة البرمجيات التي غرست في عقولهم منذ أجيال مضت. ينبغي النظر إلى الدين نظرة روحية مفعمة بالحياة والإشراقة والتطور الحضاري. ينبغي الرجوع

إلى ينابيع الأصول حيث الأمان والاطمئنان لنستلهم منها المبادئ الحقيقية للدين. ينبغي أن يدرك الناس حقيقة الألوهية بكمالها وجلالها وعظمتها وننفي عنها الشبهات البشعة التي نسبناها إلى الله. ينبغي أن نعلم العالم كيف يعرفون الله بأنفسهم ويتقربون إليه روحياً. نبين أن السعادة الحقيقية تكمن في عودتنا لبيتنا الحقيقي، في أعماقنا، في أرواحنا، في حبنا لله ولرسوله ولأوليائه. إن قلباً مليئاً بالأحقاد لا يمكنه معرفة الله، وإن فكراً ملوثاً بالآراء المتوارثة لا يمكنه إدراك حقيقة الألوهية.

سيأتي بدين غير دينكم..

هل مرت عليك هذه العبارة؟ هل سمعتها من قبل؟

نعم.. أغلبنا قد سمع بهذا الحديث، ولكن إن كان سيأتي بدين جديد فما طائل الدين الذين بين أيدينا؟ كيف نؤمن ونعتقد بدين وهو سيأتي بغيره؟ ألم يثر فينا هذا الحديث هذا التساؤل؟

في الحقيقة هو لن يأتي بدين جديد، بل سيرجعنا إلى الأصل الأول، إلى حقيقة القرآن الروحية. ولكن لشدة ابتعادنا عن الدين الحقيقي اليوم، يُخيل لنا أن ما سيأتي به هو دين جديد غير هذا الدين لشدة التفاوت بينهما. سيرجعنا للأصول الروحية التي تجلت في بصائر الوحي المقدس على قلب الحبيب المصطفى ﷺ لذلك سينقلب عليه المتلاعبون بالعقول كما جاء في الأثر: "ستنكره الخاصة ويؤمن به أشباه عبدة الكواكب من الشمس والقمر"..

لا تنتظر ظهوره أو خروجه أو مجيئه.. بل اذهب إليه بنفسك.. دعك من الذين يجلسون ويندبون، فهم نيام لا يعلمون، هم لا يعلمون ما ينتظرون، فلقد تبرمجوا على الانتظار، ولا انتظار في دين الله الحق، بل حق وحقيقة وصلة وتواصل ومدد فياض وحب يشمل العالم.

إن كنت تحبه.. تعشقه.. اذهب إليه.. لا تنتظره.. اسع في تحقيق وتجلي رسالته، اسع لتوسعة وعيك لتعرف حقيقة الدين الروحي الذي سيغمر العالم.

كن نقياً في سريرتك طاهراً في قلبك واعياً في عقلك مدركاً في فؤادك بعيداً عن كل أدناس البرمجيات التي توجه العقول. داعياً إلى دين السلام والمحبة والفطرة والتناغم الروحي مع الخلق مسلماً روحك للخالق.

من يتجه قلباً وروحاً إلى الله يكتشف الصورة الكاملة للحياة، ويتعرف على المستنقعات التي غاصت بها البشرية حتى النخاع. يكتشف أن الحياة من أهم مراحل تطور الإنسان، لأن الحياة تجربة روحية في لباس بشري مادي، وليس تجربة مادية في لباس روحي. ففي الحياة تتداخل العوالم الروحية والمادية التي أصبحت عند علماء الفيزياء الحديثة عملة واحدة تختلف في درجتها فقط. مما يعني أن بمقدور الإنسان (المادي) أن يُحلق في محيطات الأفق الروحي الذي لا نهاية له ولا قرار. وعندها سيتخطى عتبه البرمجة التي نشأ عليها، وسيرى جلال وجمال العالم من خلال بصيرته الوقادة.

حين يتذوق اللسان حلاوة السكرين، لا يعد يشعر بطعم المأكولات الأخرى، وبنفس الطريقة عندما تكون حواس الإنسان وقلبه وروحة مشبعة بحب الله ومتذوقة لغبطة أنواره ووجوده حينها تسقط كل برمجة بديلة، أو مصلحة آنية، أو حزبية ضيقة، أو مذهبية وهمية في أن تعكر صفوة هذه الغبطة.

ينبغي أن نعود إلى القوة المطلقة في الكون ونستشعر وجودها على الدوام، وأن نتناغم معها في كل مناحي حياتنا، وأن ننشر السلام والمحبة والوفاق لأنها البرمجة المضادة لبرمجة المتلاعبين بالعقول.

رجال لا يخطئون

العلماء ورثة الأنبياء.. الذين تبسط لهم الملائكة أجنحتها.. هذا ما صرحت به الأحاديث الشريفة التي أولت أهمية كبيرة لطالب العلم والعلماء.

إلا أن النزعة البشرية للتقديس وضعت العلماء في مصاف الأنبياء المعصومين ونزهتهم عن الزيغ والخطأ والاشتباه وأن كل ما يصدر عنهم هو الحق المطلق وما دونه هو الباطل المطلق. فلا نقاش في آرائهم، ولا جدال في معتقداتهم، ولا ملاحظات في تصوراتهم، ولا هوامش نقدية على أقوالهم، فرموز السؤال (كيف، لماذا) ملغاة في قاموس الحوار.. فلا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم، "وأتركها بذمة عالم واطلع منها سالم".. أي أن هناك من يفكر عنك ويقرر ما يمكن فعله وعمله.. أما أنت فعليك أن تطيع وتلتزم بما يقال وهكذا يسير سيناريو حياتك.

إن العلماء تيجان على رؤوس الناس جميعاً حتى من يخالفنا منهم في الدين والعقيدة كما أعتقد، وحتى من يقال عنهم بأنهم علماء (دنيا) كعلماء الغرب الذين حققوا العديد من الإنجازات التي خدمت البشرية.. فكل من قال كلمة حق، أو حقق إنجازاً خدم فيه العالم أو الطبيعة أو قرب بين علاقة الإنسان بربه له حق علينا نجله ونقدره ونحترمه.. إلا هذا لا يعني التقديس المطلق لكل ما يقول.

فعندما ننتقد بعض الآراء الفلسفية والدينية لعلماء مبجلين ومحترمين ونطرح الآراء الأخرى المغايرة التي تتوافق مع

الفطرة السليمة وبصائر الوحي.. نفاجأ بمن يقول: من أنت حتى تنتقد فلان العالم.. إن فلانا لا يخطئ.. هل من الممكن أن يخطئ بعد كل هذا العلم، وبعد كل سنوات الدراسة والبحث؟

وكأن مقاييس الحق والحقيقة يتحدد معالم صدقها بالأقدمية أو بفترة طول العلم والدراسة أو بكثرة الأتباع والمريدين..

احتد نقاش وجدال مع صديق لي حول مسألة شرعية كانت لا تتوافق مع الرؤية الإسلامية العامة، وكالعادة في نهاية كل حوار نسمع الكلمة المعهودة "من أنت حتى تعارض أو تنتقد العالم الفلاني".. وبعد فترة من الزمن أفتى العالم بتغيير المسألة الشرعية بما يتناسب وما ذكرنا في الحوار.. فأخذت قصاصة الورق وذهبت بها إلى صديقي الذي قرأها ثم ابتسم وقال: "نعم.. الآن يكون رأيك صحيحاً" بمعنى أن الحقيقة قبل الفتوى كانت خاطئة وبعد أن استدرك العالم فتواه أصبحت الحقيقة صائبة وصحيحة.

لقد دحضت الأحاديث الشريفة شرنقة التقديس في مواقع كثيرة منها "أنظر إلى ما قال ولا تنظر إلى من قال" و "من قال أنا أعلم فهو لا يعلم" وغيرها.. كما يدعونا القرآن وبشدة إلى السؤال والاستعلام عن أمور ديننا لا في معرفة ذات المسألة ولكن في طريقة الوصول إلى الحكم الشرعي فيها، أو تفهم البصيرة القرآنية وهذا ما لا نجد إجابته، فالكل يقول: "خذ ولا تسأل".

إن تقنين الفكر والثقافة بما فيها أعظم كتاب سماوي من خلال فكر وتصورات نخبة من العلماء فقط يعد انتقاصاً مدمراً للمفهوم العقلي في الإسلام وتعتيماً مفتعلاً لتوجيهات الوحي، واستهانة بقدرات الإنسان الروحية، وتغييباً لملكة البحث التي أكدتها ديانات السماء جميعاً.

لا أحد من الباحثين المنصفين ينكر وجود كماً هائلاً من الأفكار والتصورات التي تأسست على أرضية تاريخية مشبوه من الأحاديث والروايات التي دُست في المنظومة الفكرية الإسلامية وتشربت منها في مراحل متقدمة من التاريخ، وامتزجت بالوعي العام والثقافة المحكية والمدونة، بل أصبحت جزءاً رئيسياً في البناء الأيديولوجي والمعتقدات الأصولية منها والفرعية. ولكننا مع الأسف الشديد نفضل الصمت والكتمان والانصياع للوعي الجمعي عن التبصر والتحقق في كل ما يرد علينا أن نتبناه في حياتنا..

هذا التقديس نتجرع ويلاته كل يوم.. فلا أحد يجرؤ أن يُغير أو يعدل المفاهيم الخاطئة الموجودة في أمهات الكتب والتراث القديم.. لا أحد بمقدوره أن يأتي بجديد غير نقل ما تم تدوينه منذ مئات السنين، لا أحد لديه الشجاعة الكافية ليطرح أطروحة يفند فيها رأي عالم أو ينتقد فيها مسألة فقيه أو يتناول فيها تصحيح لمفاهيم دست في منظومتنا الفكرية شعائرية كانت أم عقائدية..

التقليد الأعمى للتراث الفكري وتقديس الإرث الثقافي أحد أهم الركائز الأساسية التي يستند عليها الإلحاد اليوم الذي بات ينتشر كالنار في الهشيم، فقد بات كل شيء بالعراء مكشوفاً للجميع بعد عالم الفضائيات ووسائل التواصل الاجتماعي. فالجيل الجديد الذي تربى على النقد والسؤال بدأ يطرح العديد من الأسئلة التي لا يجدون لها إجابات شافية وافيه تقنع عقولهم العطشى، فيلجؤون لمن تكون إجابتهم جاهزة للنيل من الإسلام والديانات السماوية بشكل عام..

وإذا كانت تربية الأبناء في البيت الواحد ينبغي أن تتغير مع الزمن "لا تؤدبوا أولادكم بأخلاقكم، لأنهم خلقوا لزمان غير زمانكم" ليس في بعد القيم والأخلاق العامة وإنما في الوعي

والقدرة على محاكاة الحياة، فكيف بالمجتمع والأمة والعالم. في الماضي لم يكن أحد يعترض أو يُفند حديث نشوء المد والجزر في البحر، فكما جاء في الحديث عن ابن عباس، أنه سئل عن المد والجزر فقال: "إن الله عز وجل وكّل ملكا بقاموس البحر، فإذا وضح رجليه فيه فاض وإذا أخرجهما غاض". أو حديث آخر يذكر أن نهر النيل ينبع من الجنة، وأحاديث كثيرة تتعلق بالخلق والكائنات والغيبيات والجنة والنار والناسخ والمنسوخ دست من الإسرائيليات في منظومة الأحاديث.

شبابنا اليوم لا يقتنع بمثل هذه الأحاديث التي حفلت بها أمهات الكتب، التي ينبغي أن تصحح أو تفند أو تحذف، وأن نسعى لنقلة نوعية توعوية تعيد أسس العقائد إلى مسارها الصحيح بما يتلاءم والنص الإلهي والفطرة الإنسانية والعقل الراشد والقلب السليم..

الوعي البشري في ارتقاء وتطور مستمر.. لذا ينبغي أن ندرك عقائدنا بما يتناسب وسنة الله في تطور الوعي.. وإلا لماذا يقول حبر الأمة عبدالله بن عباس: "لا تفسروا القرآن الزمن يفسره". لأن الوعي آنذاك لم يكن بمقدوره أن يفهم حقيقة بعض الآيات الكريمة وعمقها الباطني. وبالتالي فهل يُعقل أن نفهم القرآن الآن بعقلية مفسر أو شارح له قبل 1000 عام..!؟

في يوم ما ستتوالى علينا أحداث آخر الزمان التي باتت قريبة كقطع الليل المظلم يصبح فيها المرء مؤمنا ويمسي كافراً ويمسي كافراً ويصبح مؤمناً.

وفي هذا الواقع المرير لن تسعفنا هذه الآراء والتصورات في تحمل أعباء وخطورة المرحلة القادمة، لن تنتشلنا من الأوهام التي سيقع فيها الكثير من الناس. ولعلها ستكون من أكبر الفتن في تاريخ البشرية.. فكيف وقد تربينا على أفكار ومعتقدات

وفتاوى صارمة واليوم سيتغير أغلب ما آمنا به.. بين ما كنا نعتقد ونقدس وبين الواقع الجديد سنعيش فترة ضياع وتذبذب لا ينتشلنا منها إلا رحمة الله وعنايته.

رسالة في زمن التيه

البحث عن الحقيقة ديدن الحس الفطري في الكيان البشـري، والهاجس الذي يؤرق العقل الإنساني منذ الخليقة، وما قصة قربان هابيل، وكواكب إبراهيم، وطور موسى، وسياحة عيسى وخلوة محمد - على أرواحهم المباركة أزكي التحية السلام - إلا لإشعال ومضة الحقيقة القابعة في أعماق النفس واستنارة الباطن بالمعارف والعلوم التي تجعل منه خليفة الله في الأرض..

فقربان هابيل تجسيد للحب والعطاء، وكواكب إبراهيم موسوعة من التدبر والتأمل في فضاء الوجود، وطيور موسى تحليق في عالم المعرفة الروحية والتجليات الإلهية، وسياحة عيسى مدرسة من الحب لا تحده الأقاليم والأمصار، وخلوة محمد ﷺ تجسيد للتفكر ووله للمدبر وشوق للمبدع المصور..

وبالتالي فإن كل هذه المفاهيم (العطاء، التأمل، المعرفة، الحب، الخلوة) مفاتيح الحقائق النورانية والإلهامية في النفس البشرية.

ولم تكن قصص الأنبياء الذين ذكرهم القرآن الكريم للتسلية والمتعة بل إن في قصصهم عبرة ومنهج حياة تقربنا من الحقيقة.. ووسيلة نكتشف من خلالها وميض أرواحنا.. ودروساً نستنهض بها معالي نفوسنا.. وهنا يكمن جوهر الدين وغايته.. بل أن محور كتاب السماء يركز عبر آياته وهديه على المثابرة والسعي والمجاهدة للوصول إلى هذه الغاية.

إلا أن تأكيد القرآن لهذه المفاهيم شيء.. والعمل بها شيء آخر، فالسواد الأعظم عكف عنها إما جهلاً أو طيشاً ولهواً أو استكباراً

وعناداً، فتحول مفهوم الدين والطقوس الدينية إلى شعائر فارغة المضمون، وقشور خالية الجوهر.. فابتعدنا عن الحقيقة وعن محور الحق ونقطة النور..

التبس الحق علينا وأعمى الجهل أعيننا ومنينا بجهل مركب، فلا نعلم أننا لا نعلم، أو لا نعلم أننا نجهل.. وكانت هذه الطامة الكبرى التي أخبرنا عنها رسول الله ﷺ وما سيأتي من بعده: "ليضاعفن عليكم التيه من بعدي أضعاف ما تاهت بنو إسرائيل" لقد تاه بنو إسرائيل في صحراء الجهل أربعين سنة، أما نحن فقد تهنا أضعاف ذلك ولا نزال في تيه يزداد يوماً بعد يوم.. تتسع هوته كلما تحول الدين إلى قوالب صماء ومعتقدات طائفية وحزبية ومصلحية يدعي قادتها الحق والعلم والقدسية وهم لا يفقهون من الإسلام إلا اسمه ومن القرآن إلا رسمه..

نزداد تيهاً كلما جعلنا الخلاف العقائدي محور حياتنا تستعر ناره في المنتديات الهابطة في القنوات الفضائية وعلى شبكات الانترنت..

نزداد تيهاً مع كل قطرة دماء بريئة تسقط على الأرض أو سيارة مفخخة بالحقد الأعمى تحصد أشلاء الضحايا الأبرياء..

نزداد تيهاً مع كل صلاة نصليها لا توصلنا إلى الله، ومع كل بزوغ فجر لا تستنير به أرواحنا بنور الله.. نزداد تيهاً كلما كبلنا عقولنا بالتقليد الأعمى وطمسنا آفاق فكرنا بالسفاسف والملهيات وغصنا في عالم من الجهل والرتابة والدعة فيخيل إلينا أن هذه طبيعة الحياة ولا شيء غيرها..

نزداد تيهاً كلما ادعينا أننا أبناء الله وأحباؤه وأننا أصفياء خلقه وخاصته، وأننا على منابر من نور وحدنا.. وقلوبنا تعشعش فيها الغربان وصدرونا تسكنها الأحقاد وأفكارنا تملؤها الأوهام ونفوسنا تحجبها الآثام..

نزداد تيهاً حين لا نذكر المنعم كما ينبغي أن نذكره، فلا نرطب ألسنتنا بأسمائه ولا تلهج قلوبنا بآلائه، ولا تفيض نفوسنا بأنواره..

نزداد تيهاً كلما سرنا وراء كل ناعق دون أن نتدبر أقواله، أو نستنكر أخطاءه.. نقدسهم ونتخذهم أرباباً من دون الله..

نزداد تيهاً كلما ركزنا جل همنا خارج ذواتنا وجعلنا الدنيا، الجاه، المنصب، السمعة، الملك، المتعة أكبر همنا..

حقاً.. إننا في زمن التيه.. التيه الذي بدأ منذ ابتعدنا عن المحجة البيضاء، فأضحت حياتنا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء. نحسب أننا على حق وصواب بينما الديار قائمة والقلوب خراب.

ما أحوجنا إلى وقفة جادة مع أنفسنا.. إلى هزة عنيفة نستفيق بها من غفلتنا، بحاجة إلى أن نعيد بناء ما تم هدمه وترميم ما تم اقصاؤه ونبذه، بحاجة إلى إعادة البناء الروحي للأمة والأسرة والفرد، إعادة صيغة التفقه في الدين بمعناها الروحي القرآني الواسع، بحاجة إلى تعلم فنون الذكر والعطاء والمعرفة والحب والتأمل والخلوة لكي نقترب من الحقيقة، حقيقة وجودنا ونشعل السراج المظلم بأعماقنا لنكون ممن ينجيهم الله في هذا الزمن.. زمن التيه.

العلمانية.. وتشويه الأديان

لقد أصبح تبني المنهج الروحي في معرفة الحقائق أمراً ملحاً ضرورياً.. فالعقلية المؤمنة ينبغي أن تشيد على قاعدة روحية محكمة متشربة ببصائر الوحي والوعي الذي يشمل مختلف جوانب الحياة. فالله أمرنا أن ندعو إليه على بصيرة ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ والدعوة إليه ببصيرة يتطلب الجرأة والشجاعة لإعادة صياغة العديد من المفاهيم والمعتقدات والأفكار التي أخذت مأخذ التسليم والتبعية والتي غرست في عقول وأذهان الناس على الرغم عدم مصداقيتها وابتعادها عن الحقيقية.

فثورة المعلومات التي انتشرت في الآونة الأخيرة، كشفت العديد من المعلومات والأفكار والمعتقدات التي كانت مستترة ومكنونة في كتب التراث والتي أضحت علنية بمقدور أي إنسان الاطلاع عليها، الأمر الذي مَكّن وأتاح للتيارات اللادينية والعلمانية أن تستغل هذه المعلومات والأفكار والمعتقدات غير الصحيحة والبعيدة عن المنهج الروحي والإلهي في الطعن بأصول الأديان ودعت إلى ضرورة التخلص منها لأنها تصطدم بالواقع الحياتي من جانب، ولأنها تعمل على سلب إرادة الإنسان والتنكيل به واستخدامه لأغراضها الشخصية من جانب آخر..

فالتفاسير الخاطئة.. وبعض المعتقدات التي تقوم على أسس واهية.. والأفكار المغلوطة والمشوهة التي تنقل باسم الدين التي

تزخر بها كتب التراث أنعشت نهم التيارات المعادية للأديان والتي سخرت كل جهودها لكشف المتناقضات فيها وبيان صور الأخطاء الفادحة التي قال بها الأقدمون. وهذا ما حدا بشبابنا أن يتعلقوا بحبائل وشراك العلمانية واللادينية.

توجه شبابنا للتيارات العلمانية اليوم في الدول العربية والإسلامية بشكل كبير لم يأت نتيجة اطروحاتها ومفاهيمها المعرفية، أو تناغمها مع الفطرة الإنسانية، أو لمصداقية أبحاثها ونقدها البناء تجاه الأديان، ولكن لأنها اتخذت منهج التشكيك في الأصول، وأثارت العديد من التساؤلات حول آراء ومعتقدات المتأخرين من العلماء والفقهاء الذين كانت رؤيتهم محدودة وقاصرة في فهم وإدراك العديد من المفاهيم الدينية أو معاني المفردات القرآنية..

فالأجيال اللاحقة أصبحت مدركة وواعية وباحثة ومتسائلة، لا تنطلي عليها مقولات الأخذ بالتسليم.. لم تعد قادرة على تحمل محدودية الوعي العقلي الذي عاش به الأولون السابقون من الذين أسسوا للعقيدة النقلية المكتوبة وفرضوها على الناس عنوة وجعلوها الفيصل في إيمان الإنسان فقالوا "لا يكمل إيمان المرء إلا بالأخذ بها" في حين أنها بعيدة كل البعد عن الحقائق الروحية والفطرية والقرآنية.

فالصياغة القديمة لأسس ومبادئ الدين ونصوصه المقدسة تمت بإمكانات محدودة وأدوات قاصرة، وبالتالي لم يتم استيعابها وفهمها فهماً شاملاً ومتكاملاً، واقتصرت على وعي وفهم العالم أو المفكر أو المفسر آنذاك.. وهذا لا يختص بالجانب الديني فقط، فكثيراً من الفلاسفة والمناطقة والمتكلمين وحتى العرفاء الذين كانت آراؤهم وأقوالهم في حينها مجالا خصباً للجدال والنقاش، أصبحت فيما بعد مجرد ترفاً فكرياً لا يعول

عليه، يود الواحد منهم لو يرجع للحياة مرة أخرى ليغير كثيراً مما كتبه أو نقشه في ذاكرة التاريخ..

الدين وعي متجدد.. يعالج جرحه بذاته كالكائن الحي، ذو أبعاد تتناغم مع الوعي البشري يسير جنباً إلى جنب مع الفطرة السليمة.. ومن هنا يكون الوقوف والثبات على أقوال التراث القديمة والتكلس في بوتقة العنعنة (فلان عن فلان) دون دراسة النص دراسة تأملية عقلية، ودون استشعاره روحياً وتقنينه فطرياً عثرة كأداء أمام فهم حقيقة الدين والتطور الروحي البشري.

هناك دسائس تحاك للنيل من كل ما هو ديني.. تعمل المؤسسات العظمى على عدة جوانب لتشكيك الناس في الدين - كل الأديان وليس الإسلام فقط - فهم يريدون انتزاع روح التدين عبر تشويه صورته وإظهاره بأنه مخالف للفطرة الإنسانية وأن ما جاء به من قصص وحكايات مجرد أساطير لا وجود لها في الحقيقة.. والعمل جار منذ سنوات في عدة اتجاهات نذكر منها:

1- الترويج لنظرية التطور الدارونية كأساس للخلق، وبالتالي نفي سيناريو خلق الإنسان كما جاء في الديانات السماوية. وإرجاع بداية أصل الحياة إلى بكتيريا وحيدة الخلية هائمة في المحيط البدائي.

التفسير الحرفي للنظرية الدينية في خلق الإنسان دون الأخذ برمزية معانيها وخلفياتها الروحية جعل الكثير ينظر إلى فرضية التطور كبديل عن خلق الإنسان من طين.. فسوء تفسيرنا لآلية خلق الإنسان العملية من جانب، وتغييب مراد الله وهدفه الحقيقي من هذا الخلق من جانب آخر جعل الناس تفكر في بديل يجيبهم عن الأسئلة التي عجز

المفسرون في الإجابة عنها. بديل يمكنهم من فهم آلية الخلق بعيداً عن الأساطير.

2- تكثيف الافتراضات والفرضيات في علوم الفيزياء الفلكية كي تثبت خطأ خلق العالم في ستة أيام.. لذلك يتم صرف ميزانيات مرعبة في مشروع سيرن (CERN) وغيره في محاولة للرجوع إلى الزمن الأول وإثبات خطأ الرواية الدينية التي تؤخذ حرفياً بشكلها الظاهري في كتب التفاسير.

3- تحليل السلوك البشري وفق نظريات علم النفس القديمة وعلى الخصوص نظرية فرويد، حتى يتم تحليل كل الابعاد والمفاهيم الإيمانية والروحية بمسببات نفسية باطنة لا واعية.. فيقومون بتحليل النشوة الروحية - على سبيل المثال - والشعور الوجداني والعبادات وتعلق الإنسان تجاه الخالق بإرهاصات نفسية تحدث نتيجة عوامل داخلية باطنة في لاوعي الإنسان.. وبالتالي يتم التأكيد أنه ليس ثمة قوى خارجية خالقة تؤثر على الإنسان، فكل شيء كامن في اللاوعي. ففكرة توق المؤمن لدخول الجنة - على سبيل المثال - يتم تفسيرها على أنها رغبة الحنين المكنونة في باطن الإنسان للرجوع إلى رحم أمه، لأن الرحم كان يمثل بالنسبة إليه نعيم الجنة التي طرد منها، والتي كان يأكل ويشرب فيها دون عناء.. أما النار فهي الصدمات التي يتعرض لها في حياته ابتداء من قطع حبل السرة والختان والاضطرابات النفسية التي يواجهها في حياته.. وبالتالي فإن وجود الجنة ونعيمها ليس فكرة دينية.. فكرة لا أساس حقيقي لها في الواقع الخارجي، وإنما هي استرجاع للماضي أثناء وجوده في رحم أمه.. وهكذا يتم تفسير كل الأفكار الدينية بمنظور

نفسي يخضع لآراء تحليل المدارس القديمة الجامدة التي تركز على باطن الإنسان ولاوعيه كمحرك وحيد في حياته.

4- إثارة وإغراء النخبة المثقفة لضرورة دراسة تاريخ الأديان المقارن ودراسة الظاهرة الدينية بهدف استبدال الغايات والأهداف الروحية والدينية بأخرى واقعية مادية محسوسة..

فعلى سبيل المثال:

حين يتم دراسة ومقارنة مفهوم الحياة بعد الموت في الديانات القديمة، يجد الباحث أن فكرة الحياة بعد الموت فكرة قديمة قدم الديانات الوثنية والعصر الحجري حين كانوا يدفنون موتاهم ويضعون معهم أغراضهم الشخصية ومقتنياتهم الخاصة ظناً منهم أنهم قد يحتاجونها أو يستخدمونها في العالم الآخر. ومن هنا يعلم الباحث أن فكرة الخلود ووجود عالم روحي آخر بعد الموت ليست فكرة دينية سماوية وإنما هي فكرة راسخة مثبتة في وعي الإنسان منذ الخليقة والبدايات الأولى، سببها وأساسها الرئيسي هو الخوف من الموت والطمع في الخلود والبقاء.. بمعنى آخر: أن خوف ورهبة الإنسان من الموت وحبه للخلود غرس فكرة وجود الحياة الأخرى بعد الموت. فالحياة الأخرى ليس لها وجود حقيقي إنما هي وهم وخيال غُرس في الوعي نتيجة الخوف والهلع من الموت..!

وبالتالي فحين يعي الإنسان هذه الحقيقة، حقيقة أن العالم الآخر وهم نشأ نتيجة الخوف من الموت، فكل ما عليه أن يُبعد شبح الموت عن مخيلته فليس ثَمّ شيء آخر سوى هذه الحياة الدنيا. وعليه أن يلجأ إلى العلم ويُبحر في رحاب التقدم الطبي لكي يقضي على الأمراض أو يعمل على تأخير شيخوخته المبكرة حتى يتخلص من هواجس الموت والخوف منه.

فالغاية إذن من دراسة تاريخ الأديان المقارن -الذي يشاع في أوساط المثقفين والشباب اليوم - يهدف حقيقة إلى اقتلاع الإنسان من جذوره الروحية والنزوح بكل السلوكيات والأفكار الدينية إلى بعدها المادي وتخطي عتبة الإيمان أو الاعتقاد بوجود الخالق.. وليس كما ينقل تملقاً بأن الهدف هو لتقريب الأفكار ومد جسور الحوار بين الأديان ودراسة الظاهرة الدينية دراسة علمية. فالهدف المعلن مغاير للهدف المبطن.

5- تكثيف جهود العمل في علوم الحفريات أو الأركيولوجيا والآثار القديمة لإثبات أن الأحداث والشخصيات المروية والتي جاء ذكرها في الكتب السماوية المقدسة محض أساطير وخرافات ليس لها وجود حقيقي - كنبي الله سليمان - ومن هنا يبدأ التشكيك في الكتب والمرسل والرسالة ومن ثم باعث الرسالة.

6- القيام بدراسات وهمية - عادة ما تسبق نتائجها التجربة الفعلية- تُعتمد من مؤسسات بحثية علمية غربية تسلط الضوء على البيولوجيا العصبية للدماغ البشري وما يحويه من قدرات وطاقات متخصصة في الفكر العقلاني و(النورونات - الخلايا العصبية) التي تولد التصورات الذهنية من مشاعر وأحاسيس وانفعالات وأفكار.. وخلاصة هذه الدراسات تفيد بأن النشوة الروحية والإيمانية التي يستشعرها الإنسان هي حالة دماغية تصل إلى حد الهيستيريا حين يبدأ يتلاشى شعور الإنسان بنفسه، وبالتالي وصفوا ما يعتري الأنبياء من إيحاء أو وحي من الخالق ما هو - والعياذ بالله - إلا حالة من الهذيان الهستيري.

والغريب في هذه الدراسات أن استنتاجاتها ومخرجاتها ونتائجها تخضع لأفكار وتصورات القائمين وتوجهاتهم

العَلمانية غير العِلمية.. تخضع لآفاق تفكيرهم المحدود الذي مع الأسف الشديد يلاقي التأييد والمؤازرة والانبهار من الناس بشكل عام ومن العلماء بشكل خاص دون تحري الحقائق أو الاطلاع على مجريات الأبحاث كاملة، أو معرفة المتغيرات في هذه التجارب.. وسنذكر تفصيل هذه الفكرة في موضوع النشوة الروحية وعلم الأعصاب الديني.

7- دراسة النصوص الدينية دراسة نقدية بهدف إيجاد الثغرات والهفوات التي تخالف الفطرة السليمة أو تمس جانباً من حقوق الإنسان أو تتعدى على حريته، سواء من الناحية الجسدية أو النفسية أو الفكرية ومن ثم نشر هذه الثغرات - أو بالأحرى التشهير بها - في المنتديات ووسائل التواصل الاجتماعي الذي يكتظ بالفئات العمرية الشبابية لتقول وتؤكد لهم أن الدين الذي تؤمنون به يسلبكم أبسط حقوقكم الإنسانية التي لا تجدونها إلا بالعلمانية. وهذا ما يثير جدلاً واسعاً بين أوساط شبابنا اليوم الذي بدأ يتساءل عن حقيقة هذه النصوص والأحاديث وكيف يقول الله شيئاً يخالف الفطرة الإنسانية أو ينال من كرامتها أو يثير مخاوفاً لا طائل منها؟.

أمام هذه الإشكالات وغيرها فإنه لا يمكننا أن نرد رداً علمياً مقنعاً مالم ننفض عن أنفسنا مخلفات التراث الماضي وتقديس أقوال العلماء الأقدمين، وتجنب النظر للنصوص نظرة تقليدية حسية مجردة بعيدة عن محيطها الروحي.. لا يمكننا أن نرد على العديد من الإشكالات ونحن ننظر للنص بعين واحدة أو بفتوى أو برأي أو باعتقاد صاغه عالم ما في فترة من الزمن، تحول فيما بعد إلى نص سماوي لا يقبل المساس أو النقض أو المخالفة.. ما دمنا نعيش في عقلية الآراء والاجتهادات القديمة لا يمكننا أن نضع حجراً على حجر، لأن

حجر الأساس يكتنفه الكثير من الأخطاء التي تبعده عن مفاهيمه الحقيقية..

مع الأسف الشديد لم تقو شوكة العلمانية واللادينية إلا من خلال آراء بعض العلماء والمفكرين ومؤلفي العقائد ومفسري القرآن الكريم الذين ترسخت أفكارهم غير الصائبة والبعيدة عن الواقعية في عقول الناس، والتي لم تكن تصيب كبد الحقيقية أو تعبر عن الغاية الحقيقية للنصوص الإلهية، وبالتالي وجدت فيها العلمانية ضالتها فعمدت لنشرها بغية الطعن بالأديان وعلى الخصوص الدين الإسلامي.. فهم لا يستشهدون بكتب نزلت من المريخ أو آراء فلسفية ترشحت من اليونان أو بعقائد مقتبسة من السومريين والبابليين.. هم يستشهدون بكتبنا ومصادرنا ومراجعنا وتفاسيرنا وتراثنا..

لذلك فإننا حين نتحدث عن ضرورة كسر قيود التبعية والتقليد الأعمى وعدم الأخذ بالنصوص أو تقديسها إلا بعد تمحيصها وبحثها بحثاً علمياً وإيمانياً وروحياً، إنما نهدف لفهم متكامل أو شبه كامل للأهداف والغايات الحقيقية التي يريدها الله منا. لأن جملة من الآراء والمعتقدات التي تزخر بها كتب تفاسيرنا وعقائدنا فهمت فهماً خاطئاً.. وعاها المفسر أو العالم بعقليته المحدودة آنذاك، وبقيت على ما هي عليه قرابة الألف عام أو أكثر، لا يتجرأ أحد على تأملها أو تدبرها أو تمحيصها أو بحثها لأن قائلها توشح بوشاح التقديس وبالتالي فلا رأي آخر في مقابل رأيه وهنا ترفع الأقلام وتجف الصحف.

ينبغي أن يلعب المؤمن الروحاني دورين في الوقت ذاته.. أن يتماهى مع النص بأبعاده الروحية، ولكن في الوقت نفسه عليه أن يتحرى ويبحث مضامين هذا النص، لأن الله أمره بذلك.. فالله أمرنا بالعبادات ولكنه في الوقت نفسه أمرنا بالتأمل والتدبر والتفكر والتمعن فيها.. فلماذا نأخذ جانباً ونلتزم به

ونترك الآخر.. فالإنسان في نظر الله ليس روبوتاً آلياً - من لحم وعظم ودم - إنما هو أداة تفكر وإبداع وخلق وابتكار وتحقيق ما تعجز عنه الكائنات الأخرى، ويزخر كتاب الله بالعديد من الآيات التي تدعو المؤمن للتحري والبحث والسؤال والتفكر والتأمل والتدبر والوعي.

وحتى لا يكون ما نرنو إليه نظرياً نذكر عدة أمثلة وشواهد باختصار شديد على ما نقول:

المثال الأول:

تتعالى الأصوات في المنتديات ووسائل التواصل عن موضوع تحقير الإسلام للذات الإنسانية والانتقاص من قيمته الجسدية والمعنوية، فهذا الإنسان المكرم المَهيب الذي أسجد الله له الملائكة كيف يقول عنه أنه خلق من ماء مبتذل وحقير ووضيع وقذر ومَهين لا قيمة له كما في قوله تعالى في سورة السجدة أية 8: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴾.. في حين أن هذا الماء من الناحية العلمية أنقى ما في جسد الإنسان السليم وهو مصدر الإنجاب والمتعة الجنسية. وبالتالي فالآية تحتقر الأصل الذي منه خُلق الإنسان. هذا ما يروجون له بين الناس ويؤلبون من خلاله عواطفهم ضد الدين.. ولكن من أين جاؤوا بهذا التفسير..؟ وبأي مسند اعتمدوا في تفسير كلمة مهين بأنها تعني وتشير إلى - الوضيع، الحقير، القذر، الحقير، الضعيف، ممتهن لا يعبأ به - مع الأسف الشديد لم يأتوا بهذا التفسير من عندهم، بل جاؤوا به من كتب التفاسير والمراجع الفقهية.. وهنا تكمن المشكلة الكبرى.

لأن جملة المفسرين الذي قالوا بهذا الرأي لا يعلمون المعنى الحقيقي لكلمة مهين.. فقد أخذوها كمفردة بعيدة عن سياقها المتكامل كما جاءت في الخطاب القرآني..

تعالوا نتفحص المعنى الحقيقي الذي أراده الله من كلمة (مهين) لا كما ذكرها المفسرين، فالله الذي أكرم الإنسان وخلقه في أحسن تقويم وعلمه ما لم يكن يعلم ونفخ فيه من روحه وفضله على سائر مخلوقاته كيف يصف أصل تكوينه بالحقارة والقذارة والضعف.

جاءت كلمة (مهين) في القرآن 19 مرة مقسمة على نوعين:

النوع الأول بضم الميم (مُهين) 15 آية، وقد جاءت كلها في العذاب بصيغ (عذاب مُهين، العذاب المُهين، عذاباً مُهينا، مُهانا).

والنوع الثاني: بفتح الميم (مَهين) 4 آيات. هي كما يلي:

1- ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴾ السجدة8

2- ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴾ المرسلات20

3- ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الزخرف52

4- ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ القلم10

المتفحص حين يبحث عن كلمة (مهين) في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم سوف يصدم ويعجب، لأن كلمة (مهين) التي وردت في (19) آية لا توجد في مكان واحد، وإنما في مكانين مختلفين والسبب أن الجذر اللغوي لكلمة (مُهين) تختلف عن الجذر اللغوي لكلمة (مَهين).. فالأولى من (هـ و ن) أما الثانية فمن (م هـ ن) وكل ناطق بالعربية يعرف الفرق بينهما. وبالتالي يختلف المعنى الإجمالي في الآيات الكريمة. فالقائمة الأولى التي تضم 15 آية تأتي من جذر (هـ و ن) بمعنى التصغير والإهانة والشعور بالدونية والمنزلة المتدنية وهو ما يمثله العذاب الذي ذكرته الآيات.

أما في القسم الثاني من جذر (م هـ ن) فتعني المهنة أو الوظيفة أو المهمة التي يقوم بها ويتجلى هذا واضحاً في الآية ﴿وَلَا تُطِعْ

كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ أي الإنسان الذي امتهن الحلف وتعود عليه وأصبح متخصصاً فيه ملازماً له، سهلا على لسانه تصطبغ به شخصيته، وحين يقول الله ﴿لا تطع﴾.. فهذا يعني أن حقيقة هذا الحلف كاذب غير حقيقي، وبالتالي فإن الحّلاف المهين هو من يقوم بتخليق القصص والأحداث والوقائع ويحلف بصدقها، فهو لا يكتفي بالكذب إنما يتوجها بالحلف.. وبالتالي فكلمة المَهين تصف الدور أو الوظيفة على وجه الخصوص، ولا معنى هنا لما يورده المفسرون بأن معنى المهين هو الحقير أو الدنيء أو الوضيع أو الضعيف.

ونجد في الآية الثانية دليلا آخر، فبعد أن اتهم فرعون وملؤه موسى بالسحر في بداية الآيات ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وتم إلصاق مهنة السحر به، علما أن مهنة السحر كانت رائجة في الزمن الفرعوني وكانت تتدرج وتختلف في مستويات ضعفها وقوتها، فكان سحرة فرعون هم الأقوى من بين سائر السحرة آنذاك..

الآن.. وقد أُلصقت مهنة السحر بموسى عليه السلام ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أراد فرعون أن يستفزه بالقول أن: عملك الذي امتهنته ورسالتك التي تروج لها، ووعيدك الذي تتوعد فيه لم يتحقق أو يتبين كما وعدت.. فالذي يمتهن عملاً كهذا وينصب نفسه في هذه الدعوة ينبغي أن تكون مراميه وأهدافه وغاياته واضحة ظاهرة، وأن يقوم بتخليق ما عجز عنه السحرة الآخرون، لذلك اقترح عليه ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي طالبه بشواهد وأمورٍ ملموسة لإثبات صدق دعواه.

لذلك لم يكن فرعون يسفه موسى ويحتقره شخصياً في هذه الآية، لأن فرعون يعرف من هو موسى الذي نشأ وتعلم وكبر في بيته، بل كان يشير بقوله ﴿الذي هو مَهين ولا يكاد يبين﴾ إلى

دعواه ودوره والعمل الذي امتهنه أنه لا يرقى إلى درجة تحقيق المطالب كأن يُلقى إليه أسورة من ذهب أو يُحضر معه الملائكة مقترنين في المجلس الفرعوني. أي أن فرعون يطالب موسى الذي تبنى هذا الموضوع وامتهنه أن يبين له قوة وفاعلية مهنته - السحر - وأن يريه تجلياً عملياً لقدرات سحره.

ومن هنا نعلم معنى (مَهين) في الآيتين المتبقيتين.. فهي تشير إلى الماء الذي له مهنة ووظيفة ودور حيوي في حياة البشرية، فهذا الماء يحوي على السلالة وهي الشفرة الوراثية ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴾ التي تتعاقب فيها الأجيال تلو الأجيال، والتي منها يتم تخليق الإنسان، أكمل مخلوقات الله الأرضية. أودع الله في هذا الماء قدرة تخليق الإنسان بما فيه من جوارح وأعضاء وأعصاب وعظام وغيرها من مستلزمات بناء هيكله المادي الذي ينقل من خلاله صفات آبائه وأجداده وسلالته. لذلك حين يصفه في آية أخرى فيقول ﴿خلق من ماء دافق﴾ على وزن فاعل لا المفعول به إشارة إلى دوره الوظيفي في عملية التخليق..

ولكن من يجرؤ على القول بأن المفسرين وأعاظم العلماء قد فاتهم هذا الفرق اللغوي بين الكلمتين.. من يجرؤ على نقض ونقد ما توارثناه منذ مئات السنين..

المثال الثاني:

تتعالى الأصوات لتشويه صورة الإسلام بأنه دين القتل وسفك الدماء اعتماداً على الآية 67 من سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فنقرأ في التفاسير: أن الله عاتب النبي بأخذه للأسرى في حين كان الأولى أن يقتلهم قتلاً ذريعاً حتى يُرعب أعداءه فيصيب الآخرين بالرعب والخوف الشديد منه، بحيث يصبح القتلى على كثرتهم طبقات

بعضها فوق بعض، وهذا معنى كلمة (يثخن) في الأرض. أي حتى يكثر القتلى والموتى في العدو فيؤدي ذلك إلى الرهبة والهيبة للنبي في قلوب الناس وفي قلوب الأعداء.

ومع الأسف الشديد هذا التفسير نجده في معظم التفاسير القديمة والحديثة وكذلك عند أهل اللغة والكلام ويتبجح به العديد في المنتديات الإسلامية على مختلف طوائفهم.. تفسير هذه الآية بالشكل الدموي الذي تقشعر له الأبدان حلقة من حلقات الجهل المركب في وعي النصوص القرآنية والتي أعطت فرصة سانحة - شيك على بياض - للتوجهات العلمانية واللادينية للنيل من الإسلام والتشهير به كونه دينا لا يراعي حقوق الإنسان ولا كرامته ويجنح للقتل والتعذيب والفتك بالآخر. في حين أن الحقيقة مختلفة تماماً عما أوردته التفاسير الدموية بشأن تفسير هذه الآية.

نزلت هذه الآية في غزوة بدر، وهي أولى الغزوات الدفاعية التي خاضها المسلمون، وكانوا حديثي عهد بالقتال قليلي الخبرة باستراتيجية الحرب، لذلك مع بداية القتال كان البعض يأخذ الأسرى ويحتفظ بهم حتى يتم مقاضاتهم مع أسرى المسلمين أو مقاضاتهم باسترجاع ما نهبوه منهم في مكة، وهذا كان خللاً كبيراً في المعركة، فمن الخطأ الفادح أن يتم أخذ الأسرى في بداية المعركة لأنه سوف يؤدي إلى عرقلة الحركة وانشغال المحاربين بالاهتمام بهم. لذلك نزلت هذه الآية ليُرشد ويوجه النبي من خلالها أتباعه كي يتيقظوا للمعركة ولا ينشغلوا في الاسرى إلا بعد الغلبة وانتهاء المعركة والسيطرة الكاملة على الموقع.

وبالتالي فإن كلمة (حتى يثخن في الأرض) تعني: حتى يسيطر على المعركة ويغلب العدو وليس حتى يُكثر القتل في العدو أو يجعلهم طبقات من القتلى.. فكما جاء في معاجم اللغة أن كلمة ثخن: صلب وغلظ وثقل.. كما نقول: ثخن الدم: أي

تخثر وجمد واستقر.. والثوب الثخين: هو الثوب الثقيل الذي لا يتطاير بسهولة، ورجل ثخين: أي حليم رزين ثقيل في مجلسه، وحين نقول: أثخنه أي أثقله. وبالتالي فمفهوم الإثخان: يعني الثبات والاستقرار، ومن هنا نفهم معنى يثخن في الأرض أي حتى تستقر وتثبت مجرى الأحداث في المعركة بعدها من الممكن أخذ الأسرى لمقاضاتهم.

كما جاء في قوله تعالى: ﴿حتى إذا أَثْخَنْتُموهم فشُدُّوا الوَثاق﴾ قال أَبو العباس: معناه غلَبْتُموهم. وقال الأعرابي: أثخن إذا غلبَ وقَهرَ. وقال أَبو إِسحق في قوله تعالى: ﴿حتى يُثْخِنَ في الأَرض﴾ معناه حتى يتمكن في الأَرض والإثْخانُ في كلّ شيء: قُوَّتُه وشدَّتُه. كما جاء في المعجم الرائد: ﴿حتى إذا أَثْخَنْتُموهم﴾، أَي: غَلَبْتُمُوهُمْ، وكثرُ فيهم الجِراحُ.

نلاحظ في كل ما أوردناه أنه لا ذكر للقتل ولا للتنكيل ولا للقسوة ولا لطبقات بعضها فوق بعض، كل ما هناك أن الله يوجه المسلمين عبر نبيه أن يركزوا جهدهم للسيطرة على المعركة وحين يستتب الأمر فلهم أن يقيدوا الأسرى ويأخذوهم للمقاضاة ﴿حتى إذا أَثْخَنْتُموهم فشُدُّوا الوَثاق﴾ وللعاقل أن يتفكر ويتأمل: كيف يشدوا الوثاق إن كانوا قد أثخنوا وقتلوا وأصبحوا طبقات ثخينة من القتلى كما تذكر التفاسير. إضافة إلى ذلك إن كان ثمة تشريع بقتل الأسرى فكيف نفسر الآيات التي ذكر فيها الإحسان إلى الأسرى كما جاء في سورة الانفال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، بل إن الاسرى كان لهم حرية التنقل والعيش كسائر الناس كما تشير إليه سورة الإنسان ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾..

وبالتالي فتفسير الآية بالقتل لا يمثل الرؤية الإسلامية والدينية إنما يمثل أهواء القتلة والمجرمين والدواعش بنسختها القديمة والحديثة الذي اتخذوا من هذه الآية وغيرها مبررا لسفك دماء إخوانهم المسلمين، ومن ثَم يتخذها العلمانيين أداة للتشهير بالإسلام بأنه لا يراعي الحقوق المدنية أو حقوق الإنسان وإنه دين القتل والإرهاب وسفك الدماء.

المثال الثالث:

لا يزال ظاهر المفردات القرآنية (التي تليت على أعراب الجزيرة العربية) يأخذ بلباب عقول المفسرين.. فلا تزال قصة آدم برموزها الكثيرة (بداية النشأة - السجود - الشجرة - الأكل - العداوة - الستر - حواء - الهبوط - الاصطفاء.. وغيرها من مفردات رمزية) تفسر حرفياً دون عناء التأويل لأعظم قصة تناولتها الكتب المقدسة لجميع الديانات.. فالقصة القرآنية صورة رمزية ذكرت كي تؤول العبرة منها بما يتماشى مع الفطرة السليمة والعقلية الحكيمة الراشدة، لا لكي تتيه وتحتار في صنف الشجرة هل هي تفاح أم عنب أم أرز.. أن نتأمل في خدع الشيطان ومكره لا لكي نختلف في هل أنه تمثل بصورة الطاووس أو الثعبان.. أن نتفكر في جنة آدم لا أن نختلف في مكانها إن كانت أرضية أو سماوية..

تفسير المسميات والمفردات القرآنية بمنظورها الشكلي والمادي والحسي دون تأمل وتدبر وبحث جعل أصوات العلمانية تصدح بأن هذا الدين دين اسطوري بعيد عن الحقيقة والواقع.. دين خيالي لا يتماهى مع عقلية الإنسان والاكتشافات العلمية الحديثة.. فالأرض أخذت ملايين السنين كي تتهيأ وتكون صالحة لعيش الجنس البشري ولكننا نجد في التفاسير تأكيد أن الله خلق السموات الأرض في ستة أيام فقط كما في قوله

تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ فبقي اليوم هو اليوم - أي 24 ساعة مدة دوران الأرض حول نفسها - في مجمل التفاسير، في حين أن الله يعبر عن اليوم بالمراحل أو الأطوار أو الفترات التي تأخذ حيزاً من الزمن.. فحين يتحدث عن (يوم القيامة) لا يتحدث عن 24 ساعة وإنما عن فترة زمنية قد تمتد لسنوات وأحقاب عدة.. كما تأتي كلمة اليوم بمعنى الزمان المتعين الآني كما في قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ فهو لا يقصد اليوم الأرضي، ولكن الحالة الآنية للمؤمن في الجنة. بل قد تأتي مفردة اليوم القرآنية لتعبر عن لحظات ودقائق معدودة - مجرد فترة بسيطة من الزمن - كما في قوله ﴿وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾ فعملية ولادة مريم لم تستغرق 24 ساعة إنما فترة قصيرة من الزمن.. وفي نفس الوقت قد تعبر مفردة اليوم عن أيام متعددة قد تصل إلى أشهر ممتدة كما في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ أي في سفركم الذي يستغرق وقتاً طويلاً في العادة.

ولعل أوضح دليل على ذلك قوله: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وفي آية أخرى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فمقدار اليوم يختلف في كل مرحلة من مراحل الخلق، كما يختلف في المرحلة ذاتها.. وبالتالي فاليوم حين يذكر في القرآن يراد منه الأطوار والمراحل والفترات الزمنية الطويلة منها أو القصيرة أو الآنية كما في قوله: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ.. ﴾ بمعنى الآن.. أي في اللحظة الآنية، في الدقائق التي مرت.. أو قد يستغرق آلاف أو ملايين السنين من عمر الزمن الأرضي.

تمسك الأقدمون باليوم الأرضي كان من باب الإمعان وتأكيد فكرة الإعجاز، فخلق السموات والأرض في ستة أيام صورة من صور الإعجاز التكويني، هذه الصورة تختلف فيما لو قلنا أن الخلق أخذ ملايين أو مليارات السنين. هذا التفكير القاصر سببه - كما بينا سابقا - أننا نعتقد أننا نفكر كما يفكر الخالق - إن جاز لنا التعبير - وبالتالي نعتقد أن الخلق في سبعة أيام له التفاتة إعجازية أكثر فيما لو قلنا مليون أو مليار سنة. في حين أن هذه الأيام والسنين والملايين من السنين هي في الواقع متعلقة بنا نحن البشر.. لعقولنا البشرية حتى تستوعب عملية الخلق.. وإلا فإن العالم الأعلى ليس له زمان محدد أو مكان معين.. اليوم عند الله كألف سنة أو كمليون سنة أو كمليار سنة أمر واحد، فكل شيء يحدث في لحظة واحدة عنده، قد يخلق كوناً مترامي الأطراف مساحته مليار سنة ضوئية بلمح البصر.. ولكن هذا الكون يأخذ وقتاً طويلاً كي يتشكل فيما بعد، أي حين ينزل إلى حيز الإيجاد وحين يخضع لقوانين الخلق التي سنها في الوجود المادي. فالخلق الطبيعي المادي يخضع لقوانين وقواعد يحتاج تطبيقها لفترات زمنية معينة قد تطول أو تقصر، ولكن هذه الفترات لا تعد شيئاً في عالم الأمر أو العالم الروحي، فـ"الأكوان ثابتة بإثباته وممحوة بأحدية ذاته".

حين نعرف مَنْ هو الله جلّت قدرته وتقدست أسماؤه وكيف تتجلى الموجودات من مشيئته في العالم العلوي ثم تتدرج نزولاً في العوالم الأخرى كي تخضع لقوانينها وأحكامها وأنظمتها ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا﴾ حينها لا يفرق إن قلنا في 7 ثوان أو 7 أيام أو 7 مليارات من السنين.

لقد أخذ حرف العطف (ثم) المكون من حرفين فترة زمنية امتدت ملايين السنين حين تحول الخلق من الحواضن الأرضية إلى مرحلة التناسل الأمومي كما جاء في قوله ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ

شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِين (ثُمَّ) جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ﴾ فهذا الانتقال المرحلي أخذ فترة طويلة يقدر بملايين السنين من الزمن الأرضي.

يعتقد البعض أننا نريد أن نجعل القرآن يتماشى مع العلم، وهذا جهل مركب، فباعتقادنا الشخصي أن العلم يتسلق ويتسور القرآن وليس العكس، فكلما تقدم العلم أكثر كلما بدأ يدرك ويفهم الأبعاد القرآنية ويكشف عن جواهره المكنونة بأعماقه، فالعلم الحقيقي لا يخالف القرآن، ومن المستحيل أن يطرح القرآن أمراً يناقض العلم، إلا في حالتين:

1- أن يكون العلم غير حقيقي وغير مثبت.. مجرد تكهنات صيغت كنتائج تحيكها مؤسسات مشبوهة بهدف السيطرة على الإنسان والهيمنة عليه..

2- أو أن يُفهم ويُفسر النص تفسيراً غير صحيح وبشكل مغاير لمراد الله.. يُفسر بشكل يتناغم مع آراء وتصورات أشخاص لهم آفاق محدودة من الوعي والإدراك تعكس اجتهادات شخصية قد تكون صالحة لزمان معين ولكنها تفتقد لعنصر الشمولية والتكاملية.

ينتقد البعض ويرد على العلمانية دون أن يؤسس قاعدة رصينة قوية من المعارف الحقيقية، ودون أن يقشع غبار الآراء التي زخرت بها كتب التراث، ومخلفات الأقوال البعيدة كل البعد عن النص القرآني أو الوعي الروحي، أو جملة الآراء التي خضعت لمحدودية العقل في الأزمنة القديمة.. ينبغي قبل أن نرد أن تكون لنا خلفية راسخة علمية وروحية وقرآنية ودينية بالغاية الإلهية وراء كل مفردة بحيث نفهمها فهماً حقيقياً أو على الأقل قريباً من الحقيقة لا معاكساً مضاداً لها. وعلى رجال الدين أن يتحلوا بالشجاعة والجرأة كي يعيدوا دراسة وبحث

النصوص بما يتلاءم وجوهر التوجيه الإلهي والفطرة السليمة والعقل الراجح والعلم الحقيقي.. والأهم من هذا كله وفق وعي روحي شامل متكامل يكون الأساس التي تقوم عليه الأبعاد الأخرى.

لمن نسمع..!؟

للكلمة أثر سحري في وعي الإنسان وفكره.. فرب كلمة واحدة قد تغير مجرى حياتك للأفضل أو الأسوأ..

"صدقتِ لو كان عبداً لخاف من مولاه.." كلمات قالها الإمام موسى الكاظم (ع) لجارية خرجت من الدار ليلاً لتلقي ببعض الفضلات، وكان صوت اللهو والطرب تملأ المكان، وحين ألقت بالقمامة على جانب الطريق سألها الإمام (ع): "يا جارية هل صاحب هذه الدار حرٌ أم عبد؟" فأجابته وهي مستغربة من سؤاله: بل هو حر.. فقال الإمام: "صدقت لو كان عبداً لخاف من مولاه".

عادت الجارية وهي مرتبكة ترتعد من فرط هيبة الرجل الذي حدثها، وحين سألها سيدها (بشر) عن سبب تغير حالها، أخبرته بما جرى من حديث دار بينها وبين الرجل. فاهتز هزاً عنيفا.. هزة أيقظته من سباته وغفلته، ثم سأل الجارية إلى أي اتجاه توجه الرجل، فأخبرته فانطلق يعدو خلفه، حتى أنه نسي أن ينتعل خفيه فسار مهرولاً حافياً.

وكان في الطريق يحدث نفسه بأن هذا الرجل هو الإمام موسى بن جعفر، وفعلاً ذهب إلى منزل الإمام، فقال له: يا سيدي أنت الذي خاطب الجارية؟ قال: نعم، قال: أعد عليَّ الكلام، فأعَادَهُ عليهِ فَمَرَّغَ بِشر خدَّيهِ على الأرض فقال: بل عبد! ثمَّ هام على وجهه حافياً حاسراً، حتى عُرِفَ ببشر الحافي فقيل له: لِمَ لا

تلبسُ نعلاً، قال لأنيّ ما صالَحَنِي مولاي إلاّ وأنا حافٍ فلا أزول عن هذه الحالة حتى الممات.

حتى أصبح فيما بعد من أشهر علماء عصره وأكثرهم ورعاً وصلاحاً وزهداً.

هكذا هو تأثير الكلمة..

الكلمات لا تنقل عبر العصب السمعي عن طريق الأذن إلى الدماغ حيث يتم ترجمتها ومعرفة معانيها فقط.. ولكنها ذبذبات تلتقط من الأثير لتعلق بهالة الإنسان فترة طويلة من الزمن، ثم تندرج ضمن مصفوفة ذاكرته وفكره.. وهذا التعلق يؤثر على وعي الإنسان، قد لا نشعر بوجوده، فالكلمات التي نسمعها نظن أنها تنتهي بانتهاء المتحدث أو الحوار أو الخطبة.. ولكنها في الواقع تعلق بنا، وعلى الخصوص حين يكون هناك اندماج شعوري يرافقها..

فالكلمات التي نسمعها من الآخرين.. أو تلك التي نلفظها، أو التي نكبتها في أذهاننا أو نفكر بها عبارة عن ترددات تنطلق من الحناجر والأذهان وتؤثر في محيطنا الروحي سلباً أو إيجاباً..

ويزداد هذا التعلق والتأثير إلى حد التقديس والعبادة.. بمعنى أن تجد هذه الكلمات لها مرفأ وموطناً في النفس تستقر فيه وتبسط هيمنتها التوجيهية.. فحين يكون هناك فراغ فكري وقلة في الوعي فإن مساحة النفس سوف تتخللها الكثير من الفراغات التي تملأ بكلمات وتوجيهات الغير.. أو بكلماتنا أو أفكارنا الشخصية.

ولهذا جاء في الحديث عن أبي جعفر (ع): "من أصغى إلى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق يؤدي عن الله عز وجل فقد عبد الله وإن كان الناطق يؤدي عن الشيطان فقد عبد الشيطان.

"فالمادة لا تفنى ولا تستحدث من العدم"..

فقد نحضر مجلساً أو نستمع إلى محاضرة أو أمسية.. ونعتقد أنها مرت مرور الكرام، بينما قد تكون حالة الغضب والعصبية التي تنتابنا في اليوم أو الأسبوع الذي يلي المحاضرة سببه ما تم تخزينه وجذبه وتأثيره من كلمات طرقت سمعنا في المحاضرة..

فكلمات الغضب والحصر النفسي والتعصب وإثارة الخوف والجزع والهلع وغيرها من كلمات وأفكار تعلق بالإنسان حين سماعها وتخزن وتُؤرشف كبذور جاهزة لكي تستخدم في مواقف أخرى.. فحين يتفنن الخطيب باستعراض نار جهنم.. فإن المستمع لا يكتفي بالخوف من النار وإنما يصبح لديه وسواس قهري من إشعال النار.. فيستيقظ ليلاً عدة مرات ليتأكد من إطفاء الموقد في منزله..

والخطيب الذي يبالغ في وصفه لعذاب المرأة التي تظهر شعرة من رأسها وهي تصلي (في البيت) بأنها في قعر جهنم.. فهي لا تكتفي بستر شعرها ولكن يُداخلها شعورٌ سلبيٌ انتقاميٌ تجاه شعرها الذي قد يتسبب في دخولها قعر جهنم..

هناك من يتكلم وهو لا يعلم ما للكلمة من معنى وأثر على النفوس المستمعة.. هو لا يشعر بما يقول.. جرت العادة أن يقول ما لا يفقه، لأنه لا يُسأل عما يقول.. ولا أحد ينتقد ما يقول.. فالخطوط الحمراء كبلت أفواه من يُفكر أو ينتقد أو يقول غير الذي يقول..!

ولعل التجارب الكثيرة التي أجريت في اليابان على يد العالم (إيموتو) على كريستالات الماء - حين تغيرت ذرات الماء إلى أشكال هندسية غاية في الجمال حين دعموها بكلمات إيجابية كالحب والسلام والجمال، والعكس أظهرت أشكالاً مشوهة حين أطلقوا عليها كلمات الكره والغضب والجنون - أثبت تأثير الكلمة حتى على السوائل والجمادات.

لذلك فالكلمة كالبذرة تغرس في ساحة النفس (الصدر) وتبقى معلقة ومؤثرة فترة طويلة من الزمن، فإن كانت كلمة صالحة مؤثرة فإنها ستنبت ثمراً جيداً ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء﴾ وإن كانت كلمة سلبية فإنها ستنبت حشائش ضارة ستأخذ منا جهداً كبيراً لاجتثاثها.

لا خوف من البعض في أن يسمع ويتلقى ما يشاء.. لأن حديقة صدره مزروعة سلفاً بأشجار باسقة متدلية الأغصان من الوعي والفكر النير والحكمة والرشاد، ولكن الخوف ممن يعاني من الفراغات والخواء الفكري أو قلة الوعي لأنه بهذا سوف يسمح لهذه الكلمات أن تستوطن في هذه المسافات الفارغة.

وقوة تأثير الكلمة تعتمد على عمق مطلقها.. فكلمات الحكيم تختلف عن كلمات الخطيب، وكلمات المرشد الروحي تختلف عن كلمات مدرس مادة التربية الدينية، فالأول جل همه هداية الناس وتوجيههم وإيقاظهم ونقلهم من سبات الغفلة إلى الوعي والصحوة، بينما الآخر هدفه إنهاء مادة درسه واستلام مكافأته أو راتبه الشهري.. الأول يعمل لله، والثاني لخلق الله.. وما كان لله يبقى.

لمن نستمع إذن..

قد تكون للكلمة قوة في حد ذاتها بغض النظر عن قائلها، فرب كلمة تسمعها من إنسان عادي تجد لها أرضاً طيبة في أعماقك، فتنبت نباتاً طيباً، لأن وقت يقظتك قد حان أوانه، وحياتك على شفا تغيير، لذلك قيل قديما "خذ الحكمة من أفواه المجانين".. فالله يرسل لك من يشعل شرارة التغيير في نفسك شريطة أن يستقبل قلبك هذه الشرارة.. ترعاها بالقبول وتساندها بالمدد وتحيطها بالاهتمام.

وحتى تكون لهذه الكلمات وقعٌ إيجابيٌ على النفس ينبغي أن نستمع أو نسمع إلى الناطق الذي تتجسد فيه عدة صفات:

1- نستمع لمن يعطينا من نتيجة وعيه، ويغمرنا من حصاد بحثه ودراسته.. ينقل لنا تجربته الروحية والمعنوية في الحياة.. لسنا بحاجة إلى ترديد الحكايات أو نقل الروايات التي تزخر بها المكتبات والمؤلفات وهي موجودة في كل بيت وعلى مواقع الانترنت في كل وقت، نحن بحاجة إلى معرفة الوديعة التي أؤتمن هذا الخطيب أو المتحدث عليها.. فكل ما تعلمه وتلقاه من نصح ومعرفة هو وديعة من الله لابد من نقلها إلى الآخرين، فلا يمكن أن يحصل الإنسان على الوعي والاستنارة ما لم يشارك الآخرين تجربته الروحية.

2- نستمع لمن يحترم عقول ووعي الحاضرين فلا يألو جهدا في البحث والتقصي عن كل ما هو جديد يستحق الإثارة، أو قديم يطرح بأفق جديدة..

وألا يضع في اعتباره ما يريده المستمعون، بل يكون وعيه قادراً على طرح كل ما من شأنه استنهاض الهمم وغرس معلومات مفيدة وجديدة تثير وعي المستمعين وترغبهم حين يعودون إلى بيوتهم للبحث والنقاش وتداول الأفكار حولها. عليه أن يكون ملهم المستمعين لتقصي الحقائق وربطهم بمنابع النور التي مهما غرفوا منها فلن تنضب أبداً.

3- نستمع لمن ينظر إلى جميع خلق الله نظرة عطف ورحمة، نظرة بصيرة ومحبة، ينظر إلى الصورة الشاملة للحياة، ويدرك الأبعاد الأخرى والوجه الآخر للحقائق. ولنحذر كل

الحذر ممن ينظر بعين واحده لا ترى إلا الجانب المظلم من الحياة، وكأن السعادة والحياة الطيبة هي لغيرنا وليست لنا.

4- نستمع لمن يذكرنا منطقه وحديثه بالله وليس بالجانب المظلم من التاريخ.. فكثرة ذكر أشخاص الظلام الذين عبثوا بالتاريخ ينقل إلينا بعضا من صفاتهم من حيث لا ندري، لأن من ذكر شيئاً سلبياً كان أم إيجابياً تمكنت صفاته منه، ولذلك أمرنا الله بذكره وتسبيحه حتى تنطبع صفاته في قلوبنا دون سائر الأشياء الأخرى "من أكثر من ذكر شيء نسب إليه"..

الأولى بنا أن نتوجه إلى رجال النور من أنبياء وأئمة وأولياء وصالحين وصديقين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، نذكرهم ونتقرب إلى الله بحبهم، لا إلى أعدائهم فتتجلى صفاتهم فينا، فإن "من أحب شيئاً أكثر من ذكره".. "ومن أكثر ذكر شيء أحبه".

5- أن نستمع لمن تخلص من الأوهام والتناقضات والتاريخ المزيف الأسطوري الذي أصبح كالأفيون يوهم الشعوب بسيناريو بعيد كل البعد عن الحقيقة.

ينبغي أن يتخلص كل ناطق من السلاسل والأغلال التي كبلت عقول كثير من خطبائنا و (نواطقنا) اليوم.. البعض يخشى من كسر هذه السلاسل لأنه يعلم أن فيها نهايته، فيبقى يدور في حلقة مفرغة، يعيد ويكرر ما توارثناه جيلاً بعد جيل.

نستمع لمن تحقق من الأشياء وعرفها في جوهرها، ولا حاجة له إلى بذل الجهد ليميز بين الحقيقة والوهم.
ينظر المرشد الروحي والخطيب الناجع إلى عالمنا فيراه مظلماً كئيباً، فيعمل مجتهداً على إحيائه وإنارته من جديد..

ينسى نفسه ومصالحه الشخصية ويلتفت لتصحيح المفاهيم ويدنو من الناس ليبث فيهم روح الأمل والتغيير والإرادة ويعرفهم بحقيقة وجودهم ويقربهم من خالقهم وربهم.

6- أن نستمع لمن لا يفرض إرادته على أحد وإنما يثير فيهم دفائن عقولهم..

أن يعلمنا كيف نقرع الباب.. ليس من شأنه أن يدخل معنا، فلا حاجة لنا به وقتها.. فمهنة الناطق إن يعلمنا كيف نقرع الباب..

مع الأسف الشديد، هم لا يُعلمّون قرع الباب، وإنما ينقلون عن غيرهم ما قرءوه من قرع الباب.. لم يختبروا بأنفسهم هذا العمل.. لذلك يوهموننا أن قرع الباب لا يكون إلا بهم، فهم يقرعون نيابة عنا.. وكأنهم هم الأبواب.. بل أن البعض يعتقد أنه الباب وما بداخله.

عمل الناطق الحقيقي أن يكشف للمستمع عن حقيقة النور الكامن فيه، وعن الماسة التي أودعها الله في أعماق كل واحد منا.. ليس من شأنه أن يضع ماسة بديلة، أو يوجد نوراً آخر غير ما أودعه الله فينا.. ينبغي أن لا يعدنا ويُمنينا بأن يعطينا شيئاً من عنده.. الماسة موجودة في أعماقنا، ينصب عمله في كيفية صقلها، والتخلص من الأتربة التي تعلوها.. هذا كل ما عليه عمله وما هو مكلف به..

ولكن مع الأسف الشديد جرت العادة على مسخ الشخصية وبرمجتها برمجة توافق آراء وتوجه الناطق، وبدل أن تصقل جواهرنا بات يعلوها ركامٌ من البرمجيات الشخصية والهتافات التقليدية والأفكار القشرية متدنية الوعي حتى أضحت معتمة لا بريق لها.. بدلاً من أن يساعدنا على قلع

الأعشاب الضارة التي نبتت في حديقة نفوسنا بات هو يغرس شتلاته الخاصة بفكرة ومنهاجه.

بدل أن يخلصنا من الأفكار المغلوطة والتصورات المتناقضة، ويساعدنا على تبديد أوهامنا.. زادنا أوهاماً جديدة وحيره في تساؤلات أبعدتنا عن هدفنا الحقيقي.

على الناطق أن يزيل الأقنعة التي نلبسها لا أن يُلبسنا أقنعة أخرى.. ينبغي أن يدلنا على الطريق فقط.. ونحن من يقوم بإكماله.. لا أن يسير بدلاً عنا.. أو أن يقرع الباب نيابة عنا.. يكون هو القارع وهو الباب..

7- أن نستمع إلى الناطق القدوة.. أو المرآة التي تعكس وتشخص ألاعيب الأنا من تكبر وغرور وجشع وطمع وتملك ونزوات وشهوات فيعمل على تشخيصها ومن ثم تفكيكها.. ويقوم بعملية جراحية لاستئصالها.

ينبغي للناطق أن يزيل الركام عن كل ما نتوهم ونشعر به بالأمان.. ويستبدله بالأمان الحقيقي القائم على القرب والعبودية وحب الله سبحانه وتعالى..

فكثيرة هي صور الأمان التي ينزح إليها الإنسان، من جمال ومال وشهرة وسمعة ومكانة وموطن ومنزل وأولاد وجاه وخدمة.. وما أشبه.. على الناطق أن ينزع من ذاته كل هذه التعلقات ليكون مرآة جلية صافية لمن يحدثهم ويتكلم معهم فيقوم بدوره بالتالي في نزعها عنهم..

فكرك الذي يحتوي المعلومات.. وقلبك الذي يحتضن الهمسات.. وعقلك الذي يفقه الكليات.. ووعيك الذي بمقدوره الاقتراب من رب السماوات.. أمانة عندك، ووديعة أؤتمنت عليها، فاحذر أن يمسهم أحدا بسوء.. أو يبرمجهم كيفما يريد.

وتوجه إلى ناطق الحق الذي ينطق عن الله، الذي لا يربطك بشخصه ولا بمنهجه ولا بأفكاره، بل يحررك منهم، ويربطك بالله وحده.. فذلك هو ناطق الله الذي يحق لك إتباعه وسماعه..

لا تنتقد.. أنت بالواد المقدس

استقبلني بوجه مشرق وابتسامة عريضة يملؤها الشوق والحب.. احتضنني وأجلسني بقربه وطلب مستلزمات الضيافة الشرقية من الشاي الداكن والقهوة العربية.. كان المجلس عامراً بأتباعه ومريديه وأحبائه الذين كانوا يلقون عليه التحية بين فينة وأخرى، مقبلين جبينه ويده..

بدأنا الحديث وخضنا في مواضيع متفرقة، إلى أن سألني عن رأيي في كتابه الأخير. ترددت في الإجابة قليلاً، ولكنه أعاد عليّ السؤال وبصوت جعل وجوه الحاضرين تلتفت إليّ بانتظار الرد!!

قلت له إنه كتاب راق وجميل ومطّعم بالأفكار النيرة الإيجابية.. ولكن!!

حين نطقت بكلمة (ولكن) اشرأبت الأعناق وحملقت العيون باتجاهي.. لقد كان وقع هذه الكلمة على الحضور بمثابة قنبلة موقوتة قد حان أوانها.. رد عليّ بنبرة غير تلك التي بدأها معي.. ولكن ماذا؟

بنبرة هادئة أجبته "هناك بعض الأفكار بحاجة إلى إعادة النظر لوجود أدلة أو إثباتات مغايرة لها.. وسردت له على سبيل المثال بعضاً من هذه الأفكار والأدلة المناقضة لها.. لم يرد عليّ بكلمة، ولم أعرف إن كان قد فهم مقصدي أم لا، ولكنه بدأ يشغل نفسه ويتحدث إلى أتباعه.. ودارت أحاديث متفرقة بينهم.. شعرت بتجاهل واضح تجاهي، فلم يعد صاحب الشأن ينظر إليً،

ففهمت أن وقتي قد أزف وعليّ الانصراف.. فودعتهم وانصرفت..

حين خرجت تساءلت في نفسي، كم هو طغيان الأنا عند الإنسان بحيث يجعله لا يتحمل كلمة ناقدة أو فكرة معارضة أو تصحيح أخطاء واقعة..؟

فإذا كان هدف العالم أو المفكر هداية الناس وتوضيح الحقائق وبيان أفضل مناهج الوعي.. فلماذا يستاء غاضباً حين لا يوافقه أحد بفكرة أو ينتقده بعبارة أو يعارضه بكلمة؟

وإذا كان هدف الفكر توسيع مدارك الوعي والاستيعاب فما بال المقربين يؤمنون بما يملي عليهم دون أن يكون لأحدهم الجرأة لانتقاد كلمة مما يقال؟

إنها ظاهرة محيرة حقاً.. فالمعلم أو المفكر أو العالم يسعى لنشر العلم ليراكم المعرفة ويفتح آفاق الوعي للآخرين، ولكن في الوقت نفسه لا يسمح لأحد أياً كان أن ينتقد حرفاً مما يقول أو يكتب..! يريد أتباعاً صم بكم عمي فهم لا ينتقدون أو يفكرون.. بل ينفذون ويستمعون ويبجلون ويمتدحون ويقبلون.. يأخذون كل شيء مأخذ التسليم ويكونون أداة طيعة لا حرية ولا اختيار لها..

إن المحبين والأتباع يقتلون الكثير من الأفكار النيرة حين يتبعونها بتقليد وبعمى ودون وعي وبصيرة.. فالفكرة الخاطئة تؤثر على مصداقية الأفكار الصادقة الأخرى، والناس بدأت تدرك وتعي الحقائق وتميز الصالح من الطالح..

فالبعض حين يقرأ كتاباً ويجد فيه أفكاراً مشوهة وخاطئة قد يتوقف عن قراءته، وقد يتجاهل وينسف الكتاب عن بكرة أبيه ويتهم المؤلف بالزيغ والانحراف، فلو كان المقربون والأتباع على

مستوى من الوعي والجرأة تجعلهم ينتقدون شيخهم أو مفكرهم أو عالمهم لا لأجل النقد أو التشفي ولكن لحبهم وسعيهم أن يكون منهجه أقرب إلى الحقيقة لكانوا خير عون وسند له ولأنفسهم أيضاً.

وهنا تكمن مسئولية الأتباع والمحبين في مراقبة وإنضاج وتحليل كل فكرة أو أطروحة قبل نشرها وإشهارها للعلن، فهذا يزيد من وعي العالم ومن مصداقية منهجه وفكره.

إن تنزيه الأتباع للعالم أو المفكر يجعل منه كائنا مقدسا لا يخطئ.. كما أن تفخيم الأنا عنده تجعل منه مشرعاً لا يرقى إلى مستواه ومكانته العلمية أحد فلا يعطي مجالاً حينها للنقد أو النقاش. عقلية الرأي الواحد نجدها في كل مكان من العالم ولكنها مهيمنة ومتربعة على عرش العقلية العربية، فالموروثات الثقافية والبيئية والدينية جعلت من عقولنا آلات للتلقي والتقليد والحفظ والاسترجاع.. وليس وسيلة للتفكر والتدبر والتأمل والإبداع كما أمرنا الله بذلك..

فمن قطعة القماش (القماط) الذي كنا نُلف فيه في المهد، وتكبيل حريتنا الحركية، إلى ثقافة الاستماع والتلقي في المدارس والجامعات التي كبلت عقولنا وحرمتنا متعة إبداء الرأي والحوار، إلى الآراء المتناقضة عن الخلق والوجود، إلى التعقيدات المبهمة التي يتوجب علينا التسليم والإيمان بها دون قناعة، أصبحنا أدوات ناقلة لا مبدعة أو مفكرة.

ومع الأسف الشديد تجد بوناً شاسعاً بين الحديث الذي تجريه مع العقلية الغربية المنفتحة المتقبلة والعقلية العربية القابعة في ظلام الرأي الواحد التي ترفع شعار "من ليس معنا فهو ضدنا".

والسؤال هنا.. إلى متى؟

إلى متى نعتقد أننا على صواب وغيرنا على خطأ؟ بل يظن البعض أن ذاته تجلي للحق والصواب، وأنه الحق المطلق وغيره باطل مطلق..

ماذا لو كنا مخطئين..؟ ماذا لو اكتشفنا بعد سنين طويلة عشناها أننا على خطأ؟ ماذا لو اكتشفنا أن العديد من طقوس حياتنا التي نقوم بها وهم وبدع وأن الحقيقة.. كل الحقيقة هو ما تشعر به من خلال اتصالك مع الخالق فقط؟

تساءل الناس في يوم ما لماذا يأمر رسول الله ﷺ بهدم مسجد..؟

فالمسجد دار للعبادة، وبيت من بيوت الله.. فلماذا يأمر النبي ﷺ بهدمه. كان من الممكن أن يبقى سبب الهدم سراً، فالنبي امتثل لأمر الله في هدمه، وتنتهي الحكاية عند هذا الحد. ولكن حتى لا يتحول هذا العمل إلى سُنة عمياء، وشعيرة دينية (لأنها حدثت على يد النبي) يتم تقليدها عبر الزمن. أنزل الله قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فالرسول يعلم حقيقة المجتمع الذي بعث فيه وعقليته فكان لابد أن يبين لهم الأمر حتى لا يُستغل هذا الحدث لهدم المساجد في المستقبل.

لقد أمرنا الحبيب أن نحاسب أنفسنا كل يوم "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا" فتوهم البعض أن المحاسبة استعراض الذنوب التي ارتكبناها والأعمال التي قمنا بها آناء الليل وأطراف النهار فقط.. إن المحاسبة هنا تعني التفكر ومراجعة الأفكار التي نؤمن بها.. هل أوصلتك هذه الأفكار إلى الحق والحقيقة أم لا..؟ فالخوارج كانوا أشد الناس محاسبة لأنفسهم ولكنهم ابتعدوا عن

الحق ودخلوا غياهب الطيش والتمرد وأصبحوا مثالاً للجهل المركب ونوازع الحقد والشر..

ولكي نعي الحقيقة، لابد أن نذيب الجليد الذي تراكم على عقولنا، وأن نتحرر من الأنا التي عششت في قلوبنا، وأن نلتزم القرآن الذي يدعونا للتعلم والتفكر والتأمل ونبذ التقليد الأعمى وكل ما يحرض ويدفـــع إليه من كتب تراثية أو خطابات غير واعيـة.

علينا أن نتدبر أقوال رسولنا العظيم (ﷺ) الذي أمرنا بطي المسافات إلى الصين لكي نتعلم ونفهم مبادئ وأسس الحياة. فلو كان كل شيء واضحاً جلياً لما أمرنا ببذل الجهد لاستيضاح معالم الحياة والتعلم منها.

علينا أن نسأل أنفسنا ماذا لو كنا خاطئين؟ فهذا السؤال سيكون بوابة لبحث جديد عن الحقيقة.. بحث يجعلنا نقوم بإعادة تقييم وتمحيص للكثير من المعتقدات والأفكار التي نؤمن بها.. وهذا البحث ليس بحثاً اختياريا أو ترفاً فكرياً أو مطلباً كمالياً.. بل لابد أن يكون من أولويات أهدافنا ومحور اهتمامنا ومدار تفكيرنا والشغل الشاغل الذي تدور عليه رحى حياتنا. لأننا في سباق مع الزمن، الذي نأمل أن يمهلنا من وقته ما يمكننا من معرفة حقيقة العالم الذي نعيش فيه.

العالم الذي يستاء من النقد، والتابع الذي يقدس العالم، والتسليم المطلق للأفكار السليمة منها أو الخاطئة.. تجعل مني زائراً غير مرغوبٌ به.. في عالم يقتات فيه العالم على جهل الجاهل.

قلق.. وترقب الغد

لا شيء يغذي منابع القلق لدى الإنسان، ويثير بواعث التوتر في أعماقه، ويؤلب مكامن الخطر في نفسه أكثر من التفكير في المستقبل أو في الغد..

فالقلق يمثل حلقة وصل بين أولويات اليوم وما يمكن عمله، وبين نتيجة الغد وما يمكن توقعه.. أي أن القلق يعمل على تقسم الفكر بين اليوم أو (الآن) وبين ما سيحدث في المستقبل فينشأ التوتر نتيجة لهذا الترقب.

فالموظف قلق من إقالته واستبداله في أية لحظة، والمضارب بالأسهم يترصد شبح العلامة الحمراء في بورصة التداول، والسعيد بسيارته الجديدة يخشى عليها من حوادث الطرق الوعرة، والمتبع لبرنامج حمية أو رجيم يخاف فشل معاناته ورجوع السمنة إليه من جديد، والمبتكر أو المبدع لمشروع ما لا ينام قلقاً من تقييم مرؤوسيه في الغد.. والفتاة تخشى العنوسة بينما تعيش الزوجة قلق الانفصال أو الترمل، والوالدان يعيشان هاجس انحراف الأبناء أو فشلهم في التعليم والحياة، والمتدين يعيش قلق الفتنة والنكوص أو الوقوع في الذنب وعدم القبول، والمسن يخشى من الوحدة والشيخوخة أواخر عمره.. وهكذا لا أحد يسلم من داء القلق ولو بنسبة قليلة.. أقلها حين نفكر للحظة أن محرك سيارتنا قد لا يعمل في الصباح الباكر حين نهم بالذهاب إلى عملنا..

إن قلق التفكير بالمستقبل لا يؤخذ بعين الاعتبار كحالة مرضية من الناحية الطبية ولكنه يؤدي إلى أمراض كثيرة منها

أمراض القلب، وارتفاع ضغط الدمّ، والصداع الحادّ، والقولون العصبي والاضطرابات بعمل الغدد، وآلام وقروح المعدة. ولكنه من الناحية النفسية والروحية يعد مرضاً فتاكاً يحرم الإنسان من العيش في الواقع والتمتع بنعمة الوجود وبالمعطيات الآنية وما يهبه الله من رزق في الحياة.

من يتوجس المستقبل يقرن فكره بأوهام لم تقع بعد، أو قد لا تقع إطلاقاً.. فيمتلئ عقله بسيناريوهات وهمية وأحداث درامية يكتبها بريشة خياله وتوقعاته، فيملأ كأسه بتلك الأحداث التي تستحوذ على مساحة كبيرة من فضائه الداخلي.

في كل لحظة.. وفي كل لمحة.. وفي كل ثانية.. هناك عشرات الرسائل والبركات والإلهامات يفيض بها الله عز وجل من عالم الملكوت إلى عالم الملك، أو من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، ولكننا لا نستقبل أياً من هذه الرسائل لأننا لا نعيش الواقع (الآن) ولان خزائن عقولنا مليئة ومتخمة بأحداث وتوقعات الغد المقلقة.

في الواقع نحن لا نعيش حيث أرادنا الله أن نكون، لأننا نكون في مكان آخر وفي زمن آخر، فكيف لنا أن نشعر بعمق اتصالنا مع الله ونحن نعيش في زمان ومكان آخرين!؟. حين تسيطر هواجس الخوف الفكرية والشعورية من المستقبل فهي تأخذنا بعيداً عن المحيط الآني الذي أن نكون فيه.

لابد أن نعلم أن قلقنا من شيء لا يغير من إمكانية حدوثه، فقلقنا من يوم مغبر أو مشمس لا يبعد عنا الغبار أو يحجب عنها أشعة الشمس. وقلقنا من المرض لا يجعلنا أصحاء، وقلقنا من عصيان وتمرد أبنائنا لا يجعلهم منصاعين طيعين، وقلقنا من الحوادث لا يجنبنا الوقوع بها، وقلقنا من الخسارة لا يجعلنا نربحها.

ولكن هل تعلم ما الذي يغير الأحداث حقاً؟

أولا: أن تنسى أن لك غداً تقلق بشأنه، وأن تعيش اللحظة التي تكون فيها بكل أبعادها.. اجتهد وخطط واعمل كل ما يجب عليك فعله واترك تحقيق سيناريو الغد بيد عالم الغيب.. عش حياتك مبتهجاً دون حمل أوزار المستقبل، ودون حمل أوزار الآخرين.

أفرغ كأسك وأغلق عينيك ودع قلبك يبتهج وشفاهك تبتسم وكأنك ضيف في مملكة القادر المقتدر الذي بيده مقاليد كل شيء.. حين تحل ضيفاً في مملكته وتصبح مرتاداً لملكوته سيتكفل هو بكل شيء يصلح حياتك.

إذا تفرغت له الآن.. سيكون حاضراً لك غدا وسيكفيك ما أهمك بل سيقود حياتك.. فهل ستقلق بعدها؟!.

ثانيا: أن تستشعر بما تملك، لا فقد ما تملك.. استشعر بعطاء الله ونعمه وكرمه، فشعورك بالنعم يجعلك مستحقاً لها، وهذا الاستحقاق يضمن بقاءها وزيادتها كذلك ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

قليلاً منا يدرك بعض مظاهر نعم الله التي ترعاه وتكتنفه وتحيطه منذ لحظة تخلقه جنيناً في قراره المكين داخل الرحم إلى أن يستكمل مسيرته ويحتويه رحم الأرض أمه الحنون مرة أخرى ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وهو يتقلب في حياته من نعمة إلى نعمة أخرى.. فالسمع والبصر والجوارح والجسم وتناسق أعضائه، وتكفل معيشته ورزقه في الأرض وتسخير الطبيعة والكون لخدمته هي أقل ما يمكن أن يدركه من هذه النعم..

البعض يدرك نعم الله عليه.. ولكن قليل من يصل منهم إلى درجة استحقاق هذه النعم لذلك يقول ربنا ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

وإذا كان هذا الاستحقاق الذي يجعل الإنسان يشكر الله الذي مكنه من الشكر يتم في النعم الظاهرة فما بالك حين يدرك الإنسان معنى النعم الباطنة التي يقول عنها ربنا: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.

إن النعم الباطنة هي العطايا والسجايا والملكات المغيبة التي لا يدركها الإنسان بحواسه الطبيعية ولكنها هبات تفوق في عظمتها وجلالها كل النعم الظاهرة.

فالأنوار المنهمرة من عالم الملك حين تتنزل عليك..

والملائكة الموكلة بحفظك تعينك وتحرسك وتحتويك..

ورقة القلب التي تنتابك حين يتناغم نبضك مع إيقاع الكون فتشعر وكأن الكون كله بين يديك..

وصفاء روحك حين تكون مهبطاً لسيل أودية إلهام الحكمة والعلم فتشرق ومضات التفكر لديك..

وأمواج الحب التي تعبر المحيطات لتستقر بين جنبيك.. وتراتيل الملائكة الصافين المسبحين التي تشع أنوارهم بقلبك وتقويك.. والوعي الذي يستقر بروحك إن وُجد مستقراً لديك..

وغيرها من النعم التي لا تحصى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ فإذا كان القرآن ينعت الشاكرين بكلمة (قليل) في النعم الظاهرة.. فما بالك في النعم الباطنة التي جهلناها ولم نتفكر أو حتى نستشعرها؟..

حين نوجه تفكيرنا للنعم.. وشعورنا للمنعم.. وقلوبنا للتأمل باستحقاقها.. وأجسادنا للقيام بحقها ورعايتها. فإن من شأن هذه الأمور أن تبقينا في حالة وعي مستمر وانتباه متوقد للحظة الآنية. فمن يستغرق شعورياً في النعم ينبغي أن يكون حاضراً ليستشعر بما يملك، وإلا سيكون شكره لغوا وكلمات ميتة

لا أثر لها، فحين نشكره على نعمة البصر، السمع، التنفس، انتظام نبضات القلب، على سبيل المثال، ينبغي أن نتلمس الوجود الفعلي لهذه الأشياء، وحين نشعر بها فإن تفكيرنا سوف يتقيد بالزمن الحاضر ونبتعد عن المشتتات والتوجس من المستقبل أو التلصص على ملفات الماضي.

عندما يفقد الزمن زمانه

لا أحد منا ينكر عملية تسارع الزمن الذي بات أشبه بقطار يسير بالطاقة النووية المخصبة، فاليوم لم يعد يحتل ذاكرة من الزمن، فما يكاد يبدأ حتى ينتهي ويتلاشي ليبدأ يوم جديد وهكذا.. أين هي (بحبوبة) الزمن التي كنا نعيشها سابقاً؟ ولماذا اختلفت مقاييسه وموازينه؟ ولماذا يتسارع بهذه الكيفية المحيرة للعقول؟ لماذا أصبح اليوم كالساعة، والأسبوع كاليوم، والسنة كالشهر؟

إن عملية تسارع الزمن تنبأت به أحاديث آخر الزمان التي أشارت إلى العديد من التقنيات الحديثة بعبارات تقليدية وتراثية بسيطة، لم تذكر كيفية آلية حدوث الشيء، أو طريقته وإنما أشارت إلى الفكرة التي يقوم عليها.. فعلى سبيل المثال تشير الأحاديث إلى ثورة الاتصالات الالكترونية المذهلة التي تشهدها البشرية في الوقت الراهن، ولكن دون ذكر تفاصيل أو حيثيات هذا الحدث ولكنها تكتفي بالقول: "سيأتي زمان يرى من في الغرب أخاه الذي في الشرق" وهذا من المعطيات البديهية لثورة الاتصالات عبر الانترنت أو الأقمار الصناعية.

كما أشارت بعض الأحاديث إلى وسائل النقل الحديثة "سوف يطير الحديد في الهواء، ويمشي الحديد على الحديد" كما أشارت إلى شق الطرق وحفر الأنفاق "لا تقوم الساعة حتى تزول الجبال من أماكنها وترون الأمور العظام التي لم تكونوا ترونها" دون بيان أو توضيح للكيفية أو الآلية التي تتم بها هذه الأمور، لسبب بسيط أن هذه الأمور كانت أشبه بالخيال العلمي حينها، فمن

يقطن الخيام ويرعى الأغنام كيف له أن يتخيل جهازاً بحجم صندوق صغير يرى من خلاله العالم، ويرى فيه أخاه الذي يبعد عنه آلاف الأميال.

وكان للزمن نصيب من هذه الأحاديث التي بينت تسارعه وشبهت الأسبوع باليوم والسنة بالشهر.. ولكنها لم تلق الضوء على سبب وعلة هذا التغيير.. مما جعل بعض المفسرين يتنبأون بحدوث تغير في مسار الفلك ودوران الأرض حول الشمس وحول نفسها، وهذا بدوره سيحدث التغيير في الزمن الذي أشارت إليه الأحاديث.

ولا أعتقد أنهم أصابوا كبد الحقيقة في هذا التفسير.. فآلية تغيير الزمن لا تحدث من خلال تغيير المسارات الفلكية ولكنها تحدث نتيجة لتغيير الحركة الفكرية لدى الناس.. فالزمن هو الزمن لم ولن يتغير.. ولكن الحركة الفكرية في وعي الإنسان هي التي تسارعت وأصبحت فوق مستوى الزمن الذي بدأنا نشعر أنه يمر علينا سريعاً.

فالعامل أو الفلاح الذي كان يكدح في أرضه كان مخزونه الفكري محدود، والموظف كان يسير وفق قناعات يومية في منظومة فكرية متوازنة نسبياً.. أما اليوم فالإنسان منا يحمل هموم العالم كله في عقله وفكره، تتجاذبه مشاكل الحياة وتعقيداتها من جانب، وآماله وطموحاته من جانب آخر.. والملهيات والمتع القسرية من جانب ثالث..

الزمن هو الزمن.. ولكن حركة الإنسان هي التي تسارعت فالتهمت الزمن.. تسارع المتغيرات والأحداث من حولنا خلقت اهتمامات جديدة في عالم الإنسان لم تكن موجودة سابقاً.. انشغالات الإنسان المفروضة عليه هي التي اختصرت الزمن.. تعقيدات الحياة والتعبئة المبرمجة لأفكار القنوات الفضائية هي التي نهشت في الزمن.. وسائل التأثير والجذب الإعلاني جعلك

تجلس ساعات طويلة أمام شاشة التلفاز أو الانترنت دون أن تشعر بالزمن.. الانتقال من مكان لآخر الذي كان يستغرق ربع ساعة بات اليوم يستغرق أكثر من ساعة بسبب زحام المرور..

وحتى نعيد للزمن زمانه الحقيقي ينبغي علينا أن نتخلص من المشتتات، نركز على الأولويات، ليس من الضروري أن نستجيب لكل الدعوات التي توجه إلينا، فقد باتت دعوات المواليد والاستقبالات بشتى أنواعها والحفلات بمختلف أصنافها تأخذ من أوقاتنا الكثير..

علينا عمل تصفية كاملة وشاملة لمنظومتنا الفكرية واهتماماتنا.. ينبغي أن نجعل لأنفسنا شطراً مهما من الزمن، فترة يجب أن لا تستبدل بشيء آخر.. أن يكون للكتاب والقراءة والبحث أهمية ضمن جدولنا اليومي. ولا ننسى فترة للتأمل والخلوة مع النفس..

في عالم المشتتات الذي بات يقتطع من أعمارنا الكثير ينبغي أن ننتبه جيداً فلم تعد حياتنا كما كانت في السابق.. فكل شيء يجذبنا من ناحية، ولو راجعنا أنفسنا جيداً سنجد أن جملة من الأعمال التي نقوم بها على حساب ذواتنا وتزكية أنفسنا غير ضرورية.

أناس يتنقلون هنا وهناك، يشغلون أنفسهم في أي شيء ولأي شيء، لا يستقر لهم قرار حتى في بيوتهم، يقضون ساعات طويلة في متابعة قنوات التواصل الاجتماعي.. حين ندعوهم لممارسة التأمل أو قراءة بعض الكتب يقولون: "لا يملكون وقتاً لذلك، فالحياة متسارعة".

لا يزال اليوم 24 ساعة.. والساعة لا تزال 60 دقيقة.. ولكن كثرة المتغيرات في واقع الإنسان وما يحمله من أفكار ومشتتات ذهنية، وما نقوم به من أعمال لا تصنف أغلبها من ضمن

الضروريات.. جعلت يومنا ساعة، وجعلت أسبوعنا يوماً، وسنتنا شهراً..

فالتغيير الحقيقي في فلك الإنسان الداخلي، وليس في فلك المنظومة الشمسية..

لا تقعوا في شباك الصياد

يستدرج الصياد طريدته بواسطة أصوات يطلقها من فمه، أو من خلال جهاز صوتي أو صافرة ينفث فيها ليتوهم الطائر أو الحيوان أن هناك من يطلبه من أبناء جنسه، حتى إذا ما اقترب ينقض عليه ليمسكه أو يعدمه رمياً بالرصاص أو يقع ضحية في شباكه القاتلة.

يخشى الطائر من الغرباء، ويهرب الحيوان خوفا من الخطر، ولكن حين يسمع صوتاً يشبه صوت أقرانه فإنه يطمئن وتطيب نفسه للاقتراب.. وحينها يكون الصياد اللئيم بانتظاره..

ما أكثر الأبواق والأصوات التي تحيط بنا والتي نعتقد أنها تداوي جراحنا وتغير حياتنا وتهدينا إلى سواء الصراط.. ما أكثر ما نسمع في المحاضرات والأمسيات والدورات وفي الخطب أحاديث منمقة مزخرفة مزينة بنقوش التعابير البديعة، مصفوفة بأصناف المفردات المحسنة والبلاغية.. هي في شكلها غاية في الروعة وفي مفرداتها غاية في الإتقان.. ولكن..

تبقى هذه الكلمات أبواقا وأصواتاً لاصطياد الفرائس والطرائد البشرية.. لقد عمد الصياد لتدشين بوقه وحنجرته بكلام يميل إليه الناس بطبعهم.. فيستهويهم بمفردات الإيمان والتقوى والمحبة والتسامح، ويستدرجهم بحكايات التغيير والحياة السعيدة، ويجذبهم بفتح جراحهم الشخصية ومشاكلهم النفسية.

كثيراً من هذه الأصوات تعزف على أنغام العاطفة والمشاعر، لأن العاطفة هي من تأخذ بلباب النفس لأعماقها السحيقة. فإذا

أردت تمرير أية فكرة أو عقيدة أو عادة فغلفها بدثار من العاطفة الجياشة الملتهبة.. ما الذي جعل بعض زعماء العالم ينجر خلفهم ملايين البشر نحو الحروب والدمار سوى العاطفة الملتهبة التي تميزت بها خطاباتهم الجماهيرية.. وفي النهاية، ملايين من البشر لقوا حتفهم جراء هذه العاطفة.

الصياد يصدر صوتاً غير صوته الحقيقي ليصطاد.. هو لا يعبر عن جوهره ومكنون ذاته، إنما يصدر صوتاً مستعاراً ليتمكن من الإمساك بطريدته.. الصياد سارق بالدرجة الأولى.. يسرق من أحاديث الحكماء وخبرات العارفين ليرويها على الناس.. يسرق من محكم الآيات وبصائر الوحي ليتلوها على المستمعين.. يسرق قصصا من حياة العقلاء والطيبين والناجحين ليحكيها للمتدربين.. هو لم يختبر ما يقول، فما يُحدث به الآخرين ليست تجربته الشخصية، بل تجربة غيره.. ينطق بحنجرة غيره، حنجرة من أختبر الحقيقة وعاشها بكيانه.. ولو اختبرها لكان الصوت صوته.. لكنه لم يختبر الحقيقة يوماً..

فكم من يقول الله الله وفي قلبه غير الله.. وكم من قائل وداع للوحدة والمحبة وفي قلبه أغلالٌ من الأحقاد والكراهية والشنآن.. كم هي الابتسامات التي باتت تفيض فيها القنوات الفضائية مؤخراً، ولكن في اللقاءات الخاصة الجانبية لا ترى إلا التعنت والعصبية العمياء.. كم هو جميل ما نسمع من أحاديث ملائكية تحلق بنا عالياً، ولكنها في الوقت نفسه تخبئ بأعماقها مستودعات من الهوى والمصلحة والأنا المزيفة، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾. وكما قيل: "من لا ينفعك لحظة لا ينفعك لفظة".

لسنا بحاجة إلى روبوتات أو آلات تسجيل بشرية تعيد نقل ما تسمع أو تقرأ.. لسنا بحاجة لمن يخطط ويدبر ويتفنن بالكلمات ليلاً ليلقيها على مسامع الناس نهاراً..

نحن بحاجة إلى أرواح نقية تعكس للآخرين عمق تجربتها الروحية التي خاضتها في الحياة.. الله يريدك أن تكون أنت، ما تقوله للناس ينبغي أن يعكس شخصيتك أنت.. تخل عن صوتك الكاذب وأناتك المزيفة.. اختبر حقيقة الحياة والإيمان، أدخل في علاقة قرب مع الله واستشعر فيض رحمته.. ثم أدع الناس بقلبك لما اختبرته وتيقنت منه "تسبق أنوار الحكماء أقوالهم، فحيث صار التنوير وصل التعبير". عد إلى نفسك لتعود إلى الله، فلا يمكن أن تعرف نفسك ما دمت فاقدا للمصداقية ناظراً لذاتك وأناتك.

نستلهم من المرشد والموجه روحانيته النيرة وفيوضات قلبه النقية وقبساً من أنواره التي اكتسبها بالجد والاجتهاد في طريقه إلى الله، ونستلهم من أخلاقه المثل العليا التي ترسم لنا طريق الخلاص..

لذلك احذر أن تمد يدك، أو تسلم عقلك، أو تفتح قلبك لكل من يدعي المعرفة والعلم، أو نصّب نفسه محاضراً أو داعياً أو خطيباً.. فما أكثر الصيادين المرضى اللئام الذي يتربصون للبسطاء والغافلين الذين تجذبهم الأصوات المحنكة البليغة، وتشدهم الحاجة إلى الارتماء بأحضان من يفتقد إلى أبسط مقومات العطاء والقلب السليم.

التغيير.. وطاحونة الحياة

يعيش البعض حياته كما لو أنها سلسلة من الأحداث الرتيبة المتوالية الجامدة التي لا تتغير أو تتطور.. يستيقظ صباحاً، يتناول إفطاره، يذهب لعمله، يصطحب أبناءه، يتناول غداءه، يتمدد، يتابع الأخبار ووسائل التواصل الاجتماعي، يخرج يرفه عن نفسه، يعود، يرتمي في فراشه مرة أخرى.. سيناريو محدد يعيد نفسه كل يوم ويتكرر كطاحونة هوائية يحرك الهواء أذرعها لكي تدور وتطحن الحبوب..

أضحت الحياة بالنسبة للكثير منا أشبه بطاحونة كبيرة تدور وتكرر دورانها لكي تسحق بذرة حياتنا.. هذا الدوران الذي قد لا ندركه إلا بعد الموت.. فبعد الموت نعي أن حركتنا ينبغي أن تكون تصاعدية وليست ثابتة تراوح مكانها.. رأسية وليست محورية أو أفقية..

إن مجرد تغيرات طفيفة في مواعيد العمل، أو اللقاءات الخاصة، أو التسوق والترفيه عن النفس، أو متابعة القنوات الفضائية وما تحمله لنا من تشويه للعقل وإحباط للنفس.. لن يجدي نفعا في عملية التغير التي نطمح لها..

قراءة كتاب من هنا.. وسماع محاضرة هناك.. وحضور أمسية أو دورة تنموية.. تغيير أثاث المنزل بالفنج شوي، وصبغ المنزل بألوان زاهية، وزيادة الشكل الظاهري رونقاً وانفتاحاً لن يحقق التغير المنشود..

والسؤال: هل حياتنا مجرد طاحونة هوائية تدور برتابة وتكرار ممل، أم أن هناك بعداً آخر للحياة لابد أن نتذوقه ونعيشه؟

من يعش حياة رتيبة فإنه سيرى كل شيء رتيباً جامداً لا حياة فيه، حتى وإن وضع لنفسه قائمة طويلة من وسائل الترفيه والمتعة والسفر. فمن يضع على عينيه نظارة ملونه فإنه سيرى كل شيء بلون نظارته.. ومع الأسف الشديد هذا ما ولدنا وتربينا عليه منذ الصغر وما تعلماه في مدارسنا، وما تؤكده منابرنا ووسائل إعلامنا.

وما بين الرتابة والتغيير.. أو ما بين الحياة والموت، تكمن الإرادة الربانية التي أودعها الله سبحانه في روح الإنسان.. والتي تحول الجامد إلى متحرك، والجاهل إلى واعي، والمتبلد إلى حكيم.. فإرادة التحول كامنة في الروح بحيث مهما تم قمعها فإنها ستظهر على السطح من جديد كلما أتيحت لها الفرصة لذلك.

إذن فالمشكلة لا تكمن في(إرادة) الرغبة في التغيير وإنما في توجيه هذا التغيير.. وإلى أين يتم هذا التغيير؟

البعض حين يخرج من الرتابة يرتاد الشارع ليعبر عن مكنون طاقته المكبوتة.. البعض يحرقها في متابعة الأحداث السياسية ومجرياتها، البعض يستنزفها في تلبية حوائج الآخرين ومتطلباتهم، البعض يفجرها في الغضب والسباب وإنقاص قدر الآخرين، البعض يستهلكها بالشعارات البراقة والهتافات الرنانة، البعض في ترف العلوم التي لا تغني ولا تسمن من جوع.. الخ.

لذلك حتى لو أشعل الإنسان في أعماقه فتيل التغيير.. فإن بدائل التغيير والخروج عن رتابة الحياة تكون مقتصرة على بدائل مادية لا تزيده إلا ترفاً وتخمة وتكالباً وتثاقلا إلى الأرض..

إذن.. أين ينبغي أن يكون التغيير..؟

إذا أردنا تغييراً جذرياً لحياتنا.. تغييراً لا يقف عند حد، ولا يعلوه شيء.. تغييراً لا تسأم منه مهما طال بك الزمن.. تغييراً يأخذك إلى أبعد مما تطلب، ويعرج بك أعلى مما تتخيل.. فليس هناك سوى عالم الروح، أو عالم الغيب.

لقد أرسل الله الرسل والأنبياء ليوجهوا الناس لهذا الطريق.. وأكدوا أن ثم عالم متغير محيط بالعالم الثابت المادي الذي نراه ونلمسه، إذا استطاع الإنسان الشعور به فإنه سيتداخل معه في الحياة، وسيكون جزءاً من منظومته، يسير بتناغم مع متغيراته وتطوره.

ولأنه عالم متغير في كل لحظة.. لا يمكن إدراك أبعاده لسرعة تغيره المذهلة.. فمن يرتمي بأحضانه ستكون له ذات الحياة، سيشعر كل يوم، بل كل لحظة بأنه إنسان جديد.. سيبهره العالم بتغيراته وستأخذ حياته ذات الطابع فيما بعد.

حين يستحوذ وجود هذا العالم على شعور الإنسان ويحرك شغاف قلبه وروحه على الدوام.. هذا الشعور يولد انجذاب مماثل للنور، ولكل شيء يساعدك للاقتراب منه والدخول فيه.. فكما قيل: "ما تبحث عنه يبحث عنك" بل هو أشد منك بحثاً عنك..

قد يرى البعض في هذا الكلام شيئاً من الوهم أو ضربا من الخيال، ولكن حقيقة الأمر، إن الحياة التي نعيشها هي الوهم الحقيقي.. هي الحلم الذي ينبغي أن نستيقظ منه، فالناس نيام إذا ماتوا انتبهوا. في يوم ما سنتذكر الحياة التي عشناها كما نتذكر حلما حلمناه في ليلة واحدة..

حياتنا التي نعيشها برتابتها وخططها ومفرداتها التي تتكرر كل يوم هي الوهم بعينه. ولا يمكننا أن نتحرر من هذا الوهم إلا من خلال اليقظة ولن تحدث هذه اليقظة إلا من خلال ارتباطنا مع العالم المتحرك غير الآسن، الذي ينقلنا كل يوم وكل لحظة

من حال إلى حال. هو ينقلنا كالبرق الخاطف ويميط اللثام عن بصائرنا كانقشاع سحب الغمام حين تشرق شمس الحقيقة..

لا يمكن أن تبقى البشرية على هذا المنوال، لا يمكن أن تبقى في الوهم أبد الآبدين.. لابد من اليقظة..

حين تبقى العقول على ما هي عليه.. على رتابتها المعهودة.. أو حين يلجأ البعض إلى التغيير ولكنه تغيير شكلي مادي لا يزيده إلا تعلقا بالحياة، متخاذلا عن حقيقة التغيير الذي لابد أن يقوم به هنا سيأتي الله بأمره وحينها لا تغني النذر عن أمر قد قُدر.

وكما في الفرد كذلك في المجتمع..

فالمجتمع المتغير (المتنور) الذي يعيش المُثل العليا يقوى ويرتفع التكثيف الروحي له والذي يقف سداً منيعاً أمام العقبات التي تغزو مناحي الحياة فيه. أما إذا وجد ضعفا ما - بسبب رتابة العقول التي تبحث عن الفتن وتنشر الفساد - فإن أثيره الروحي سوف يتفكك ويتخلخل مما يُنبئ عن حدوث ما لا تحمد عقباه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾.

عالم اليوم يعيش أزمات حقيقية عالمية ومحلية، يجب ألا نكون طرفاً في إشعال وتأجيج هذه الأزمات، بل لابد أن نكون طرفا في الاستقرار والأمن وحقن الدماء، وأن نتعلم فنون الأمل والتأمل ونشر السلام والمحبة، وأن نرفع شعار (انشروا السلام في العالم) كما قال أمير المؤمنين (ع) في خطبته، فالقوة والإبداع والعطاء لا تشرق إلا في أرض السلام والمحبة والاستقرار، وأن نسعى للتغيير الحقيقي الذي ينقلنا من التفكير الفردي المصلحي المادي إلى منظومة التوحيد الشهودي المتغير، فكل يوم ربنا عز وجل في شأن ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فإن لم نكن مع الله كنا مع غيره ومع طاحونة الحياة التي تهدر أعمارنا عبثاً.

هل تحب أن تملك كل شيء؟

الأنا دمار كل شيء

الأنا هي الوهم الذي يشكل جذر الأساس لكل انحراف وزيغ في حياة البشر، وهو أكبر عائق يحول بين الإنسان ودخوله إلى عالم النور، فعندما يعتقد الإنسان أنه أصبح شيئاً، فإنه سوف يفقد كل شيء، حتى اتصاله بالله عز وجل. بينما حين يعتقد أنه لا شيء فسوف يملك كل شيء، ويسخر له كل شيء، وتهيئ له إمكانيات كل شيء.

فالأنا.. هي سبب الدمار الشامل الذي تعاني منه البشرية، وهي سبب انتكاسة الوعي وهيمنة الجهل المركب على عقول الناس.. الأنا هي العملة التي يدخل بها المفكرون عالم الأمراض النفسية، وهي الأداة التي يتخذها البعض وسيلة للربوبية، وهي الأكذوبة التي تستغلها الأحزاب والجماعات والمذاهب كوسيلة لفرض سلطتها الدينية والعقائدية..

في يوم ما.. قال ملك من الملائكة - الذي كانت تستغرق كل سجدة منه 6 آلاف عام - كلمة.. (أنا) حين قال: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ..﴾ فأُبلس من رحمة الله وأُخرج من الجنة ومن عالم النور الذي كان متنعماً فيه، ليس هذا فقط بل أصبح مرجوماً جند نفسه ليكون من الدعاة إلى عالم الظلام والفساد والجهل.

مما يثير الدهشة والاستغراب أن (الأنا) التي أخرجت إبليس من الجنة هي نفسها الحاكمة على ثقافة الدين والعقيدة اليوم،

وهي المتداولة بين علاقة البشر بعضهم ببعض على المستوى الفردي أو الجماعي..

الله يقول.. ونحن نقول، أو فلان يقول.. هذا هو التجسيد الفعلي لكلمة الأنا.. الله يقول إنما المؤمنون إخوة، ونحن نقول أصحاب المذهب هم الإخوة وما دونهم أعداء. الله يقول إن دم المسلم وعرضه حرام كحرمة بيت الله، ونحن نستبيح الحرمات ونقتل الأطفال ونحز الرؤوس. الله يقول إن المساجد لله، ونحن ننسفها بديناميت الحقد والجهل والكراهية. الله يقول كل ابن آدم خطاء، ونحن نقول كذب والله من قال أن العالم الفلاني يخطئ. الله يقول ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ ونحن نجعل من خلق الله وعباده أرباباً نكاد نعبدهم من دون الله. الله يقول إنما الحياة الدنيا لهو ولعب، ونحن نستميت لكي تكون لنا الرفعة والمنعة والقوة والكثرة العددية في الأرض حتى ولو على حساب الإنسانية والدين، الله يقول إن الفساد والدمار والكوارث هي نتيجة عمل الإنسان وجهله ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ ونحن نقول هي ابتلاء واختبار من الله ليمتحن إيماننا، الله يقول انشروا السلام في العالم، ونحن نقول انشروا الخراب والدمار في العالم، السلام لأصحاب مذهبنا وعقيدتنا، والهدم الهدم الدم الدم للآخرين. الله يقول لا يغتب بعضكم بعضاً، ونحن نتسلى ونتفنن بأكل لحوم من يخالفونا الرأي والأعلمية والمرجعية..

الله يقول اجعل تدبير أمور حياتك بيدي أسلك بك المحجة البيضاء ونحن ندفع الأموال تلو الأموال ليعلمونا كيف ندبر بأنفسنا أمور وتجليات حياتنا..

الله يقول لا تكن إمعة تردد ما يقوله غيرك وتسلك سلوك الآخرين وتكون لآثارهم من المقتدين، ونحن لم نفكر يوماً أو

نتوقف قليلاً ونسأل أنفسنا عن حقيقة ما نؤمن به هل هو حقيقة من وحي الله أم من إفرازات فكر البشر؟

الكل يعتقد أنه على حق، ومصدر هذا الاعتقاد هو الأنا، وأعظم مشكلة عندما تكون هذه الأنا في مقابل كلام الله، وأعظم كارثة عندما تعارض (الأنا) نصوص الوحي المقدس وتعلن للناس أحكاماً ما أنزل الله بها من سلطان..

إن وقفة صريحة مع النفس بإمكانها أن توقظ أولئك الذي يحسبون أنهم يحسنون صنعاً وتنتشل الذات من براثن الأنا (السمعة، المكانة، التحزب، التملك، التنزيه) التي غرسناها جهلاً في معتقداتنا وسلوكنا الديني وترجعنا إلى حقيقة التوحيد الخالص، إلى حيث النور الأبدي الخالد، فهناك لا مجال للأنا، وحيث لا يكون مجال للأنا في نفسك، عندها تكون لا شيء، وحين تكون لا شيء، سيهبك الله كل شيء "من كانت الآخرةُ أكبر همَّه، جعل اللهُ غناه في قلبِه، وجمع له شملَه وأتتْه الدُّنيا وهي راغمةٌ".

يقظة التأملات

- طيور.. وأنغام الليل
- سمكتي والمحيط
- ماذا يريد الطفل الذي بداخلك؟
- لمن يعشق جمال الورد
- جنة الظل
- عش تجربة شروق الشمس
- جرثومة العناية المركزة
- تأملات.. على أغصان الشجر
- تأمل الآفاق الكونية
- البحر.. إيقاع تأملات
- إشارة تعاقب الليل والنهار
- الجنة.. والانتظار
- إشارات وإرشادات السماء
- شمعة العاشق
- ابتهج.. وعبر عن حبك لله
- صندوق الأمنيات
- فقط.. أغمض عينيك

طيور.. وأنغام الليل

حين تتداخل ألوان الحمرة الذهبية المنبعثة من أشعة الشمس مع الشفق الأبيض الذي يسبق الغروب تعلو أصوات الطيور العائدة إلى أوكارها، وزقزقة العصافير الراجعة إلى أعشاشها معلنة نهاية يوم حافل بالعطاء والتحليق في آفاق السماء..

من يعشق الأشجار ويعيش بالقرب منها يدرك هذه الحقيقة، ويعلم أن فترة ما قبل الغروب هو زمن العودة.

استوقفني منظر بديع ذات يوم حين كنت أجلس بالقرب من شجرة بعودة مفاجئة لسرب من الطيور استوطن شجرة جميلة واتخذتها عشاً له، فقد كانت أصواتها وزقزقتها عالية لدرجة لا تكاد تسمع من تحادثه.. إلا أنه خلال دقائق معدودة هدأ كل شيء وساد صمت مطبق وكأن الشجرة خالية من أي كائن حي.. فقد آلت الشمس للمغيب.. وبدا سكون الليل المهيب. أثارني هذا المشهد وتساءلت في نفسي.. لماذا تلتزم الطيور بدقة متناهية في رجوعها إلى أعشاشها؟ فجميع الحيوانات تنام.. ولكن ليس كالطيور، وكل الحيوانات تلتزم بساعتها البيولوجية.. ولكن ليس كالطيور.. حتى أصبح يضرب المثل لمن ينام باكراً بأنه (مثل الطير أو مثل الدجاجة).. والأهم من هذا هو هل لهذا الالتزام وهذه الدقة الديناميكية علاقة بالطيران؟

قد لا تكون الإجابة وافية ومدركة فيما يتعلق بمنطق الطير.. أما في عالم الإنسان فهناك علاقة وطيدة بين السكون والصمت والهدوء الذي يعقب المغيب وبين الطيران، ولا نقصد بالطيران هنا الجسدي وإنما هي حالة العروج الروحي إلى حيث السكون والصمت والرجوع إلى العش الذاتي والشجرة الأم.

وإذا كان الطير يستغرق في سكونه الليل بأكمله ليحلق عالياً في الصباح الباكر وقبل طلوع الشمس، فإن الإنسان يكفيه من الليل نصفه أو ثلثه لتحلق روحه عالياً في سماء الوجود حيث الحب المطلق والعطاء اللامتناهي..

قد لا يحظى كثير من الناس بهذا السكون، فطاحونة رحى الحياة تلتهم الزمن ولا تفرق بين ليل أو نهار، فالمصباح والآلة أضاءت عتمة الليل ولكنها أدت في الوقت نفسه إلى ظلام النفس التي فقدت حنينها إلى السكون والارتماء في أحضان العش الذاتي الدافئ.. وعليه فإن التمتع والأنس بخلوة تكسوها ستائر الليل بحاجة إلى صلة واعية وقلوب وجلة ونفس مسبحة ذاكرة تؤهلها لتتذوق طعم وحلاوة هذه الممارسة الروحية، ولعل الطير لم يحض بمثل هذا العطاء والسكون الليلي لولا اتصاله وتسبيحه أثناء النهار ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾..

فالرجوع إلى عش ذواتنا بحاجة إلى صلة وتواصل.. وهذه الصلة هي التي تكشف أغوار أنفسنا وتؤهلها للطيران والتحليق من جديد.. وكما أن ريش الطائر لا ينمو ويطول بين ليلة وضحاها فإن عملية التأهيل البشري للطيران تتطلب وقتاً يتوقف على استعداد النفس وتقبلها ومدى صلابتها وإرادتها لتخطي تقلبات واحباطات الواقع والحياة.

إن الطيران يعني أنك ستتحدى جاذبية الأرض وتعاكسها في الاتجاه، ويكون الأمر أصعبه في بادئ الأمر.. ولكن بمجرد التحليق والانعتاق من الجاذبية ستشعر بحرية لا حدود لها، فمرحلة الصعود من أخطر مراحل الطيران وهي المرحلة التي يسقط فيها الكثير والتي تكثر فيها حوادث الطيران الآلي. لذا فإن أصعب مرحلة في مسيرة الإنسان الروحية بدايتها.. لأنها تتطلب منه الانعتاق من القيود الأرضية والتخلص من التعلقات

المادية.. البداية بحاجة إلى طاقة قوية للتخلص من جاذبية الأرض وثقلها.

لا يترك الطائر أثراً بإمكان الطيور الآخرين تتبعه واللحاق به، فالأثر يتلاشى في الأثير.. فالأثر لا يدل على المسير كما في البعد المادي، مما يعني أن السلوك الروحي لا يعني تتبع آثار الماضين بقدر ما تختبر تجربتك الشخصية.. في الجانب التشريعي المادي هناك قدوة تتمثل في السلوك، بينما في الجانب الروحي هناك أسوة وهو الذي تستمد منه المدد لتخلق مسارك الخاص بك، فعالم الروح أشبه بخيوط نور متدلية تخلق مسارات كل واحد فينا..

همة الطائر وحدها تجعله يحلق في الهواء ويخترق الفضاء..! وهمة الإنسان تجعله يمسك بأطراف هذه الخيوط.

قف للحظة.. بالقرب من شجرة وانتظر قرب مغيب الشمس سترى مئات الطيور رجعت إلى أعشاشها.. انتظر قليلاً سيهدأ صوتها.. تمنى في نفسك وبكل رغبة وشوق أن تعود إلى عشك وذاتك كما عادت تلك الطيور لتحلق في الفجر عالياً في سماء الوجود.

سمكتي والمحيط

جمال ورشاقة تنساب كريشة تتلاعب بها نسائم الصباح الباردة.. تنتقل هنا وهناك بألوانها القزحية المتمايلة وكأنها وشاح أميرة في ليلة زفافها.. يكاد رونق ألوانها يصبغ الماء الزلال القابعة فيه من تألقه وشدة لمعانه..

هذه هي سمكتي الجميلة التي أحدق فيها كلما أبحرت في عالم الأفكار أو استنشقت رذاذا من نجوى الإلهام، أو تَطلَب مني موقف ما لحظات من السكون والتأمل..

فرقتها وانسيابيتها تعلمني المرونة والليونة، وتداخل ألوانها يلهمني الإبداع والدقة، وزعانفها الرشيقة توحي بالتوازن والانسجام، ونعومة ملمسها يذكرني بالشفافية والوضوح والانعتاق من وهم الواقع المرير بعفوية وسهولة..

عندما نقلتها في قارورة زجاجية جميلة أكبر حجماً.. انطلقت تشق المياه بسعادة وفرح وكأنها تسبح في أعماق المحيط، وتتخيل أنها قد حضت بعالم لامحدود بعد أن تخلصت من ضيق اللحد المحدود الذي كانت ترتمي فيه..

وفي غمرة النشوة بالعالم الجديد تخيلت نفسي وأنا في حالة تأمل واستغراق أن أسأل السمكة عن شعورها بهذا العالم.. وكأنها أحست بما يختلج في مخيلتي.. فهمست في وجداني عبر سيمفونية رقرقة الماء.. أجل أنا فرحة بهذا العالم.. فهذا عالم

الكمال وهذا المتسع من الماء هو جنتي وراحتي.. استغربت لردها وقلت لها إن هذا متسع ضئيل وحوض ماء صغير، فكيف إذا رأيت البحار أو الأنهار.. وماذا ستقولين إن رأيت المحيط.. فأجابت: المحيط..! أليس هذا هو المحيط، أيوجد مكان أكثر اتساعاً من هذا..؟.

أجبتها: أجل عزيزتي أنت لا تعرفيه ولا تدركي أغواره وأعماقه ولا تتخيلي اتساع آفاقه، وكونك لا تعرفيه أو تشاهديه فلا يعني ذلك عدم وجوده.. فبدت عليها علامات والحزن والأسى فكيف فاتها أن تعرف وتعي الحقيقة.. وأن حوضها وقارورتها لا تمثل إلا نقطة في غياهب المحيط..

أثار حزنها شجوني ونقلني إلى عالم البشر.. وقلت في نفسي.. سمكة تحزن لأنها كانت تظن واهمة بأن حوضها هو محيطها.. وقارورتها هو عالمها.. فما بال البعض منا يعيش حياته بتصورات وآراء ومعتقدات مليئة بالأوهام والظنون، مترعة بالأساطير والخرافات، مشحونة بصور التضاد والتعارض، يأخذها مأخذ التسليم، دون أن يتوقف أو يتفكر بها أو يألوا جهداً لتمحيصها والتأكد منها.. معتقداً أنه وصل إلى الحقيقة.. كل الحقيقة.

حين يبني الإنسان عالمه المعرفي والثقافي والعقدي لا ينتابه أدنى شك بأن عالمه الذي يعتقده وأفكاره التي يؤمن بها قد تجانب الصواب وقد لا تكون إلا مجرد أوهام نسجت من خياله أو خيال من سبقوه.

وهنا تكمن المشكلة.. فالأفكار والتصورات والاعتقادات التي بناها عن الحياة والخلق والوجود من خلال حدوده الضيقة ومعارفه المتوارثة وآفاقه المحدودة قد لا تعدو مجرد اجتهادات بعيدة كل البعد عن الحقيقة.. من خلال بعض المعارف السطحية أو المعلومات المتناثرة هنا وهناك في بطون الكتب يزهو البعض بنفسه معتقداً أنه وصل إلى قمم العلياء في المعرفة والعلم..

الكل يعتقد بأن ما يملكه هو الحقيقة المطلقة، وآراؤه قطعية الدلالة ولا شيء سواه، وإنه سبر أغوار الدين وكشف حقائقه فلا شيء يحتاج إلى المزيد، لذلك تراه لا يأتي بالجديد ولا يكلف نفسه عناء البحث والتحري.. ولا يعرف بأن هناك محيطٌ تقبع بأعماقه كنوز من المعارف والحقائق لا يزال يجهل أغوارها.

خذ جولة سريعة في قنوات التواصل الاجتماعي لترى حجم المأساة التي نعيشها.. فالكل ينظر إلى القرآن والتشريع والعلم وسيناريو قصة الخلق وفلسفة الوجود بمنظاره الخاص (المحدثين)، أو بمنظار من سبقوه (التراثيين)، وكلاً يدافع عن آراء ليست حقيقية، وعن تصورات مليئة بالزيف والتحريف..

عندما يعتقد الإنسان للحظة بأنه قد أحاط بالعلم والمعرفة، عندما يُخيل إليه بأن التعظيم والتقديس الذي يلاقيه من الغير هو ما يستحقه حقاً، وأن الجنة خُلقت لأجله يرتقي فيها على منابر من نور، وأن العذاب ينزل على كل من يخالفه.. عندما تنتابه حالة من الغضب حين لا يُؤخذ برأيه أو تُنتقد آرائه.. فإن عالم هذا الإنسان أصغر من قارورة سمكتي الجميلة..

السمكة تعتقد أن حوضها هو محيطها ولا شيء غيره، وملايين البشر يعتقدون أن الحقيقة.. كل الحقيقة.. هو ما تبرمجوا عليه وعرفوه أو ما توارثوه ممن يعتقد أنهم فقهوه، أو بعقولهم المحدودة أدركوه، ولا شيء آخر..

حين رجعت إلى عالمي نظرت إلى سمكتي الحزينة أخذتها إلى أقرب خليج ماء يؤدي بها إلى المحيط.. قفزت راقصة من بين يدي وقالت: ليت الناس يعلمون حقيقة وعمق المحيط.. فقلت لها: ويا ليتهم يعلمون أيضاً محيط الحقيقة وعمقها.

ماذا يريد الطفل الذي بداخلك؟

تشد الألعاب الجميلة والملونة والمزركشة انتباه الطفل، فتراه يترك يد أمه أو أباه ليتجه إليها بكل قوة ممسكاً بها أو مشيراً إليها أو طالباً من أبويه شراءها، ولكن حين يستحوذ عليها وتقع تحت طائلة أنامله الناعمة ويشبع رغباته الآنية منها.. تراه يبحث عن أبويه من جديد.. الوالدان اللذان اعتقدا أن طفلهما قد لا ينفك عن لعبته الجديدة لأيام أو ربما لأسابيع..

حين ينشغل الوالدان لفترة من الزمن خارج المنزل ويدعان طفلهما عند أحد الأقارب، فإن مفتاح قبول هذا العرض لدى الطفل يكون بتهيئة الألعاب المناسبة له في منزل القريب، فهذه الألعاب سوف تلهيه ساعة الفراق حيث ينسحب الوالدان بخفة ورشاقة لم يسبق لها مثيل ويتركان الطفل غارقاً مع ألعابه الجديدة المسلية.. ما يحدث بعد ذلك أن وعي الطفل يتشبع بهذه الألعاب ويشعر قلبه بحاجة ماسة إلى شيء أعمق من هذه الدمى الآلية أو الهياكل المادية، فيلتفت هنا وهناك بحثاً عن مصدر الحب والحنان (الأم) والأمان والاطمئنان (الأب) وحين لا يجدهما يبدأ في البكاء والنحيب، ويشعر باضطراب نفسي وقلق جراء فقدان أهم شيء في حياته.

معاناة وشقاء تلك اللحظات التي يعانيها الطفل في هذه الفترة، معاناة تفشل كل محاولات السيطرة عليها.

مهما كبر الإنسان، شب أو شاخ أو هرم تبقى هذه الحاجة الماسة في قلبه لا تنطفئ ولا تخمد.. وهي حاجته للحب والحنان والأمان. مهما اختلفت أعراقنا وألواننا وجنسياتنا وأفكارنا تبقى

هذه الحاجة مترسخة في كل واحد منا لأنها من طبيعة الروح المتأصلة في كل كائن حي لا ينفك عنها مهما غفل أو تغافل وجودها أو أنكرها.

ولأن الروح القابعة في أعماقنا غريبة عن العالم الأرضي المادي فهي تحن إلى عالمها وتشتاق إلى مصدر انبعاثها وتعشق موجدها وخالقها. ومهما انساقت أعمارنا في مادية الحياة يبقى هذا الشوق هو الرحيق الصافي الذي تحيا به القلوب.

حاجة الروح لهذا الحب الروحي لا يسده أي بديل آخر قد نضعه نحن بني البشر. مهما بحثنا عن البدائل (الألعاب) وخلقنا متعاً عديدة في العالم وترفيها لم يشهد له التاريخ مثلاً.. فإنها عادة ما تبوء بالفشل لأنها لم ترض حاجتنا الداخلية، لذا نصاب بالإحباط في كل مرة نمل فيها من اللعب بما بين أيدينا ونبقى أخيرا نلتفت يمنة ويسرة بحثاً عمن يسد هذا النقص فينا وعن الحب الذي تتوق إليه أرواحنا.

قد نفرح لحظات.. وينتابنا شعور غامر بالسعادة تجاه أمر معين، كنجاح في امتحان، تخرج من الجامعة، الانتهاء من انجاز عمل عظيم، ترزق بمولود جديد، شراء سيارة جديدة، مشروع سفر لمكان بعيد.. وغيرها من المسرات، ولكنها تخبو مع الزمن وتتلاشى مع الأيام لأن كل هذه الأمور لا تمس ذاتك الحقيقية إنما تلامس نفسك، ولأن النفس عادة ما تكون في حالة تقلب وتغَير فإن ما تفرح به اليوم يصبح شيئاً عادياً في الغد..

لا بأس أن نفرح بهذه الأمور وغيرها.. ولكن حين يخبو معدل شعورنا بالسعادة تجاهها ينبغي أن ندرك حينها أن هذه الأمور لا تمثل السعادة التي يحتاجها الطفل الذي بداخلنا.. فالبيت الجديد، والسيارة، والسفر، والعلاقات الجديدة، والوفرة، والأموال، والوجاهة، وحتى العلم هي أشبه بالألعاب التي يلهو بها الطفل.

الحياة بما فيها من متغيرات وأحداث متوالية وأصوات عالية تجعلنا لا نسمع أو نستمع لصوتنا الداخلي.. لصوت الطفل الذي يريد أن يُعبر عن حاجته.. وبالتالي لا نشعر بالحنين إلى منبعنا الأصلي.. لا نشعر أن ثمة شيء بداخلنا بيده مفاتيح البهجة والطمأنينة والسعادة الحقيقية.

الحياة واقع ينبغي أن نعيشه بكل متغيراته وأحداثه، ولكن لا ينبغي أن نتخبط أو نتيه فيه، لا ينبغي أن يأخذنا بعيداً عن ذواتنا الحقيقية.. أن يقتل الطفل في أعماقنا. لا تعني الحياة إشباع الحاجات الجسدية والنفسية (الأنا) فقط، فهناك حاجات مقدسة أرفع قدراً بكثير من هذه الحاجات الدنيا.. فالذات والعقل، والروح ينبغي أن تكون لهم أولوية الإشباع. وهذا ما يحقق السعادة الحقيقية.. لذا جاء في الحديث: "من ساعاها (من السعي) فاتته، ومن قعد عنها أتته، ومن نظر إليها أعمته، ومن نظر بها بصرته". ويُقصد بالسعي هنا ليس السعي الطبيعي ولكن أن يتحول الإنسان إلى مجرد آلة لا تتوقف عن العمل لإشباع حاجاته الجسدية والنفسية.

لذا انتشل نفسك من محيط العمل برهة وتنفس تنفسا عميقاً يطرق أبواب قلبك وأعماقك.. اختل بنفسك لحظات.. تجرد عن كل شيء.. اصمت لحظات لتسمع صوتك الداخلي، فصوت الطفل هادئ خفيف وديع لا يمكن سماعه بالضوضاء والضجيج وتوارد الأفكار المتسارعة.. ينبغي أن تكون منتبهاً حذراً مترقباً متجرداً عاشقاً محباً ولهاً حتى يمكنك سماعه.

الطفل يترك لعبه بعد فترة من الزمن ليتجه إلى مصدر وجوده (الأبوين).. وحين يحب الإنسان شخصاً يشعر بسعادة عارمة تكتنفه لأن هناك روحاً تشاركه المشاعر والأحاسيس.. وقد تغير هذه العلاقة مسار حياته، فكيف ستؤول حاله إن ارتبط وأحب وتقرب إلى مصدر ومنبع هذا الحب؟.. وإذا كان الطفل

يترك لعبه بعد أن أقام الدنيا ولم يقعدها للحصول عليها فترة.. فهل نتجه نحن إلى مصدر أمننا وأماننا وحبنا الحقيقي؟

الطفل لا يزال في داخلك.. والروح قابعة في أعماقك بحاجة ملحة وماسة للحب الحقيقي.. بحاجة إلى أن تتواصل مع عالمها ومع موجدها وخالقها.. فحين نختبر محبة الله اللامتناهية في حياتنا ونلمس الرحمة وذلك الحنان ﴿وَحَنانا من لدُنا﴾ والفيض الذي يغدق به الله على أرواحنا، سوف نشعر بالرحمة والمحبة تجاه كل المخلوقات بل وحتى الأشياء من حولنا. "فمن أحب الله شهده في كل شيء، ومن عرف الله لم يؤثر عليه شيئا".

الطفل يلتفت يمنة ويسرة باحثاً عن مصدر الحب والأمان.. أما نحن فينبغي أن نوجه بوصلة قلوبنا للداخل حيث الروح وحيث الحب المتأصل فيها. لا يمكننا أن نشعر بالسعادة والأمان ولا أن ندرك مملكة الله وكمال الخالق من مجرد أحاديث نسمعها أو مجموعة أوراق نتصفحها أو كتب ندرسها. لا يمكننا إدراك الحقيقة ما لم نغص في أعماق ذواتنا وأرواحنا كي نصل إلى منطقة الأمن والأمان.. إلى مصدر العظمة والحكمة والعلم والنور.. ففي سكون الروح سنسمع ذلك الهمس الذي يغير حياتنا ويضفي عليها لمسات الحب والحياة الروحية.. فقط ثق أن هناك إلها ينتظر أن تبادله هذا الحب الحقيقي ليكون حبيبك الذي لا تغني عنه كنوز الأرض جميعاً.

لمن يعشق جمال الورد

أعجبني حسنها وأدهشني جمالها وأبهرني تناسق ألوانها.. رمقتها بطرفي فإذا بها تتمايل شجوا مع أنغام النسيم وتترنم همساً بأنشودة الربيع.. اقتربت منها على مهل فغمرني أريجها الفواح، وأحاطني شذاها من كل اتجاه.. أسرني ملمسها حين داعبتها بأناملي، وأذهلتني رقتها المخملية التي كادت أن تذوب بأنفاسي..

بقيت بالقرب منها برهة من الزمن أتطلع لذلك الجمال الرباني لعلي أحظى ببارقة إلهام أكشف من خلالها أسرار تلك الآية الجمالية أو أنيط اللثام عن تلك الصورة الربانية..

إلا أنها لم تلتفت لوجودي، ولم تبصرني بعين أو تشيح لي بوصال، فقد كان وجهها شاخصاً باتجاه لا تحيد عنه وبمسار لا تنحرف منه.. حينها أخذني الفضول لألتفت باتجاه ناظريها ولأرى ما يشد إحساسها ولهفتها وشوقها ويجتذب كيانها وفكرها..

التفت فلم أر شيئاً سوى الأفق.. فهي تنظر إلى الأفق.. إلى الأفق البعيد، وبالتحديد هي تنظر إلى تلك النقطة المشعة في كبد السماء وإلى الأشعة المتراقصة التي تحيطها.. هي تنظر إلى الشمس وتغمر كيانها بدفء أشعتها وحنان مودتها، حتى بات شكلها كالشمس دائرة يحيطها تاج مرصع بفلول الأشعة الورقية الملونة..

لا شيء أجمل من الورد والزهور.. ولا شيء أبلغ في الجمال حين تربط حياتك الروحية بما جبلت عليه تلك الزهور، فلقد أغدق الله عليها ذلك الجمال لأنها دائمة النظر لمصدر النور، تنتظر الفجر بفارغ الصبر لتفتح ذراعيها وتستقبل أول شعاع من السماء يخترق كيانها ويلهم مشاعرها.. ولا تسأم من الانتظار ولا تمل من النظر الدائم، ولا تمنعها الغيوم عن ترقب حقيقة النور القادم من السماء ولا الرياح عن تغير اتجاهها أو ميلانها.. فرقتها وليونتها تجعلها تتمايل ولا تنكسر لتعيد وجهتها كما كانت نحو السماء، ولا تنقطع طريقتها هذه في الحياة إلا حين تموت أو تقتلع من جذورها أو تقطف لتقدم هدية لحبيب أو صديق أو عزيز..

ولعل جمال الورد الذي يبهر الناس ما هو إلا تمثيل لتلك الأشعة القادمة من السماء التي تختزن في أوراقها فتتلون بألوان الحب وتندمج بعصارتها فيفوح أريجها بأطياب العطر.. فتكون مهوى لقلوب المحبين وروضة مترعة لأفئدة العاشقين، فلا يختلف عاقلان حول جمال الورد وروعته.. فهو جميل بذاته وجميل بما يغرسه من حب بين الناس، وجميل حين يتفق كل الناس على جماله..

ولكن ماذا لو سلك الإنسان طريق الورد؟ بمعنى إذا كانت الشمس بأشعتها الصفراء تجتذب الورد وتمنحه كل هذا الجمال والعطاء، وتجعله دائم النظر إليها يرقبها في كل اتجاه وفلك تدور فيه، لعلمه بأنها مصدر طاقته وحياته..

فكيف لو سلك الإنسان سلوك الورد وتعلق بالنور الأزلي والسرمدي ومصدر قوة الأكوان والأفلاك والحياة، وتخلى عن كل الاتجاهات وسد كل الأبواب، وكسر كل الأصنام وحطم كل الأوثان.. فأي جمال سيكتسي وأي لباس سيرتدي، وأي محبة في

قلوب الخلق سيجني، وأي نور في أعماقه كان خامداً سيعتلي وأي سلم في الدرجات سيرتقي..

جمال الورد هو نتيجة طبيعية لسلوكه وطريقته.. وللإنسان أن يكون أجمل من الورد لو اتبع طريقته التي تتطلب إدامة النظر والاتصال وتحديد الوجهة التي يعبر عنها القرآن بالطريقة ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً﴾ فحينها يستمد من نور الخالق جماله وجلاله فتنحني له الشمس خجلاً وتسجد له الأفلاك كرامة وامتثالاً.. وتفرش له الورود نفسها محبة وحياءً..

جنـــة الظل

لو شاءت الأقدار.. وأجبرتك الظروف على السير مسافة طويلة في صحراء قاحلة تحت شمس محرقة وعلى رمضاء ملتهبة.. فإن أكثر ما تتمناه وتنشده أن تحظى بظل يقيك حرارة الشمس الساطعة ويخفف عنك عناء المسير ويعيد لك رمق الحياة.

وعندما تجد الظل وترتمي بين أحضانه وتسند إليه ظهرك.. تغمرك نشوة الفرح والاسترخاء والراحة.. تشعر بعدها أنك قد عدت إلى طبيعتك وذاتك.. فتلملم قواك المنهارة.. وتنفض عن نفسك عناء المسير وصعوبة الموقف.. وتبدأ في التفكير العميق للخطوة التالية.

إن الظل في حالتك هذه أشبه بفيض الحنان الذي أمدك بالحياة والسعادة والآمان.. أشبه بالأمل الذي أعاد إليك رمق الوجود.. ولهذه العلة جبل الإنسان على حب الظل بمختلف صوره وأشكاله وأنواعه.

هذه الصورة الرمزية التي يمر بها الإنسان مراراً وتكراراً في حياته تحتاج إلى وقفة تأمل وتدبر تستقى منها العقول الحكيمة آية وعبرة.. وتنشد منها النفوس الواعية سلوكاً وتطلعاً للبناء والكمال.

قد ننظر إلى الظل من زاوية ضيقه حفزت الإنسان على مر التاريخ لتنظيم وقته وبناء مستوطناته ومقر إقامته ومعرفة تقلبات الرصد الجوي.. ولكن من أشرق نور المعرفة في قلبه يرى في الظل ثلاثة حقائق أساسية:

أولاً: أنه آية من آيات الإبداع الكوني التي تتعلق بحركة الكواكب والأفلاك فالظل سباحة فلكية عميقة تجوب فيها كتلة عظيمة من المادة فضاء الكون الفسيح ومن خلال حركتها يتكون الظل الذي يزيد وينقص بمقدار تلك الحركة..

ثانيا: الظل هو أذان التوحيد الصامت الذي يعلن ساعة إقامة الصلاة التي تربطك بالخالق، فهو أشبه بالميقات الذي ينساب إلينا من خلاله تلك النفحات القدسية التي تنفض عن قلوبنا هواجس النفوس.. لذلك كان الرسول ﷺ ينظر إلى الشمس وقت الزوال ثم يلتفت إلى بلال ويقول له: "قم وأرحنا يا بلال"..

ثالثاً: الظل سفينة النجاة التي تجعلك تعود إلى ذاتك وطبيعتك التي فطرك الله عليها، فهو الأمان والأمل لكل عابر سبيل في هذه الحياة وبدونه يشعر الإنسان بالضياع والتيه في صحراء قاحلة لا زرع فيها ولا كلأ.

فالظل يحمي الإنسان من مهلكات الدهر وفتن الزمان.. يقيه من النيران الملتهبة التي تداخل نفسه وكيانه في كل لحظة وحين.. فالنفس البشرية دائمة البحث عن الظل الذي يهيئ لها السعادة والأمان والاستقرار.. تبحث عما يحقق لها كيانها وارتقائها وسموها..

تبحث عن ظل يريحها من عناء سفر الحياة الشاق تحت أشعة الحياة المادية الملتهبة.. تبحث عن الظل في الأرض الجرداء التي تحولت فيها القلوب إلى حجارة أو أشد قسوة..

تبحث عن الظل بين لهيب الضمائر التي جف ماؤها فأضحت أطلالاً خاوية على عروشها.. تبحث عن الظل بين ركام الماديات والتحضر الذي أفقدنا أصالتنا وهويتنا.. تبحث عن الظل بين رمال القشريات والهوامش التي تكالب عليها الناس حتى كادت أن تشكل كثباناً متحركة تعيق مسيرتها..

لقد عاش نبي الله موسى (ع) ظروفاً قهرية عندما كان في طريقه إلى مدين بعد أن خرج من مصر خائفاً يترقب، لا يملك ما يسد جوعه إلا البقل وورق الشجر، بطنه لاصق بظهره من الجوع، حافي القدمين في حالة يرثى لها من الخوف والجوع والقلق والاضطراب.

ولكنه وجد الظل الذي أسند إليه ظهره وغير معادلة الضعف إلى قوة، والانكسار إلى أمل وحظوة، والخوف إلى اطمئنان وراحة ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ لقد ناجى موسى ربه تحت ظل الشجرة التي آوى إليها بعد أن رجع إلى نفسه واستجمع قواه ولملم جهده فكان بذلك نجاته وسعادته وبداية لمسيرة دعوته مع نبي الله شعيب (ع)..

وإذا كان ظل الشجرة والسقف والحائط ظل محدود ومؤقت يزول بقطع الشجرة أو تهاوي السقف أو سقوط الحائط.. فإن الظل الذي أسند نبي الله موسى (ع) إليه ظهره ظل ممدود دائم باقي لا زوال له ولا اضمحلال.

لقد وجد موسى (ع) ظله.. ولكن ما بالنا نحن البشر.. هل حُرمنا تجربة إيواء الظل التي نستعيد من خلالها انطلاقتنا في الحياة.

إن كرم الله الفياض أغدق على الوجود نعمة التمتع بالظل الإلهي، فقبل شروق الشمس يغمرنا شعاع أبيض ينسل من خلف الأفق يسطع نوره على كرتنا الأرضية، ليحيل ظلامها القاتم إلى نور ساحر، وهو ما نسميه بالشفق الأبيض، الذي يسبق أشعة الشمس حين شروقها ويعقبها بعد المغيب. حينها تنشأ حالة تعرف بالظل الظليل وهي الفترة الواقعة ما بين ظلمة الليل وشروق الشمس أشار إليها القرآن بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ وهذه الفترة التي لا تحسب من الليل ولا من النهار.

والظل الظليل.. حالة مشابهة تقريبية لأجواء العالم الآخر، أو العالم الروحاني الذي ينتقل إليه الإنسان بعد رحيله من الأرض، والتي يعبر عنها القرآن بحالة السلام ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾. فالشفق الأبيض بما يحويه من شعور بالسلام والطمأنينة في النفوس يذكر الإنسان بأصالته وحقيقته كأجواء متناظرة، كما يكشف نصوع الألوان ويرجعها إلى مكوناتها الأساسية التي تشكلت منها.

ومن هذا النور تستقي قلوب المحبين وتنهل من ومضات الخير والمحبة ما يشحنها ويملؤها سعادة وابتهاجاً وسروراً..

فاللون الأبيض تجسيداً للصفات الملائكية، ورمزا يمثل النقاء والصفاء والتسامح والمحبة.. لذا فالإنسان مرتبط بهذا اللون برباط وثيق قوي، فحين الولادة يلف بخرقة بيضاء، وحين يرتحل يكفن بخرقة بيضاء.. وما بين الولادة والموت أمرنا الله أن نتوجه إليه وإلى بيته الحرام بلباس الإحرام وهو اللباس الأبيض..

بل جعل بداية الأشهر العربية تبدأ من المحرم، أي أن يبدأ الإنسان دورة حياته الزمنية وهو مُحرم أي ينعم قلبه بالسلام وروحه بالطمأنينة والنقاء، وهو ما يوصله في النهاية إلى الله.. لذا كان آخر الشهور العربية هو ذي الحجة وهو شهر ضيافة الله عز وجل..

وكما أن الشجرة تعتبر ظلاً لرجل الصحراء.. فإن هذه الفترة هي فترة الراحة والأمان والسكون والصفاء لنا جميعاً.. فحين يختلي الإنسان بربه تسكن نفسه وتهدأ جوارحه ويطمئن قلبه فتكون أقرب إلى حال المناجاة التي نعرف من خلالها حقيقة أنفسنا وذواتنا..

هذه الساعة هي ظل الإنسان الحقيقي.. في هذه الساعة تبدأ تتشكل حقيقة الألوان عندما يلفحها ضوء النهار الذي خرج

للتو من عباءة الليل المظلم.. فيأخذ كل شيء في الوجود طبيعته الفطرية، في هدوء وسكون لا تسمع فيه سوى إيقاعات أنغام الطيور المحلقة.. هدوء ينقلك إلى عالم الروح والصفاء البعيد كل البعد عن الماديات المزخرفة، والنفاق المبطن، والصخب المصطنع..

إن لحظة مناجاة في هذه الساعة لها تأثير مضاعف على سلوك الإنسان الذي ينتظر إشراقة يوم جديد.. يوم استعد له بمعرفة حقيقة نفسه التي تجردت عن العوالق المترسبة..

يوم قد شهد ظله.. ومن شهد ظل يومه وأسند إليه ظهره لا تلفح وجهه أشعه المنزلقات المحرقة بل يكون بمأمن منها..

فإذا كان للظل هذا العطاء الآمن.. فهل نوفق للتمتع بهذا الظل ليقينا حرارة الآخرة.. أم يسلبنا العبث عطاءه فنسند ظهورنا إلى ظل آخر يعجز حتى أن يقينا حرارة شمس الدنيا.

عش تجربة شروق الشمس

كل يوم تعلمنا الشمس درساً جديداً، وتبعث برسالة ساطعة إلى البشرية، وتغرس فينا حكمة تجل عقول الحكماء عن تخيلها. فكل يوم تنسل أعمدة النور خلف الأفق لتوقظ العالم من سباته المظلم وتدفئ عجلة الحياة الراكدة التي أضناها العناء والتعب..

كل إشراقة يوم جديد.. هو درس جديد.. تعلمنا إياه الشمس وكأنها تهمس في آذان البشرية أن النور يعقب الظلام.. وأن ليل الأرواح لن ينجلي ما لم يشرق في أعماقها نور الحب والمعرفة والسلام.

هناك من ينتظر شروق الشمس ويتحين نورها الساطع..

وهناك من يستيقظ وقد غمرت العالم بأشعتها وارتفعت في السماء..

وهناك من لا يعير لها أية أهمية في حياته لانغماسه في مسرحية الحياة واعتبار النور حالة استثنائية في حياته.

لا نقصد بمن يرقب الشمس من يكون مستيقظاً وقت شروقها فقط.. فهناك الملايين ممن تعودوا الاستيقاظ قبل الشروق.. ولكننا نقصد من يتطلع إلى السماء ويفتح قلبه للآفاق ويستلهم فيوضات الأنوار القادمة من بين الغمام، ويسمع همس تراتيل الألحان من فوق السحاب..

لسان حال الشمس يسألنا كل يوم.. متى سيشرق النور في قلوبكم، مثلما يشرق نوري على البشرية كل يوم؟ متى ستحين

ساعة التغيير في حياتكم وتنجلي ظلمة الجهل والوهم في أعماقكم لتحل أنوار الرب بأنفاسكم؟ من يعرف قيمة هذا السؤال هو من يرصد الشمس قبل شروقها ويتلذذ بنعيم الفجر الصادق الذي يأخذه إلى حيث الصمت المتألق بأنفاس الصبح المنير..

تشرق الشمس وتغيب كل يوم ولا أحد يدرك هذا الدرس العظيم.. فهذا مشغول بدراسته وعمله، وذاك مهتم بكرسيه ومنصبه، وآخر متألق بهندامه وفيلته، وذاك بقروبات الإنترنت وشبكته، وهذه بمراقبة زوجها في دخوله وطلعته، وزوجها في استبداده وتعكير حياتها وقسوته، وأختها في فنون الطبخ وكتبه، وغيره منكب على عقائد الحقد وأدلته، وأخيه على أسانيد اللعن وحجته، وآخر يفكر كيف يستحوذ على مال غيره ويسرقه، وغيره يستعطف هذا وذاك لكي يعطيه ويرفعه.. وآخر قد أذن للناس أن تنحني لرأسه وتقبله، وغيره يُعلم الجاهل كيف يقتل الناس ويدربه..

الشمس تشرق كل يوم.. على كل هؤلاء وغيرهم.. ولكن كم واحد منهم أغمض عينيه ورفع رأسه للسماء وسأل نفسه، متى يشرق نور الله في قلبي؟ متى أعلم من حيث لا أعلم؟

في اللحظة التي يشرق فيها الصباح في داخلك تصبح سيد نفسك.. ستعرف من أنت، وستعرف حقيقتك.. ولو أمضيت حياتك برمتها وأنت منتظراً رداً لهذا السؤال فلن تضيع حياتك سدى..

فلابد للشمس أن تشرق بأعماقك يوماً ما، وإشراقها ممكن لأنه وعد من رب العالمين ولا تبديل لقوله وحكمه وهو أصدق الصادقين.. إنها بانتظارك.. مجرد إشارة بسيطة منك بأنك جاهز للاستقبال وبأنك ترحب بها.. سترى فيض نور الشمس بقلبك وكيانك.. وسترى كرامات الله تجري بين يديك..

هناك فرق كبير بين من ينتظر النور.. وبين من يستيقظ فيراه قد سطع نوره في الآفاق.. وفرق كبير كذلك بين من ينتظر النور انتظاراً سلبياً وبين من يعيش حالة النور (تجربة النور) قبل ظهورها.. فكن ممن يعيش تجربة النور وينتظر شروق شمس الحقيقة.. لتكن نفسك أنت محور اهتمامك، لأنك حين تكتشفها وتعرف حقيقتها ستكون بديلاً عن الشمس في إنارة القلوب المظلمة والراقدة في سباتها الدنيوي.

جرثومة العناية المركزة

من المؤلم حقاً أن تدخل سيدة مسنة وهي تمشي على قدميها المستشفى لتفتيت حصى في المرارة لا تستغرق أكثر من نصف ساعة، فلا تخرج منها إلا بعد أكثر من شهر على كرسي متحرك.. ليس بسبب ما كانت تعاني، أو بسبب مضاعفات العملية، ولكن بسبب إصابتها بجرثومة انتقلت إليها من غرفة العناية المركزة..

العناية المركزة.. أو كما يدعونها سابقاً بغرفة الإنعاش هي المكان الذي يفترض أن يكون الأنقى والأنظف والأكثر تعقيماً في كل نواحي وأرجاء المستشفى.. فالمرض يُضعف جهاز المناعة لدى الإنسان وبالتالي تقل مقاومته للأمراض ويكون عرضة لشتى أنواع الجراثيم والفيروسات التي تسرح وتمرح في مثل هذه الأماكن الحساسة.

إن هذه الأماكن تكون عرضة لانتشار العدوى التي تنتقل من المرضى الآخرين، لذا كان لابد من وضع آلية للتخلص منها بتعقيم الأجواء من كل ما من شأنه أن يلوث البيئة الصحية، وإذا كان تعقيم الغرف والممرات والأجنحة يتم صباح كل يوم فإن هذه الأماكن تحتاج إلى تعقيم مستمر على مدار الساعة.

وجود جرثومة في أكثر الأماكن أهمية وخصوصية وعناية يثير موضوعاً في غاية الأهمية وهو أن الخطأ والخلل لا يستثني أحداً حتى ولو كان في مركز العناية أو مركز القرار..

فلا يستثني طبيباً حاذقاً أو جراحاً متخصصاً أو عالماً كبيراً، أو خطيباً ناجحاً.. أو أماً مثالية أو كاتباً مرموقاً أو محللاً سياسياً بارعاً..

فالتسليم غير الواعي والأخذ بمصداقية مراكز القرار وجعلها من الأمور البديهية التي يحرم النقاش فيها وتنزيهها عن الخطأ والزيغ هي من سمات وطبيعة الجهل المركب التي اصطبغت فيها أمم العالم المتخلف..

فمراكز القمة أو المستويات العالية التي وضعت على عاتقها إسعاد البشرية يجب أن تعيد حساباتها بين فترة وأخرى بحثاً عن الجراثيم التي تنمو في حظائر الفكر الراكدة والآسنة.. ذلك أن جراثيم الفكر أشد فتكاً من جراثيم المرض العضوي لأنها لا تدمر الإنسان وحده فحسب بل تدمر مجتمعاً وعقيدة بأكملها.

وإذا كان الجسم البشري قد وهبه الله القدرة على رفض كل جرثومة تفد إليه من الخارج لا تتناسب مع طبيعته البيولوجية، فإن هذا لا ينطبق على الجانب الفكري حيث تجد الأفكار المشوهة والغريبة والبعيدة عن الفطرة أرضية خصبة للنمو والتكاثر في عقول كثير من الناس.

فمهما تفتحت للإنسان أبعاد المعارف والعلوم، ومهما تكونت لديه قناعات واضحة حول فلسفة الحياة، ومهما تهافت الناس عليه لتقبيل يده أو سماع كلمته أو التبرك بعرقه، ومهما انبهر الآخرون بآرائه وأفكاره، لابد أن يتذكر أن الفكرة الخاطئة هنا بألف خطيئة. فأهمية الموقع تفرض أهمية وعمق الخطأ، فجرثومة العناية ومركز القرار تختلف عن غيرها من الجراثيم الأخرى لأنها محاطة بهالة من التنزيه والتقديس أولاً.. ولأنها تستشري في الجسد بقوة لأنها لا تصيب إلا المرضى ضعاف المناعة، فتفرض نفسها على الجسد حتى يتقبلها بكل سلاسة

ورحابه.. وكذلك هي الأفكار حين تكون من مركز القرار تفرض نفسها على الناس لعدم وجود المناعة عند البعض ولتنزيه هذه الأفكار عند البعض الآخر.

قد يقتنع البعض بوجود جرثومة معدية في غرفة العناية المركزة.. أي في مركز القرار.. ولكن من النادر جداً إلى درجة الاستحالة أن تقنع شخصاً بوجود أخطاء وجراثيم فتاكة في مراكز القرار الفكرية والثقافية والدينية، أخطاء لو قمنا بتصحيحها، قد نكون خير أمة أخرجت للناس.

تأملات.. على أغصان الشجر

حين تتساقط حبيبات الثلج في فصل الشتاء، تتحول الأرض إلى صفحة بيضاء خالية من الحياة.. تلك الخضرة وارفة الظلال تتحول إلى أطلال يكسوها وشاح البياض، وكأنها متدثرة بلباس الإحرام..

قد تشعر بالأسى والحزن لتبدل هذه الحال، فالأشجار المورقة والأغصان المتدلية والألوان الزاهية تتحول إلى قطعة من الجليد.. تتحول الأغصان الطرية إلى عيدان جافة يابسة ضعيفة لا تكاد تقوى على حمل ما يهطل عليها من حبيبات الثلج.

يتساءل بعضنا.. هل ستعود الحياة من جديد إلى تلك الأشجار المكسوة بالبياض..؟ لم تُخلق الأشجار لتكون عارية جافة لا خضرة ولا حياة فيها، إذن متى يتحقق هدفها بالعطاء والإثمار، متى تعود الأشجار خضراء كسابق عهدها؟

يخطئ من يظن أن الهدف هو تلك النقطة البعيدة التي نسخر جهودنا وطاقاتنا للوصول إليها، قد يكون هذا صحيحاً في علم الإدارة والتنمية البشرية، ولكنه يجانب الصواب حين نتحدث عن الأبعاد الروحية، ففي كل لحظة هناك هدف وغاية، وفي كل خطوة هناك حكمة ودراية. في البعد الروحي لا ننتظر الهدف، بل نعيش فيه، لا ننظر إليه من بعيد بل هو جزء منا يحوينا ويحتوينا ويحيط بنا.

ما فائدة أهدافنا البعيدة إن لم نعش أهدافنا الآنية التي تحدث الآن معنا وفينا..؟

لمشاعرنا أهداف.. هل فكرنا بها؟ لأرواحنا غايات ماذا صنعنا لأجلها؟ هل نؤجلها لأجل مسمى، هل نهملها لسنوات لنعيش بهجة الفرح الذي قد لا يأتي لأننا نؤجله على الدوام.

الطريق والسبيل ليس وسيلة بل هو هدف بحد ذاته ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.

إن ما أتعب البشرية تطلعهم للأهداف البعيدة ونسيان أنفسهم الآن، وكأن كل شيء مبرمج للمستقبل. حين يضع الواحد منا هدفاً بمخيلته يسعى جاهداً للوصول إليه دون أن ينظر إلى نفسه الآن، ودون أن يستثمر طاقته الروحية التي تتلقى الفيض من رب العالمين في كل ثانية.

لا بأس في أن يضع الإنسان لنفسه أهدافاً ومقاصد في حياته، ولكن عليه ألا يُفوت فرصة وجوده الآني. الطيور لا تفكر بغد.. الحيوانات لا تفكر بأهدافها المستقبلية.. لا أهداف مؤجلة ومشاريع مستقبلية في عالم الحيوان والنبات.. لأنها تعيش أهدافها في ذات اللحظة بغريزتها لذلك يأتيها رزقها رغداً حيث يشاء، كما جاء في الحديث: "لو أنكم تتوكلون على الله حق التوكل، لرزقكم كما يرزق الطير، تذهب خماصا وتعود بطانا".

والتوكل أن تعيش بمدد من النور الإلهي الأزلي.. ولن تحصل على هذا المدد إن كنت بعيداً أو لاهياً أو مشتتاً أو تائهاً أو مغلولا بأصفاد التعنت والجهل..

نحن نأسى على الأشجار المغطاة بالثلج.. لأن تفكيرنا بشري ذو صبغة أحادية، يركز على الشكل دون الجوهر، لذلك نستعجل الأشجار متى تحقق غايتها في الإثمار، دون أن نعي أن الشجرة الآن في طور تحقيق أهدافها، فكل مكوناتها تعمل تحت غطاء الثلج.. سقوط أوراقها واحدة من آلية تحقيق عملها الداخلي كي تهيئ نفسها للاخضرار من جديد ولدورة حياة أخرى.

لا تفكر متى يتوقف هطول حبيات الثلج لتبدأ بالاخضرار، فما دام فيها رمق من الحياة ففي باطنها عمل مستمر لا يتوقف وعصارة لا تنضب.

حين عاشت السيدة مريم (ع) لحظة الهدف الوقتي الآني مع الله عزوجل، كان رزقها ينزل إليها من السماء، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.. بينما حين بدأت تفكر في وليدها وما سيجري عليه، وكيف ستخاطب قومها، وما سيكون ردة فعلهم تجاهه، أوحى الله إليها ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾.

لذلك لا تفكر بأسى على الأشجار المغطاة بالثلج فهي تسير وفق سنن طبيعية.. بل فكر في نفسك هل تعيش هدفك أم تحلم بتحقيقه بالمستقبل..؟ هل تستقبل ومضات النور القادمة من السماء أم تكون لاهياً عنها بأضواء المستقبل؟.

سيذوب الجليد.. وتدب الحياة في عروق الأغصان مرة أخرى، ويأتي الربيع وتزهر الأشجار من جديد.. ولكن متى يذوب الجليد عن قلوبنا، لنستنشق عبير الحكمة ونولد من جديد في ربيع النور.

تأمل الآفاق الكونية

التأمل.. والنظر إلى الآفاق الكونية والطبيعية لا يقل شأناً عن النظر في الآفاق النفسية والروحية، فتعدد مواد التفكر والتأمل يوسع مدارك النفس وينوع من المشاهدات القلبية، ويجلو حالات الملل التي تخالج النفس حين تستمر على ذات العمل فترة من الزمن..

والتأمل في الطبيعة والكون له مدخلان: مدخل المعرفة ومدخل المراقبة..

أما مدخل المراقبة: فهو أن تستخدم جميع حواسك في الاستغراق في مراقبة الطبيعة سواء النجوم، الأشجار، الحيوانات المختلفة كالقطط، الطيور، الأسماك.. وما أشبه. شريطة أن تفصل أفكارك وتوقفها حين تبدأ بالمراقبة.. بمعنى أنك تتوقف عن فعل أي شيء آخر سوى أن تراقب، لا تفكر في أمورك ومشاغلك ومشاكلك الخاصة، ولا تفكر كذلك بحال من تقوم بمراقبته.. فحين تراقب طيراً لا تفكر في المعلومات التي تملكها عنه، عمره، أصله، أكله، ما سيكون حاله في الغد وما أشبه.. فقط راقب حركاته.

أما مدخل المعرفة: فهي تلك المعلومات التي تصل إليها نتيجة بحثك العلمي وتفكرك وتأملك في الموجودات التي خلقها الله تعالى لتعرف ما هو موقعك بين هذه الموجودات.

حين تجسد هذين المبدأين في الطبيعة وترمق السماء بطرفك في ليلة صافية قد أرخى الليل سدوله وسكنت أنفاسه وهدأت

أوصاله.. وبدت في الأفق ومضات النجوم وهي ترصع عباءة السواد التي تلف العالم.. تقف تحت سماء هذه القبة وقفة المراقب الذي استغرقه النظر في روعة النجوم وعظمتها.. تأتي بعد ذلك مرحلة التأمل والتفكر والتساؤل الذي يخرج من أعماق نفسك: أين موقعي في خضم هذا العالم اللامتناهي؟.. ما هي نسبة وجودي ومكاني في هذا الفضاء الواسع؟.. ماذا أمثل في هذه المعادلة الكونية.

إن أبسط تأمل واعي لنا في الكون يحرك مشاعرنا.. ويصدمنا بحقيقة ضعفنا وجهلنا وقلة حيلتنا، فكل شيء خارج إدراكنا ووعينا، فبين الفضاء الكوني الواسع، والزمن النسبي يكون كوكبنا المعروف بالأرض أشبه بذرة غبار عالقة في جو السماء أو حبيبة رمل في صحراء قاحلة مترامية الأطراف.

إن البعد الشاسع للكون جعل العلماء يقيسون المسافة بين الكواكب والنجوم بالسنين الضوئية أي اعتماد سرعة الضوء في قياس الأبعاد بين الكواكب والمجرات والنجوم الذي يقطع 300 ألف كيلو متر في الثانية الواحدة.

من الممكن تخيل هذه المسافة.. ولكن لو تعمقنا أكثر.. وتخيلت نفسك في أرفع موقع في الكون.. فإنك سترى أجزاء متناثرة من الضوء هنا وهناك تبدو كالزبد فوق أمواج الفضاء وبأعداد لا تحصى، تلك هي المجرات التي تتجول بعضها وحيدة بينما يشكل أغلبها عناقيد مجتمعة تتحرك إلى ما لا نهاية عبر الظلام الكوني الكبير.. عندما تنظر إلى المجرات من هذا البعد فإنك الآن في عالم الغيم السديمي الذي يبعد عن الأرض ثمانية مليارات سنة ضوئية..

والأكثر عجباً من ذلك هو اكتشاف الثقوب الكونية السوداء التي يقول العلماء أن مساحتها تتسع لابتلاع أكثر من مائة مجرة أو أكثر دفعة واحدة..

ولو ابتعدنا عن عالم المجرات والنجوم.. إلى حيث الفراغ الكوني البارد والواسع.. حيث الليل الأبدي في الفضاء الذي يفصل بين المجرات، فإننا قد نسير مسافة تقدر بملايين السنين الضوئية دون أن نصادف أي نجم أو كوكب.. فالفراغ الكوني محيط بكل شيء هناك.. فلا أثر لشيء إلا ما أحاط به علمه.. ولا همس لصوت إلا ما أحاطت به قدرته.

يظن العلماء أنه فراغ كوني خال من الحياة لأنهم لا يرون فيه أثراً للحياة بينما هو يعج بمخلوقات وكواكب من أبعاد أخرى، قد نكون عشنا فيها أثناء أطوار حياتنا المختلفة قبل نزولنا إلى الأرض.

وقد نُصدم حين نعلم أن كل ما ذكرناه لا يعدو كونا واحدا فقط.. أشبه بفقاعة صابون تتحرك في محيط لا متناه في عالم الوجود الإلهي..

بعد هذه الرحلة القصيرة التي رمقت بها طرفاً من عالم السماء ألا نسأل أنفسنا.. أين نحن في خضم هذا الكون المترامي ومن هذه المعادلة الكونية..

إن التأمل والتفكر في عالم السماوات والآفاق الكونية يضع الإنسان أمام حقيقة نفسه ويعرفه بمدى ضعفه ومحدودية فكره عن هذا العالم، ويسلب منه الأنفة والغرور والكبرياء والتجبر والطغيان. فكلما تعمق الإنسان في دراسة الآفاق النفسية والكونية كلما تجلت لديه عظمة الخلق التي تدعوه إلى عظمة الخالق الذي أحسن كل شيء خلقه ثم هدى. لذلك فالمتأمل الواعي ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً﴾ عندما يرتد إليه طرفه الذي لمح به قبة السماء تنتابه حالة من القشعريرة تسري بأوصاله وأعضائه تفتح مدارك وعيه وقلبه وروحه ليكون طرفاً إيجابياً في معادلة الكون.

البحر.. إيقاع تأملات

هل فكرت يوماً.. لماذا يقصد الناس البحر عندما تتكالب عليهم الهموم والمشاكل أكثر من أي مكان آخر؟ هل تأملت صور وأشكال الناس وهم يتأملون زرقة الماء ويستنشقون نسماته ويرمقون ما يطال بصرهم من امتزاج أمواجه..؟ هل تساءلت عن ذلك الشعور الذي ينتابنا حين نقترب منه وما نحسه من انجذاب لا إرادي يغمسنا في أعماق زرقته الهادئة؟.

هل حقاً ما يقال عن البحر من أنه بلسم للجراح ومرتعٌ للضمائر المعذبة ومستودعٌ لآلام الناس..؟ فإذا ما ألمت بالإنسان مشكلة أو واجهته معضلة في حياته.. فكر بالذهاب إلى البحر كي يزيل عن نفسه كآبة شعوره بالحزن والإحباط..

وإذا ما أراد أن يرسم بعض معالم مستقبل حياته، اتجه إلى البحر لكي يشاركه ترتيب أفكاره ويلهمه بعض خطواته المستقبلية.

وإذا ما شعر بضعف نفسي وخيبة أمل من أصدقائه وأحبته، اتجه إلى البحر ليعزز مكانة نفسه المهدورة ويستنشق منه بوادر الأمل والعطاء..

وإذا أراد قضاء ساعة في الصمت والتأمل اتخذ مكاناً شرقياً وانزوى بنفسه ليسرح قلبه في حدائق البهجة الصامتة التي تتلاقى مع ضياء تمام البدر.

والسؤال هنا..

وهل للبحر عطاء وتأثير على النفس لم نصل إلى حقيقته بعد..؟ هل حقاً يشاطرنا البحر همومنا وأحزاننا..؟ أم أنها علاقة من طرف واحد وأن كل ما يعترينا من إحساس تجاهه هو نوع من الإسقاط لا أساس له من الصحة.

إن علاقتنا بالبحر هي علاقة عطاء واحتضان، بعيدة عن إسقاطات الذين يعتقدون أن أهمية البحر إنما هو شعور نفسي داخلي لا أثر له في الواقع الخارجي ولا دخل للبحر بما نشعر به عندما نكون بالقرب منه.

للبحر روحانية خاصة يستشعر قيمتها من أدام النظر فيه وتماهى بخصاله وغاص في مفرداته وأعماقه. فتموج ألوان زرقته تنشط الشعور الذي يؤثر في الإحساس الوجداني والعاطفي، فالبعض لا يكتفي بالتأمل فيه والنظر إليه بل يلجأ إلى محاكاته والهمس معه وكأنه أمام مخلوق له كامل الشعور والإحساس وكأن أمواجه نبضات قلبه الذي لا يتوقف عن الخفقان.. تزداد قوة حين يهيج وتخف حتى بالكاد يُسمع صوتها حين يهدأ.

معرفة كنه مكنون البحر تكمن في أبعاده ومفرداته الأربعة، سنتناولها بشيء من التأمل والتدبر كي نكشف من خلالها سر العلاقة التي تربطنا معه.. هذه المفردات هي: الزرقة ـ الإيقـاع ـ الأفق ـ الروحانية.

الزرقة

إن زرقة البحر - على اختلاف درجاتها - الهادئة المتداخلة مع زرقة السماء لها تأثير كبير على تهدئة الأعصاب وراحة البال وإزالة حالة التوتر والاضطراب على وجه الخصوص، وتكون باعثة على الاسترخاء وتقوية الحدس وقدرات العقل التأملية. فتموج ألوانه التي تنعكس على صفحة الماء تنشط مجالات

الطاقة التي تؤثر في الإحساس الوجداني والشعور العاطفي، فعندما تستلقي على رمال الشاطئ وتحدق في البحر تهيج بك أحاسيس الماضي وتمر في مخيلتك الأفكار التي ارتبطت بشيء من العاطفة الوجدانية. لذلك لا يعطي البحر ذلك الشعور الهادئ عندما تتلبد السماء بالغيوم الداكنة أو حين يكون الجو مغبراً فلا يكون باعثاً على الارتياح والراحة التي تشعر بها عندما تكون السماء صافية زرقاء.

حين تنظر إلى زرقة البحر برهة من الزمن، تجدها تهيمن على العديد من الأفكار أو السيناريوهات التي أعددتها في مخيلتك. فقد تضع في مخيلتك أنك ستقرأ كتابا ما أو ستفكر في موضوع معين، ولكن ستتفاجأ بتبخر الأفكار وبأن دماغك أصبح مساحة خالية كالفضاء، حتى أنك تجد صعوبة في ربط الأفكار بعضها ببعض.. وكأنك تخضع لعملية تسليم كامل لهذا المنظر البديع. ولكن هذا الفضاء الذي تشعر به قد يلهمك العديد من الأفكار فيما بعد. فنحن بحاجة ماسة إلى جلو العقل من الأفكار المتوالية التي عادة ما ترهقنا.

إيقاع الموج

إيقاع أمواج البحر الهادئة أشبه بموجات ألفا الباعثة على الاسترخاء الجسدي والعقلي أو حين تستحثها للدخول في تفكير عميق، وهي موجات السكينة والهدوء لأنها تمثل حالة الانسجام مع الطبيعة التي لا يشوبها تعكير واضطراب، فالإنسان مهما تداخلت حياته في الماديات وأبعدته الحضارة الحديثة بمشتتاتها عن الصفاء والهدوء، إلا أن نفسه تحن وتتوق إلى ذلك الهدوء الذي يعيد إليه حالة الانسجام مع نفسه وفكره ووجدانه.

صحيح أنك تسمع إيقاع الماء حين يمتد مسترسلاً على شاطئ الرمل، أو حين يتكسر على الصخور، ولكن هذا الإيقاع يخلق

حالة من الهدوء الدماغي من شأنه بعث حالة من الارتياح والتناغم بين النفس والطبيعة فتلك الموجات الهادئة التي تنساب إلى أعماقك تشعرك بحالة من التناغم والانسجام.

كما أن الصمت ما بين الأمواج هو ما يعطي معنى الإيقاع الملهم للدماغ، ولولا حالة السكون لما كان له معنى.. فالحياة كلحن موسيقي لا يكتمل إلا يتقاطع مع السكون بين فقراته. فسكون العقل هو ما يجعل لمفردات الحياة معنى.

الأفق البعيد

لا يمكن أن تجلس على شاطئ البحر دون أن ترنو ببصرك إلى الأفق البعيد.. إلى أبعد نقطة ممكنة.. نقطة الوصل والاتصال بين زرقة السماء التي تتداخل مع زرقة البحر.. ولعل البحر هو المكان الوحيد الذي تتلاقى فيه الأرض والسماء في نقطة تراها العيون المجردة قريبة منها.

الأفق البعيد لا يجلو النظر فحسب وإنما يجلو القلب أيضاً.. فرتم الحياة التي نعيشها تضع أمامنا العديد من المعوقات والعراقيل التي تعيق نظرتنا للأفق البعيد، لأهدافنا الحقيقية، لمشارب أرواحنا الفتية، لسيرنا وسلوكنا الفطري.. في الحياة نجد أمامنا الكثير والكثير من الأشياء والمعوقات والأفكار التي نتعثر بها.. لا نرى مساحة واسعة أمامنا ولا فضاء خالياً نعبر فيه عن ذواتنا. حياتنا أصبحت أشبه بغرفة صغيرة محكمة الإغلاق. ليس على الصعيد المادي وإنما على الصعيد الفكري والنفسي والعقلي، فنحن محكومون بالعديد من العثرات التي نجدها أمامنا.

حين ننظر إلى الأفق واتساعه ورحابه امتداده نشعر بتفتح القلب وانشراح الأسارير وكأننا نقول لأنفسنا.. ها أنا ذا.. وكأننا نشعر بتمدد أرواحنا ونزوح ذواتنا إلى الأفق البعيد.. وكأننا

نطاول آخر نقطة فيه فنشعر بقربه.. بل إن الشمس على عظمتها وبعدها الشاسع نجدها عندما تغيب قريبة منا وكأنها تودعنا مسترخية مستسلمة في أعماق البحر.

إن لهذا الأفق البعيد بهجة خاصة للنفس التي تتطلع إلى التقاء العوالم، عالم الأرض والسماء فتشخص ببصرها على ذلك الخيط الأفقي الرفيع الذي تمتزج فيه العوالم.

الروحانية

للماء روحانية خاصة تفوق روحانية العناصر الأخرى (التراب والهواء والنار). فخاصيته اللينة المؤنثة تجعله ذو حساسية مرهفة للانجذاب للمشاعر والأحاسيس. وله قدرة مذهلة على تغيير شكل جزئياته بحسب المؤثرات الواقعة عليه. والأكثر من هذا أن له ذاكرة يخزن فيها المعلومات والمؤثرات والكلمات القريبة منه أو التي تؤثر عليه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. فلو أخذت كوباً من الماء وقرأت عليه آيات من القرآن، أو ورداً من الأذكار، أو حين ترسل إليه بعض الكلمات النافعة المتعلقة بالشفاء والصحة والحيوية فإن جزيئاته سوف تتغير وتأخذ شكلاً صورياً كالذاكرة الصورية المتعارف عليها.

لذلك حين تجلس متفكراً أمام البحر اجعل هذه الروحانية قريبة منك، ففيه من المخلوقات ما يعجز العلم عن إحصائها، وكلها تسبح الله ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

ويبقى البحر عالماً من الأسرار الغامضة المودعة في أعماقه، فأمواجه أشبه بأسطر كتاب يقرأ البعض ظاهره ولكن يبقى العمق الأكبر مكنونا ما بين سطوره.. لعبة الحياة كالأمواج الهادئة التي تمتد على الشاطئ تغدو وتروح كأخذ وعطاء، قبض

وبسط، فرح وحزن، تألق وتدني، تطور وتوقف.. وهذه لعبة الحياة.

لا عجب إذن عندما نجد البعض يأنس بالبحر ويهمس إليه بأسراره ويبث إليه شكواه وآلامه.. فروحانية البحر أشبه بالأم الحنون التي تحتضن مآسي وهموم أبنائها.

إشارة تعاقب الليل والنهار

المتأمل في آيات القرآن الكريم يلحظ أمراً في غاية الأهمية.. فالله عز وجل يقدم في مجمل آياته الليل على النهار كما في الآيات التالية وما يشاكلها:

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.. ﴾ الأنبياء42

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ الأنبياء20

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ النحل 12

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الرعد3

والعديد من الآيات المشابهة.. فماذا يريد الله عز وجل بهذه الإشارة؟

كثيراً منا يعتقد أن اليوم يبدأ من الصباح الباكر، فتداخل الشفق الأبيض مع زرقة السماء إيذانا بشروق الشمس يعني للكثيرين بداية يوم جديد. في حين أننا في حياتنا الطبيعية نتصرف عكس ذلك حين نطلق مسمى اليوم اللاحق مع مغيب الشمس كبداية يوم جديد، فيبدأ من مغيب الشمس إلى ما قبل مغيب اليوم الآخر.. فإذا كنا في ليل يوم السبت فإننا نقول أنها ليلة الأحد.. وبالتالي فنحن نقدم الليل على النهار.. وهذا ما يشير إليه الله في كتابه الكريم..

وحين نقول أن بداية اليوم تبدأ من مغيب الشمس وليلته فهو ليس عرفاً اجتماعياً أو رأيا فلكياً ولكنها حقيقة أبدية تضمنتها

بصائر القرآن الكريم، ليس في الإسلام فحسب وإنما في مجمل الديانات السماوية الثلاث.

ولو أخذنا هذا الترتيب الإلهي على محمل الجد فإنه سيفتح لنا آفاقاً جديدة في السعة الروحانية والقدرة على التطور الروحي بما يتناغم والفطرة السليمة. ومن هنا نقول:

ابدأ يومك قبل أن يأتي الصباح.. ابدأه في المساء مع مغيب الشمس بالصلاة والتأمل والدعاء والذكر والتخطيط والإعداد لصباح جديد.. لا تبدأ يومك وتصطدم بضياء الصباح ما لم تكن مستعداً له منذ المساء.. هيئ نفسك وأعد عدتك في المساء لتنعم بيوم أكثر انشراحاً تكون فيه أقرب إلى الله، بل تشعر بأن خطواتك وانجازاتك مكللة بالتوفيق الإلهي والبركة والصلاح.

تخلص من عاداتك المسائية المشتتة.. فالكل يعتبر المساء فترة راحة واستجمام ولقاءات اجتماعية ومشاهدة التلفاز ومتابعة الأخبار.. ينبغي أن تعتبر المساء بداية للإعداد ليوم جديد، لذا ينبغي أن نحقن أذهاننا بقوة بالتفكير والتأمل بالله وأن نتدبر بعضا من آياته. نطلب من الله أن يبارك لنا صباحنا بكل عطاياه وهباته.. نخطط بما تسمح له قدرتنا على التخطيط، ولكننا نقول في النهاية أنت المدبر وأنت الواهب فأصلح لنا أمورنا وشئوننا كلها، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبدا.

حين نكون في المساء مع الله.. نبدأ يومنا معه.. سيدهشك كيف تنام نوماً هنيئاً مريحاً.. ستنسل نفسك إلى عالم جميل بكل سهوله دون أن تمر بالمستويات السفلية التي تسبب أضغاث أحلام..

ما قمت به.. وتفوهت به.. وتأملته.. سوف تتلقاه الملائكة وترفعه إلى السماء حيث تقوم بتنظيم ذهنك وتجديد أفكارك.. وكأنها تقوم بعمل صيانة عقلية لأفكارك ولخلجات نفسك..

فكما أن الجسد المادي يقوم بعملية التنظيف والتجديد لخلاياه أثناء النوم، كذلك هي القوى الملائكية التي سخرها الله لخدمة الإنسان تقوم بصقل وتصفية وصيانة العديد من أبعاده النفسية والفكرية والعقلية..

وعندما تستيقظ مع شروق الشمس ستلمس في أعماقك ثقة كبيرة مفعمة بنشاط وحيوية لم تعهدها من قبل.. فاعلية في شئون حياتك اليومية.. فأنت تجني ما بذرته في بداية يومك.. في المساء.

لذلك تؤكد جملة من الأحاديث الشريفة والآيات الكريمة على مفهوم الذكر والاستغفار في بداية اليوم (الليل) كما قال تعالى:

﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللّه آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ وكذلك ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ وكذلك ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ﴾

وكأن الله يريدنا أن نبدأ يومنا بذكره ليجعلنا تحت رعايته وتحت كنفه أثناء النهار.. يريد أن يجعلنا تحت رذاذ فيض رحمته حتى ينفض عنا تبعات الآثام وغبار التعلقات ويبعد عنا مسوح السيئات ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾.

حقاً.. إن إشراقه النهار تسطع في قلوبنا فيما لو كنا مهيئين ونحن في الظلام.. وكما قيل من صلحت بدايته أشرقت نهايته، فصحة المنطلقات السليمة تورث إشراقه القلب السليم.. فترتيب مدخلات القلب وتخليصه من الفوضى والتشتت والزيغ والأعمال الهامشية، أمر في غاية الأهمية.

فقد تخطط وتجهز وتُعد وتفكر لما سوف تأكله أو ترتديه أو تأخذه معك بعد استيقاظك من النوم.. ولكن تترك قلبك

وفكرك وروحك في فوضى عارمة، في نقص لما يمكنه أن يدعمك ويساندك.. تبدأ نهارك دون إعداد مسبق لكل مكوناتك.

لذا ينبغي علينا أولاً أن نضع فكرة أسبقية الليل على النهار في أذهاننا.. فالراحة والتهيؤ والاستعداد وشحن الباطن النفسي والروحي ينبغي أن يكون بداية اليوم (الليل).. فنحن نرتاح لا من تعب اليوم الماضي، بل نرتاح لنبدأ يوماً جديداً مفعماً بكل الامتيازات الروحية والعملية..

ثانياً.. أن نقتطع جزءا نخصصه لخلوتنا مع أنفسنا.. لا نقول ثلثيه، ولا نصفه، ولا ثلثه.. بل نقول فقط ساعة واحدة.. نعيد من خلالها ترتيب مكوناتنا الداخلية من خلال الذكر والتأمل والدعاء والمناجاة..

لا يمكننا تجاهل تعاقب الليل والنهار بأي حال من الأحوال.. صحيح أنهما يمران علينا خلال 24 ساعة كل يوم.. ولكن حياتنا كلها عبارة عن محطات كثيرة من الليل والنهار..

ففي خضم ليل الألم والمعاناة والشقاء تسطع شمس السعادة والبهجة والتيسير.. وفي عمق العسر يتجلى اليسر، ومن ضيق المكابدة والحسرة والحزن تشرق أنوار الفرج والغبطة والفرح..

بل أن الحياة برمتها تعيش اليوم تحت جنح الظلام، لا زلنا نعيش في مساء الخليقة الذي نهيئ من خلاله نفوسنا وأرواحنا للإشراقة العالمية حيث يتلاشى كل حزن وأسى ومشقة عرفناها في سماء الحياة المظلمة..

سيأخذ الله بمحبته ورأفته بأيدينا إلى بر الأمان.. سيرفع تلك النفوس الساجدة والمستغفرة والذاكرة التي تلهج بذكره في عتمة الليالي وتهيئ نفسها للقائه إلى ما فوق قمم الزمان.. حيث الفجر الصادق والإشراقة المباركة.. ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا..﴾.

الجنة.. والانتظار

تعلمنا منذ الصغر أن الجنة هي المرحلة التي تلي القيامة الكبرى بعد الحساب، حيث النعيم الأبدي للأرواح الطاهرة التي خرجت من تجربة الحياة، فترى نتاج أعمالها الصالحة وسلوكها الإيجابي والخلود في جنات الفردوس الأعلى.

إن الفهم المحدود لفكرة الجنة وربطها بالانتظار جعلا حياتنا مرتبطة بالمستقبل القادم دون أن نستشعر حقيقة الجنة التي يمكن أن نعيشها في الدنيا.

فالموروث الثقافي الذي يؤكد على فلسفة انتظار الجنة لما بعد الموت.. "اعمل وبعد الموت ستدخل الجنة".. "عش حياتك في شقاء وبؤس وسيعوضك الله الجنة".. يتعارض مع بصائر القرآن الروحية التي تؤكد أن الجنة الأخروية امتداد لجنة الدنيا التي نعيشها في الحياة.

لذلك كان حرياً بنا أن نُعلم الناس كيف يعيشون الجنة وهم في الدنيا على أن نؤكد فكرة الانتظار فقط وأن ما نعمله عاجلاً سنلاقيه آجلاً.. ولكن هل حقاً توجد جنة دنيوية في عالم يكتنفه الألم والمعاناة والفساد والشقاء؟

الله سبحانه وتعالى يؤكد أن باستطاعة الإنسان أن يعيش في الجنة وهو في عالم الدنيا. ولكننا لم نفهم جيداً هذا السر الرباني واكتفينا بالجنة الأخروية، وكأن الجنة الأخروية مكان سننتقل وليست شعوراً وحياة نعيشها!!

ومن هنا حاول البعض أن يجد تفسيرات متباينة لجنة آدم التي عاش فيها، فالبعض قال بأنها جنة البرزخ، أو جنة السماء

الدنيا، أو في مكان مرتفع مجهول.. كل هذه المحاولات لتأكيد فكرة استحالة وعدم وجود جنة أرضية يعيشها الإنسان. في حين أن الله يقول ﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً﴾ والهبوط تأخذ مفهوم المكان والمعنى بنفس الوقت بخلاف كلمة "نزول" التي تشير على المكان فقط، كما أن الله يشير إلى جنة آدم كمكان للسكن والاستقرار: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ ولا يعدها مرحلة انتقالية إلى دار الدنيا.

إن وجود جنة أخروية أو فردوس الأرواح آجلا في عالم ما بعد الموت لا يعني أن الجنة محصورة في مكان أو زمان معينين.. فالأرواح الواعية النيرة يهبها الله قدرة الولوج إلى عوالم النور والجنة والشعور بهما كحقيقة، لذلك قيل في صفات المتقين: "هم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون" كما اختلف المفسرون في آية حبيب النجار ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ حول كيفية دخوله الجنة وهو في الدنيا!! ولعل الآية الشريفة تفصل هذا الأمر في سورة الزمر: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ هنا يتكلم الله عن الجنة في الأرض التي أورثها الله لهم.

إذن.. الدخول إلى الجنة.. يبدأ من الدنيا.. يبدأ الآن.. مع تجاوز وإسقاط كل مفاهيم الانتظار.. فلا انتظار في دين الموحدين إنما هو سعي حثيث للتخلص من رواسب النفوس لتنطلق الروح إلى عالمها الحقيقي.

لذا كفانا مغالطات مع أنفسنا فالبؤس لا يولد إلا البؤس، والتعاسة لا تولد إلا التعاسة، وإن العيش في سجن الحياة سيجعل الحياة الأخروية في بدايتها أشبه بالسجن لأن الحالة الشعورية التي نكون فيها سننقلها معنا إلى العالم الآخر.

لا تنتظر الجنة بعد الموت.. بل عشها الآن في حياتك بكل أبعادها، انتقل بروحك من عالم البؤس والشقاء إلى حيث النور، تعّود أن تزور هذا العالم لتشتاق إليه دوماً.. الأنوار المبهرة قد تصيبنا بالعتمة فلا نكاد نرى شيئاً.. فكيف هي أنوار عالم النور والجنة.. لابد أن تعَود بصيرتك وروحك على تلك الأنوار.

حياتنا الأرضية ليست عبثاً ولا لعباً ولا عرضاً.. إنما خلقها الله لكي ندرب ونعود أنفسنا على عالم النور لنستقر فيه، وبالتالي فإن هذا التدريب يستوجب منك أن ترحل هناك بين الفينة والأخرى، وتستشعر حقيقته ووجوده، فإن تمكنت من ذلك تكون مؤهلا لتسكن فيه حياتك الأبدية الخالدة.

إشارات وإرشادات السماء

المؤمن الواعي يجد حياته سلسلة من المتغيرات المتوالية التي تطرأ على حياته في كل حين، وتعتمد علاقته مع هذه المتغيرات على قدرته في فهم واستقراء الومضات والإرشادات من عالم الغيب التي تتخللها. فعالم الغيب متطور مترقي متقدم يتغير مع كل رمق، وتناغم وعي الإنسان مع هذا التطور يكسبه صفاته، كمن يقرب يده من حديدة محماه فتتأثر بحرارتها، كذلك يتأثر وعي الإنسان بحركة ترقي عالم الغيب.

بينما غير الواعي يرى أن حياته أشد ركوداً من بحيرة آسنة أو متحجرة لا يزيدها الزمن إلا قسوة وجموداً.

فالله عز وجل لم يخلقنا عبثاً ولم يتركنا سدى بل جعل نعمة الإيجاد مرافقة ومتصلة بنعمة الإمداد، فلا خلق ولا إيجاد دون إمداد وتواصل من عالم السماء، ولا معنى للذكر والصلاة أو التأمل والتهجد إلا حين نفتح آفاق هذا الإمداد ونستقبل إشاراته وتوجيهاته.

فالله يرسل في كل لمحة وطرفة عين إمدادات جديدة، ورسائل متوالية، وومضات مشرقة بمقدورنا أن نستقبلها في كل الأوقات، وحين يدرك الإنسان هذه الإشارات ويهيئ لبه وعقله وفؤاده لاستقبالها ويسخر قدراته لتحليلها واستيعابها يعرف معنى الحياة ومكمن سعادة الروح وحقيقتها.

لذا فالجاهل وحده من يعاني الملل والرتابة والفراغ وغياب الأهداف في حياته لأنه لا يملك قدرة استقبال الجديد المتوالي

من الله عزوجل، ومثله كمثل المطر الذي ينزل على أرض سبخة لا تنبت الزرع، بينما تزهر وتخضر في تربة أخرى تملك مقومات الخصب والاستقبال.

إن أعظم معوقات التواصل مع إشارات السماء هو عدم التوافق الزمني الذي يكون عليه وعي الإنسان حال نزول هذه الومضات، فالله يغدق علينا كل جديد وكل بركة في كل لحظة.. فما من وقت يمر إلا ويتبارك العالم بتلك الومضات، ولكننا في الغالب لا نكون مستعدين لاستقبالها في الوقت المناسب لأننا عادة ما نكون في مكان آخر، قد تكون أجسادنا حاضرة (وقت الصلاة) ولكن أفكارنا مشتتة، نلهج بذكر الله ولكن لا نستشعر وجوده وعظمة احتوائه، فبوصلة أذهاننا ونبضات قلوبنا تكون مشغولة بأمور أخرى.. حينها كيف نستقبل رسائل السماء؟

إن ما ينزل من خير السماء يكون في الحاضر.. أي في الوقت الذي تكون فيه (الآن) أنت حاضراً بكل أبعادك الروحية والقلبية والنفسية.. الإشارات لا تهبط على أجسامنا ولكن تتلقاها قلوبنا لأنها محل الوعي الروحي، فحين تكون قلوبنا حاضرة بكل معنى الكلمة حينها سنتلقى تلك البركات والإشارات. لذا ينبغي ألا نذكر الله بغية دخول الجنة، بل نذكره ونحن نستشعر وجودنا فيها حقيقة، لا نصلي من خارج الجنة ونرغب في دخولها، بل نصلي ونحن ممتلئين بالغبطة والسعادة وكأننا في بيتنا في الجنة، تجسيداً للحديث: "أنتم في الجنة فاسألوا الله أن لا يخرجكم منها".

الجديد من الله يأتي بشكل متواصل لا يتوقف، ولكننا لا نستقبله لأننا لا نكون حاضرين وواعين حين نزوله، فتفكيرنا ووعينا إما أن يكون معلقاً بتراكمات الماضي بمآسيه وآلامه.. أو مرتبطا بخطط المستقبل وآماله وأمانيه الآجلة، وفي كلا

الحالتين نفقد الإحساس بالزمن الحاضر بما يحويه من بركة وعطاء.

حين تنفض عن نفسك غبار الماضي وتنفصل عن آمال المستقبل وتغمض عينيك مناجياً ربك قائلاً: "إلهي أنا الآن حاضرٌ لتلقي إرشاداتك وفيضك وبركاته.. أنا الآن متأهبٌ ومستعدٌ ليكون قلبي وعاءً لأنوارك".. حتماً ستجد الإجابة عاجلاً أم آجلاً..

ألا ترى أن من يرغب في معرفة شيء ما فإن المعرفة ستنهال عليه من كل جانب، ومن يرغب في اقتناء كتاب ما سيجده وإن طال الزمن، ومن يرغب بشراء سيارة ما سيجدها أمام عينيه في أغلب الأماكن. فإذا كان تحقق هذه الأمور جار في بعدها المادي فستكون أضعاف ذلك في بعدها الروحي.

استقبل كل جديد من الله بسعادة وبهجة، هيئ قلبك ليكون محطاً لهذا الجديد.. فالقلب المتبلد القاسي أو الواهن الضعيف، أو المتعلق بصور الماديات، أو الحاقد البغيض لن ينال حظاً من تلك الومضات. علينا أن نعي أن كل جديد في حياتنا مرتبط بإمداد دائم ومستمر من قبل الله.. فالإمداد العام لكل المخلوقات، والإمداد الخاص لتلك القلوب التي تنتظر تلك الإشارات والفيوضات.. فهل سنخلي قلوبنا من الشواغل لتكون وعاءً لها.

شمعة العاشق

إذا عشق القلب شيئاً وأحبه لا يستقر دون الوصول إلى معشوقه ومحبوبه.. ونقصد بالحب حالة الوله بلا شرط ولا حدود.. حب حقيقي يعلو على كل الروابط المادية والاجتماعية.. فالمحب لا يعلم لماذا يحب، هو يحب فقط.. ولو علم لماذا يحب، أو ما الهدف والمغزى من حبه، أو إلى متى يحب؟.. لا يعد حباً حقيقياً..

ومن المعلوم أن الوصول للمعشوق الحسي، يحتاج إلى مقدمات وإمكانيات ومواصفات ومؤهلات قد لا تتيسر للإنسان دائماً حتى ولو حقق جزءاً منها فيبقى الكثير مما لا يستطيع تحقيقه.. وعدم تحقيق هذه الأمور مع شدة توجه القلب للمعشوق يولد في القلب حالة من الاضطراب والقلق الدائم وشيء من الخوف والأرق والترقب. وبالتالي فالقلب لا يصل إلى حالة السكون والهدوء والطمأنينة إلا حين يتصل بذلك المقصود الحسي أو المعشوق المادي..

وهنا يكون حال الإنسان أشبه بالشمعة المشتعلة..

فلو أمعنت النظر يوماً إلى شمعة مشتعلة، وشحذت همتك لرؤية آلية اشتعالها، فإنك ستلاحظ الفتيلة القطنية وهي تخرج وهج ناري المتراقص على شكله المثلث أو البيضاوي. دقق النظر أكثر ما بين الفتيلة ووهج ناري، ستلاحظ وجود فراغٍ بينهما.. فراغ عديم اللون يلفه السكون والهدوء، في هذا الفراغ (السكون) الذي نظنه ساكنا تصل درجة الحرارة أعلاها وأشدها كما أثبت علوم الفيزياء..

وكأن القرب من المصدر (المعشوق) وهو فتيلة الشمعة تدخلك في حالة السكون والهدوء، على الرغم من شدة لوعتها وحرارتها، أما الابتعاد عنها فلا يولد سوى الاضطراب والتوتر وهو ما نلاحظه في توهج النار وتراقص أشعتها وأطرافها.. كلما ابتعدت كلما ازداد تراقص أنوار الشمعة المشتعلة وابتعدت عن حالة السكون، زد ابتعاداً أكثر فستفقد كل لمسة دفء كنت تشعر بها من ضوء الشمعة.

وكما في المادة.. كذلك في الروح، فمعادلة العشق الروحي تنطبق فيما لو كان المعشوق هو الحق تبارك وتعالى إذ أنه قريب إلى من رحل إليه، فتتحول حالة الاضطراب والتوتر (الروحي) إلى سكون وطمأنينة وأمل وحياة بقربها وتشبعها بالحب (الروحاني).. وكلما ازددت قرباً كلما شعرت بحرارة الوله والعشق أكثر، لأنك ستكون في المنطقة البيضاء ما بين ذاتك الحقيقية وبين الله..

لذلك كان القرب راحة للقلب، سكوناً وطمأنينة، انتعاشاً ولذة وحياة..

وإذا كان المحب لا يهدأ إلا بوصال الحبيب، فالله جل اسمه يحقق له الوصال في عالم القلب، فلا يحتاج إلى أمر في الخارج يتوقف عليه ذلك السكون والهدوء. ولا يحتاج إلى مقدمات وإمكانيات للوصول إليه سوى استشعار القلب أنه بحاجة لقرب المحبوب منه.

ولكي تشعل شمعة قلبك بهذا الحب اجعل همك هماً واحداً، بوصلتك متجه لأمر واحد، غير مشتت الاتجاهات، غير مشوش الأفكار، غير متقلب الأمزجة والطباع، أوقد قلبك بنار الحب الخالي من شوائب الأنا.. أشعر قلبك الرأفة والحب للناس جميعا بعيدا عن الحقد والكراهية والأنانية والاستعلاء.. أملأه

بالسماحة والسلام والأمن، وانظر إلى الحياة نظرة تفاعل وعطاء.. وتأمل في سنن الله وفي آفاقه النفسية والكونية، فالتأمل يفتح مدارك القلوب، ويوسع مساحة المنطقة الساكنة في شمعة قلبك..

قد تنطفئ شمعة قلبك الحسية لسبب ما، قد تطفئها دموع الرحيل، قد تخبو نتيجة أجنحة الغربان، قد تذوب من شدة آلام الحسرة والفراق، قد تخمد لاختلاف الأفكار والمفاهيم، ولكن احذر أن تنطفئ شمعة قلبك الروحية، ولتبقى متوقدة على الدوام.

يتجلي الله بنوره في كل شيء، ولكنه يتجلي في القلب أكثر من أي مكان آخر، ففي القلب عرشه ومسكنه ومحط رحاله. أشعل شمعة قلبك ودع نور الله يتسلل إليها، وابق قابعاً في فضائها الروحي الأبيض الناصع.. لا تنتظر شيئاً بل ابق فيها إلى أن يأتي الله بأمره.

ابتهج.. وعبر عن حبك لله

حين تعصف بالإنسان حوادث الأقدار المؤلمة، وتوجعه وقع المصائب والأهوال المقدرة، يلجأ إلى الحزن ويتدثر بالأسى ويتسربل بالوجوم والإحباط والقلق.. معتقداً في قرارة نفسه أن هذا هو الوضع الطبيعي للحالة التي يمر بها..

فالقاعدة التي تعلمناها والتي تربينا عليها أن الحزن وليد المعاناة.. والألم وليد البلاء والابتلاء.. والأسى وليد النكبات والكرب.. والنكد وليد إخفاقنا عما نصبو إليه أو نرغب به..

زرت صديقاً في إحدى المستشفيات وكان والده في العناية المركزة، رأيته منكسراً شاحب الوجه، دامع العين، مضطرباً متوتراً قلقاً.. فقلت له لم أنت بهذه الحالة.. فقال: "أنا أدعو لأبي وأقرأ له بعض الأدعية والأذكار" فقلت له: "ولماذا تدعو لأبيك وأنت بهذه الحالة.. وهل من شروط الدعاء أن تكون مضطرباً هلعاً قلقاً لكي يستجيب الله لك دعاءك؟" فرد عليّ قائلاً: وماذا أفعل؟ قلت له "أدعو الله وأنت موقن باستجابة ما يكون خيراً من عنده وفي مصلحته إن كان كما تتمنى أو كما يريده الله.. مستقبلاً عطاءه برضا وطمأنينة وارتياح ومحبه" فحين تلجأ إلى الله متذمراً قلقاً مضطرباً يختلف كثيراً حين تلجأ إليه متوازنا راضيا منيباً متقيناً بأن الملك الحق سيجري الأمور على أحسن ما تكون..

حين تكون حزينا أو نكداً أو مضطرباً أو متذمراً فهذا يعني أن ثمة حدث لم يصل حد القبول والراحة والرضا عندك.. كمن

يريد شيئاً ولا يحصل عليه، أو كمن يصاب بعلة أو مرض، أو كمن يفقد حبيباً أو قريباً.. وما أشبه. وهذا خلاف ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان الواعي المؤمن الذي لابد أن يحيا حياته بمنطق الخير الكلي والعطاء الكلي كما جاء في الحديث أن أمر المؤمن كله خير في شره وخيره..

وهذا لا يعني أن لا نحزن.. أو لا نبكي.. أو نكون في حالة تبلد للأحاسيس والمشاعر.. فهذه الأمور ترتبط بعاطفة الإنسان ومشاعره ولابد من التعبير عنها وعدم كبتها.. ولكن لابد أن لا نستمر في الحزن الذي يتحول إلى تذمر ومأساة ولوعة وألم.. وكأننا نعارض مقادير المقدر..

كل ما يحدث أن الله ينقلك من حال إلى حال.. ليرى كيف تصنع بحالتك الجديدة؟ لقد نقلك إلى سيناريو آخر جديد.. ولعله أعادك إلى ما ينبغي أن تكون عليه.. فاستقبل الحالة الجديدة برضا وعبر من خلالها عن امتنانك له واشكره لأنه أوجد عندك هذا القبول والامتنان.. لأنه أعلم بنفسك منك..

لماذا لا ندعو الله ـ في شؤون حياتنا - ونقرع بابه ونحن مبتهجين فرحين به؟.. لماذا لا ندعوه وكلنا نشوة وغبطة به وبما سينالنا من بركاته وهباته؟

حين تكون مبتهجاً بما وهبك الله تكون حينها أكثر أهل الأرض شكراً له.. لأن الرضا بأفعاله والابتهاج بها هو الشكر الحقيقي الفعلي. أحد الصالحين كان يقول:

"عندما أدعو الله فيستجيب لي افرح مرة، وعندما لا يستجيب أفرح عشرات المرات، فالأولى كانت من اختياري، والثانية هي اختيار الله عز وجل".

حين تكون فرحاً بالله من أول يومك ومع إشراقة أول النهار تكون أغنى أهل الأرض خيراً وبركة..

حين تكون مبتهجاً وأنت تدعوه تكون من أقرب المقربين إليه لأن بهجتك تعني الرضا.. تعني الحب.. تعني أن ما أصابك إنما هو بعين الله كما قال تعالى: ﴿وأصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾.

كل المرضى يبحثون عن الدكتور المبتهج المبتسم الفرح الذي يحّول مأساة المريض ومعاناته إلى طرفة مضحكة ومزحة ليخفف عنه الألم.. وكلنا يمتدح الممرض التي يضمد المريض أو ليعطيه دواءه وهو متهلل الوجه.. وكلنا نفرح حين يبادرنا موظف مبتسم وخلوق لينهي معاملاتنا في وزارة أو مؤسسة.. أليس كذلك.

إذا كانت هذه الأمور تفرحنا ألا يجب أن نتمثل بها حين نكون على صلة مع الله، سواء في حال اليسر أو العسر.. ألا يريد الله أن نكون فرحين ومبتهجين بعطاياه.. ألا يريد أن يملؤنا السرور والحبور حين نتقرب إليه ونصلي لأجله ونترنم بذكره ونتلذذ بأسمائه.. ألا يريدنا الله أن نكون أسعد الناس حين نقول.. يا الله..

القلب المنكسر والوجل والمخبت مفاهيم قرآنية فهمناها وفق قناعات الأسى والحزن في حين أن لها عمقاً روحياً آخر لا يتعارض ومفهوم البهجة والفرح بالله عز وجل. تخيل للحظة أناساً يدخلون بوابة الجنة كيف تتوقع أن تكون أشكالهم هل سيكونون فرحين أم مهمومين حزينين.. هل تكون وجوههم واجمة أم متهللة.. وما جنة الدنيا سوى حالة الوصال بالله الملك الذي يملك الحال والمآل..

كن في حياتك مبتهجاً وعبر عن حبك لله بطلاقة وجهك ورضا نفسك ورقة كلاماتك وحسن علاقاتك.. نم وأنت مبتسم، واستيقظ وأنت مبتسم فأنت ضيف في مملكة الله..

صندوق الأمنيات

اجعل أمنياتك بمستوى روحك

كثيرة هي الأمنيات والقرارات التي نفكر القيام بها أو انجازها.. ولكن كم واحد منا فكر بالتعمق بعوالمه الباطنية، بمعرفة نفسه، إعادة صياغة معتقداته، معرفة أسرار خلقه والكشف عن ذاته الحقيقية القابعة في كيانه. كم شخص قال سأهتم بأناتي الخاصة، بجوهري الروحي، بعالمي الداخلي، بعلاقتي مع المصدر منبع المحبة والنور، بالبحث عن السعادة الحقيقية التي لا حزن بعدها، بالاهتمام بتنمية وعيي وعلاقتي بالكون والحياة.

قد يظن البعض أنها أمنيات أو متطلبات فلسفية أو خيالية، ولكنها في الواقع متطلبات جوهرية تعلو على كل أمنية أو مطلب آخر، لأننا من خلالها نحقق كل ما نريد وهنا يكمن سر السعادة.

حين نبلغ من الكبر عتيا نشعر بحالة من الوهن والحزن لأن تيار الحياة جرفنا بعيداً وصب جل اهتمامنا على حياتنا العملية والمهنية والأسرية، غافلين عن احتياجات ومتطلبات النفس والذات للسعادة الحقيقية والبهجة الروحية التي لا تتحقق إلا من خلال سبر أغوار الداخل والالتفات إلى النور المستتر خلف أغلفة النفس والجسد.

تمضي الأعوام سراعاً.. نمضيها في الأكل والشرب والتسوق والنوم والترفيه واللعب والدراسة والحركة والعمل والثرثرة والحكم على الآخرين والزيارات والمواليد والمآتم والجلوس على

شاشات التلفاز وتقليب مواقع الإنترنت.. وأمور أخرى كثيرة، لم ندخر منها وقتاً لنتفكر فيه بأنفسنا، أو لنستمع إلى ذواتنا، أو لنتأمل في مواطن الخلل في حياتنا، أو لنعرف سبب معاناتنا وتعاستنا وآلامنا في الحياة، أو لنعيش حالة الأنس مع الله سبحانه وتعالى..

لذلك دائما ما يشعر الإنسان بالنقص والحاجة لأنه مهما أنجز وأحرز في مشروع حياته المادية يبقى يعاني من خواء في مشروعه الروحي وتجربته الخاصة التي تسمو بالوعي إلى أرقى مراتبه الواسعة وبدون هذه التجربة سيلازمه النقص طوال حياته.

كثيراً ما نسمع عن صندوق الأمنيات الذي يكتب فيه البعض أمنياته ويؤازرها بالنية لتتحقق وتتجلى.. دعك من هذا الصندوق التي يروج له البعض، واجعل قلبك صندوق سرك ومنبع آمالك ومحط رجائك وصندوق تجلي أسرارك وموطن أمنك وأمانك وبهجة وجدك ووجدانك. ليس بالكتابة أو عقد النية تتجلى الأمنيات ولكن بتغيير الباطن ونقاء السريرة وصفاء القلب والوعي الروحي وحب الآخرين والإحسان إليهم.. الأمنيات لا تغير القدر.. قلبك من يغيره.

ليكن ما ترجو تحقيقه نابع من احتياجك الروحي وليس من رغباتك الشخصية التملكية أو الترفيهية أو ما يعزز ظهور الأنا والأنانية. لا تسأل الله ما تريد لأنه أعلم بما تحتاج إليه، ولكن أسأله ما يريد، أسأله تجلي قدرك الحقيقي وأن يُبعد المعوقات التي تحول بينك وبين تحقيق مرادك المكنون في مقدرات غيبه، فكم وكم من عطايا وخيرات تمنعها الأنا والأنانية عن التجلي في حياتنا.

ضَمن أمنيات صندوق قلبك.. من الجميل أن تقوي روابط علاقتك الأسرية وتكثف تواصلك معهم، ولكن من الأجمل أيضاً أن تقوي علاقتك مع عالم النور والبهجة الملائكية..

من الحسن أن تفكر بما تصنع بأموالك وتستثمرها، ولكن من الأحسن أن تفكر بالإرث السماوي الذي تستحقه فيما لو فتحت قلبك لاستقباله.. من الرائع أن تستمع لنصائح الناس وتوجيهاتهم ولكن من الأروع أن تصمت وتنصت لتستمع إلى همس الملائكة وإلى من هو أقرب إليك من حبل الوريد.

لننس الماضي بكل آلامه ومآسيه وجراحه، ونقتلعه من حياتنا بسهولة كما نقتلع ورقة آخر يوم في رزنامة السنة الماضية.. لا تجعل الماضي تحفة أثرية ترغب في الاحتفاظ بها بين أرفف فكرك لا تنفك من النظر إليها أو العبث بها بين فترة وأخرى..

صحيح أن السنة بداية لدورة جديدة، ولكن كل يوم هو أيضاً بِداية لحياة وتجارب جديدة.. بل الحقيقة أن هناك دورة جديدة تبدأ في كل لحظة من لحظات حياتك..

لذا لنجعل لحياتنا هذا العام (أو اللحظة القادمة) معنى آخر.. نخصص فيه وقتا أكثر لأرواحنا العطشى، لنفوسنا الظمأى.. نتعلم حقيقة الإيمان الشعوري واليقظة السلوكية والبصيرة الروحية.. نتعلم أن نصمت أكثر، نتأمل أكثر، نحب أكثر، نتفكر أكثر، نفرح أكثر، نتطور أكثر، ولنجعل أمنياتنا عظيمة بمستوى عظمة أرواحنا التي أودعها الله فينا.

فقط.. أغمض عينيك

ماذا يمكن أن يحدث خلف ستار الجفون عندما تغمض عينيك؟ ماذا يمكن أن يحدث عندما تحين نهاية الفيلم الذي كنت تمثل فيه دور البطولة على مسرح الحياة؟

كلنا ممثلون بارعون نقوم بأدوار متنوعة على خشبة مسرح الحياة، فمن دور الأب إلى العامل والباحث إلى المحقق والكادح إلى الزوج والصديق إلى العابد والمهرج.. كلها أدوار يقوم البعض بها على أكمل وجه، وفي كل دور من هذه الأدوار يرتدي الإنسان القناع المناسب له، فقناع التسلط على العمال لا يتناسب وقناع الرفقة والصداقة، وقناع المحاسبة والدقة في العمل لا يناسب وقناع الإيثار الذي يلبسه للحبيب، وقناع الغلظة والمهابة للكرسي والمنصب لا يتناسب مع الأحفاد والأهل الذين يرتدي لهم قناع المودة والرأفة.. وهكذا فحياتنا ما هي إلا أدوار وأقنعة نلبس واحد ونقلع آخر، ولكن هل فكرت يوماً بترك كل تلك الأقنعة؟.

الممثل على خشبة المسرح ينتظر متى تحين ساعة إسدال الستار، ليرجع إلى نفسه وذاته، ويتخلص من تلك الشخصية التي كان يقوم بأداء دورها، يتخلص من ضجيج الجمهور الذي يصفق له بحرارة، وهو يعلم أنه شخصية أخرى غير تلك الشخصية الوهمية على المسرح. هناك من ينتظر نهاية العرض، ولكن هناك من يحبذ استمرار هذا العرض والتصفيق لأنه

يخشى أن يرجع إلى نفسه وذاته، حتى إذا أسدل الستار أصابته الكآبة والحزن.

وإذا كانت ستارة المسرح هي الفاصل بين الممثل وبين حقيقته، بين ما هو عليه وبين شخصيته الحقيقية، فإن لكل واحد منا ستارة هي أشد وقعاً وأبلغ قيمة من ستارة المسرح. هذه الستارة هي جفونك التي تفصل بينك وبين العالم الخارجي أو المسرح اليومي الذي تمثل فيه أدوار الحياة، فالعالم الخارجي وكل ما تراه هو جمهور المسرح أما أنت فحركتك وسعيك في هذا المسرح، بينما جفونك فهي الستار الفاصل الذي تطفئ فيه الأنوار لتعود إلى بيت ذاتك وكيانك.

يخاف البعض حين يغمض عينيه من ظلمة الجفون وما تسببه من وحشة وضياع وذهول، في حين أن حقيقة هذا الخوف سببه مواجهة النفس من الداخل والعودة إلى الذات الحقيقية المتجردة عن كل الأقنعة والأدوار، فعندما تغمض عينيك فأنت تخلص نفسك من كل الصور المرئية التي تعتقد أنها تشكل شخصيتك. تتخلص من كونك ذو بعد مادي، تتخلص من رسمك وأعضائك، وتتجه إلى ذاتك وأصلك الذي يمثل كيانك وجوهرك، وهنا فقط تدرك من أنت بعيداً عن مسرح الحياة.

لا نقصد بغلق العينين آلية الفعل.. وإنما غياب صور الأدوار التي قمنا بتمثيلها أثناء يومنا، وأثناء حياتنا، فكثير من الناس يغلقون أعينهم حين التأمل أو حين الاسترخاء ولكنهم لا ينفصلون عن أدوارهم، بل تبقى معلقة في أذهانهم تسبح في مخيلتهم، وأفكارهم. بل قد يحدث العكس عند كثير من الناس، فبمجرد أن يغلق عينيه تتكاثف في وعيه وفكره كل المشاكل والهموم والغموم والأحداث التي مرت به خلال اليوم، أو خلال عمره.

إغماض العينين أشبه بتفتح الزهور الليلية التي تملئ الجو بأريجها الفواح، فزهور الليل هي الأكثر انتعاشاً والأذكى رائحة والأجمل عطراً، فإغماض عينيك يفتح منافذ ذاتك ونفسك وينعش رذاذها وتموج ألوانها.

يؤكد العلماء أن النوم بما يتخلله من إغماض للعينين وسبات عميق تنبثق منه الأحلام يخلصنا من العديد من الاضطرابات النفسية الخطيرة، إن قول العلماء هذا صحيح، ولكن هذا لا يتوقف على حالة النوم فقط بل من الممكن أن نجني هذه الفوائد وأكثر فيما لو تعلمنا وتعودنا أن نغمض أعيننا في غير أوقات النوم.

إن إغماض عينيك لا يخلصك من شرود الذهن والتوتر والعصبية وتزاحم الأفكار وتوارد الخواطر المزعجة، بل الأهم من هذا أن هذا الإغلاق يفتح الأبواب الموصدة بينك وبين ذاتك ويخلق فيك ملكة التواصل والانسجام والتناغم ومع الأشياء من حولك، ويجعلك تدرك الأشياء على حقيقتها بذاتها والتي قد تجدها تتعارض مع الكثير مما تعلمته في حياتك، وأول ما ستفاجأ به هو نفسك القابعة من دون الأقنعة المزيفة.. فمتى ستغمض عينيك وتسدل الستار؟

الفهـــــرس

☐ الإهـــداء 5

☐ المقدمة 5

☐ ما يسبق العبادة 13

☐ تذوق حلاوة القرب 21

☐ الصلاة والتأمل 29

☐ الحج.. محاكاة للحياة 35

☐ تألق الصوم في زهرة اللوتس 41

☐ سر الشهر الكريم 45

☐ ليلة القدر.. تجلي الحب الإلهي 51

☐ اللذة الروحية للذكر 59

☐ رموز العبادات ودلالتها 67

☐ الليل والبناء الروحي 77

☐ دين البصيرة.. والخلاص 85

☐ أراك مهموما.. 95

☐ الصبر.. وتغيير القدر 115

☐ لا تفر وتهرب كالأطفال 123

☐ الخلوة.. وسقوط الأقنعة 127

□ الخطيئة الكبرى والهبوط 137
□ الفتن تعبر من نافذة الجهل.. 145
□ المتلاعبون بالعقول.. 153
□ رجال لا يخطئون.. 165
□ رسالة في زمن التيه 169
□ العلمانية.. وتشويه الأديان 173
□ لمن نسمع..!؟ 192
□ لا تنتقد.. أنت بالواد المقدس 201
□ قلق.. وترقب الغد.. 207
□ عندما يفقد الزمن زمانه 212
□ لا تقعوا في شباك الصياد.. 217
□ التغيير.. وطاحونة الحياة.. 221
□ هل تحب أن تملك كل شيء؟.. 225
□ طيور.. وأنغام الليل.. 231
□ سمكتي والمحيط.. 235
□ ماذا يريد الطفل الذي بداخلك؟.. 239
□ لمن يعشق جمال الورد.. 243
□ جنــة الظل 247
□ عش تجربة شروق الشمس 253
□ جرثومة العناية المركزة.. 256

□ تأملات.. على أغصان الشجر 259

□ تأمل الآفاق الكونية.. 262

□ البحر.. إيقاع تأملات 265

□ إشارة تعاقب الليل والنهار 271

□ الجنة.. والانتظار 275

□ إشارات وإرشادات السماء.. 279

□ شمعة العاشق 282

□ ابتهج.. وعبر عن حبك لله 285

□ صندوق الأمنيات 288

□ فقط.. أغمض عينيك 293

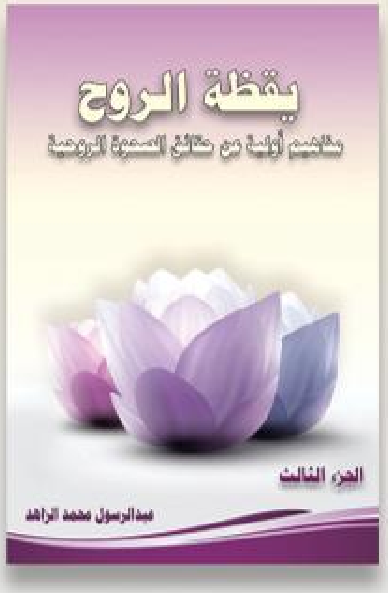

لقد وهبنا الله قدرة كبيرة على أن نكتب جزءا كبير من سيناريو حياتنا بأقلام إرادتنا ووعينا، ولكننا تنازلنا عن هذا الحق الإلهي لغيرنا.. أرادنا أن نكون مبدعين خلاقين واعين مفكرين يقظين، ولكننا فضلنا أن نكون مقلدين تابعين منقادينِ مسايرين، فعشنا على هامشٍ الحياة، تنسخ شخصيتنا لتكون مثيلاً كالآخرين نعتقد بما يعتقدون، ونفكر بما يفكرون وندور في طاحونة الحياة كما يدورون، ويملون علينا ما يعتقدون وفي سيناريو حياتنا يكتبون ما يشاؤون الأمر الذي أفقدنا ثقتنا بأنفسنا ككيانات روحية ملهمة منحها الله إمكانية المعرفة والعرفان وكشف الحقائق، فطمست على أثرها جوهر التجربة الروحية التي جعلها الله من أهم أهداف هذا الكائن الذي اختاره ليكون خليفة في الأرض لقد تغربت أرواحنا بهجرتها من موطنها الأصلي لتطور ذاتها وتقترب من معرفة خالقها، وبالتالي لا يمكن أن تترك عالمها ما لم تدرك ما ينبغي عمله في الحياة وما لم تكن لديها خارطة الطريق.

ولكن لم يفت الأوان بعد.. اليقظة الروحية تعيدنا للحياة من جديد، فالله سخر إمكانات العالم الآخر لخدمتنا وإرشادنا، علينا ان نبدأ ونوجه بوصلة قلوبنا نحوه.. فهو بانتظارنا.